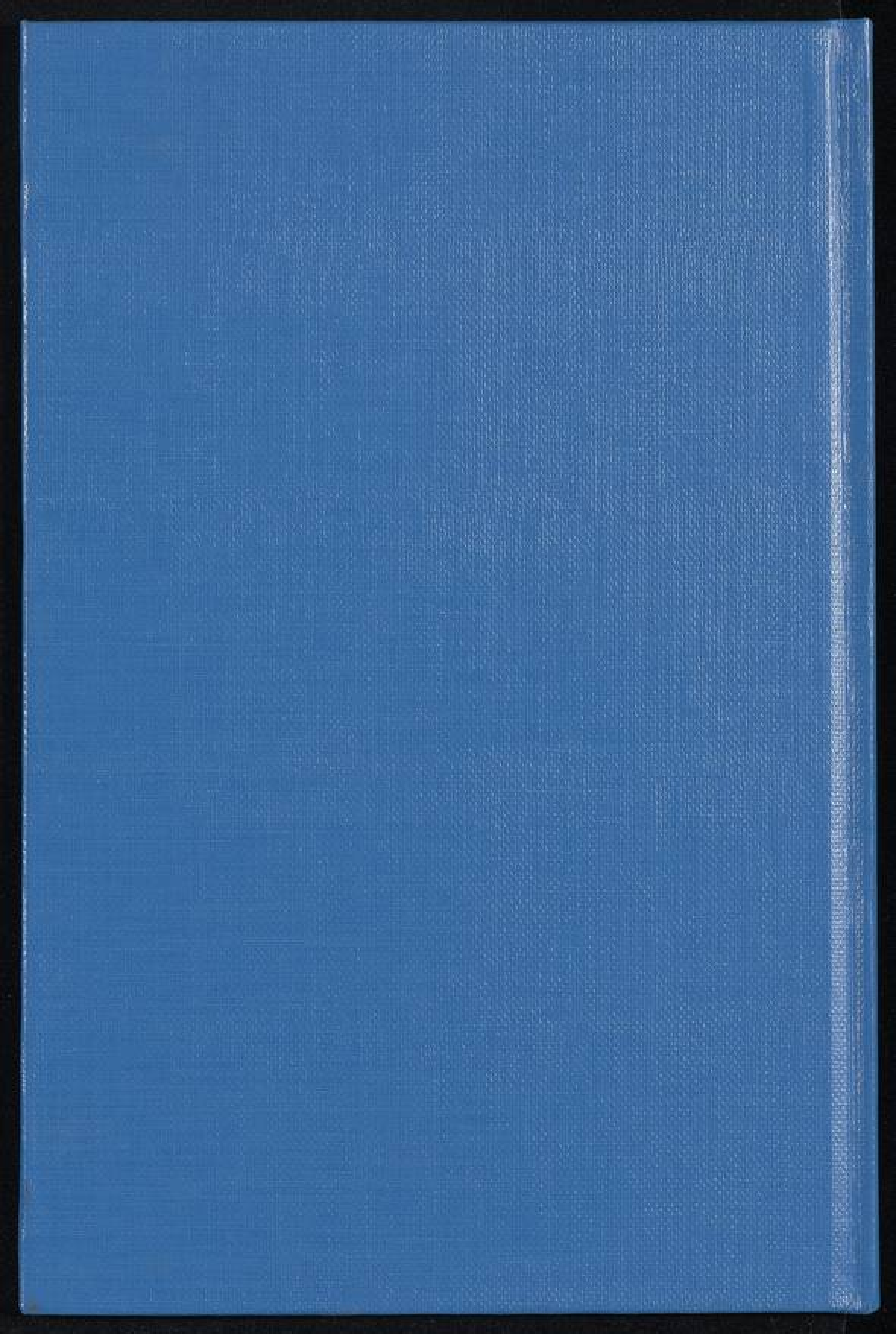




الامبراطورية البيزنطية والدولة الاسلامية

تأليف

دكتور ابراهيم أحمد العدوى

مدرس تاريخ العصور الوسطى
بجامعة فؤاد الأول

ملتزم الطبع والنشر

مكتبة نهضة مصر بالفجالة

مطبعة لجنة البيان العربي [illegible]

الى الاستاذ اسماعيل ابراهيم البيلى بك
مع تحيات
ابراهيم العدوى



الامبراطورية البيزنطية والدولة الاسلامية

تأليف

دكتور ابراهيم أحمد العدوى

مدرس تاريخ العصور الوسطى
كلية دار العلوم — بجامعة فؤاد الأول

ملتزم الطبع والنشر

مكتبة نهضة مصر بالفجالة

مطبعة لجنة البيان العربي ، شارع مصطفى باشا كامل بالخرنفش



al-Imbrāṭūrīyah al-Bīzanṭīyah
wa-al-Dawlah al-Islāmīyah

تصـــدير

بقلم حضرة صاحب العزة الأستاذ الدكتور محمد مصطفى زيادة بك

رئيس قسم التاريخ بجامعة فؤاد الأول

للتاريخ البيزنطى حقوق الجيرة والشفعة فى بناء تاريخ البلاد الإسلامية ، بل حقوق الشريك القديم كذلك ، لأن إمبراطورية المسلمين امتدت أول ما امتدت إلى بلاد بيزنطية فى غرب آسيا وشمال إفريقيا ، وهـذه بلاد تكوينها الحضارى أشبه شيء بمجموعة من حضارات متراكمة بعضها فوق بعض طبقات ، وآخرها وأوضحها للمسلمين وقتذاك حضارة البيزنطيين .

وللبيزنطيين كذلك آثار واضحة فى الحياة العامة ببلاد العرب نفسها قبل الإسلام ، ومصـداق ذلك وجود المسيحية البيزنطية (أرثوذكسية ونسطورية) فى جوف نجران ومخاليف اليمن وأطراف العراق الأعلى ، ثم نشاط التجارة البيزنطية فى بعض أمهات المدن العربية وموانى البحر الأحمر . وهذا وذاك مما يشرحه هذا الـكتاب فى شيء من التفصيل الذى يجعل الاهتمام بالتاريخ البيزنطي (والتاريخ الإيرانى كذلك) بديهة خالصة مطلقة عند أجيال القومة على التاريخ الإسلامى .

وسوف يرى قارئ هذا الكتاب أن دراسـة التاريخ الإسلامى وتدريسه لا يصلحان ولا يصلح صاحبهما إلا إذا تأهل أولا بنصيب — ولو قليل — من التاريخ البيزنطى (والتاريخ الإيرانى كذلك مرة أخرى من باب التأكيد) . وهذا هو قول المعنيين بالدراسات التاريخية الإسلامية فى مصر وغيرها من البلدان . ولست أقصد بذلك أن يصبح الأخصائى فى التاريخ الإسلامى أخصائياً كذلك فى التاريخ البيزنطى والإيرانى معاً ، بل يعرف من التاريخ البيزنطى ـ مثلا ـ ما يجعله

فى غنى عن استعمال لفظ « الروم وصاحب الروم » للدلالة على الدولة البيزنطية وأباطرتها وعلاقاتهم المختلفة بالدولة الإسلامية وخلفائها وسلاطينها فى مختلف العصور. وفى هذا الكتاب ما يدل على هذه العلاقات وأنواعها ، وعلى مقدار ما أفاد المسلمون من الحوادث والنظم البيزنطية فى الحرب والسياسة والبلاط والحاشية والادارة . ثم إذا أنا تكلمت بلغة الآثار فلا أستطيع إلا أن أضيف إلى اقتناعى الراسخ اقتناعاً أرسخ بوجوب الاهتمام بالتاريخ البيزنطى من جميع نواحيه فى دوائر التاريخ الإسلامى . ولمن حاجه الدليل على ذلك أن ينظر إلى باب النصر وباب الفتوح بسور القاهرة القديمة ، وإلى مدخل الجامع الأموى وسوق حميدية بدمشق ، ثم ينظر إلى بعض أجزاء من سور القسطنطينية البيزنطية وسوق استانبول الممتد وراء جامع بايزيد ، ليرى بنفسه مدى ما استمد المسلمون من البيزنطيين ـ وغيرهم ـ فى الطرز المعمارية ، وهى من أهم الدلالات على أحوال المجتمع فى أية دولة من الدول عَبْر التاريخ كله .

غير أنى أقول فى وضوح وحماسة علمية أن هذا الكتاب ـ على فائدته الواضحة ـ باكورة صغيرة أرجو أن يتلوها محصول كبير ، لأن مراحل التاريخ الإسلامى فى غرب آسيا وشمال إفريقيا على كثرتها ، لا تكاد تخلو طويلا من علاقات متنوعه وصلات بالتاريخ البيزنطى ودخائله . ثم إنى أود أن يكون ذلك المحصول الكبير مليئاً بعضه — على الأقل — بدراسات بيزنطية أصلية بحتة ، وأتمنى أن يكون صاحب هذا الكتاب صاحبها ، وأن يكون معظم المحصول المنتظر من ثماره الناضجة ، فإنه خليق بإنتاج على وافر من هذا المستوى على مرّ السنين ، لتوضيح مداخل التاريخ الإسلامى وجوانبه فى العصور الوسطى .

مصر الجديدة { ١٥ ربيع الثاني سنة ١٣٧٠ هـ
٢٣ يناير سنة ١٩٥١ م }

محمد مصطفى زيادة

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

بظهور الإسلام قطعت عجلة الشرق دورة كاملة فى مجرى تاريخها الطويل ، إذ استرد الشرق غابر مجده ، واستعاد سالف هيبته وسلطانه . فمنذ فتوحات الإسكندر المقدونى ارتبط الشرق بركاب الغرب ، ثم جاءت الإمبراطورية الرومانية الكبرى فشدت وثاق هذا الإرتباط ، وأخذت تجنى من بلاد الشرق ما لذّ لها وطاب . على أن مطالع القرن الرابع الميلادى آذنت بتحول عجلة القيادة صوب الشرق حين أحس أباطرة الدولة الرومانية الكبرى ضرورة نقل عاصمتهم إلى الطرف الشرقى من امبراطوريتهم . فقد اضطرب جوف الشرق بحركات غدت منبع خطر ملح على كيان الدولة ، ورأى الأباطرة ضرورة إقامتهم قرب هـذا المنبع لدفع غوائله عن صرح امبراطوريتهم العتيدة .

وتمت الخطوة النهائية فى تلك السبيل حين انتقل الإمبراطور قنسطنطين الكبير إلى مدينة بيزنطة على البسفور واتخذها مقراً له . على أن أحـداث القرنين الرابع والخامس الميـلادى لم تلبث أن أودت بكيان القسم الغربى من الإمبراطورية الرومانية ، وخلفت القسم الشرقى منها مثقلا بأعباء الإمبراطورية الأولى . وجاء استمرار هذا القسم الشرقى من الإمبراطورية الرومانية حملا جثم على الشرق ورقيباً وقف لحركاته بالمرصاد . فدأبت هذه الإمبراطورية على التطلع إلى الشرق بعين ملؤها الحذر مما حملها على أن تختط لنفسها سياسة شرقية باعدت بينها وبين أهداف أمها الإمبراطورية الرومانية الكبرى ، وجعلتها قمينة أن تدعى الإمبراطورية البيزنطية .

ولكن يؤتى الحذر من مأمنه ، فبينما الدولة البيزنطية تمعن فى سياستها الشرقية لاح نور الإسلام فى بقعة تركتها سياسة الدولة البيزنطية نفسها ممهدة لظهور الدعوة المحمدية السامية . ولذا يهدف هذا الكتاب إلى بيان تخلص الشرق من ربقة الدولة البيزنطية بفضل هذا الدين الجديد ، وكيف استطاع أن يكسب مقومات جعلته وحدة عالمية ذات أفق واسع .

فعالجت فى الفصل الأول سياسة الدولة البيزنطية فى بلاد العرب « مهد الإسلام » ، وكيف هيأت الأحداث العالمية إذ ذاك الجو لانتشار الدعوة الإسلامية فى هذه البلاد . ثم تناولت فى الفصل الثانى ما أفاده الإسلام من التيارات المختلفة التى امتلأت بها الدولة البيزنطية حتى خلّص منها بوجه خاص الشام ومصر ، هاتين الدولتين الشرقيتين ، موطن الحضارات القديمة . ثم عرضت انتقال دول الشرق الإسلامى من دور التكوين إلى دور الكفاح للذود عن حياضها وإعلاء شأنها . ذلك أن المسلمين أخذوا ينافسون البيزنطيين فى السيطرة على حوض البحر الأبيض المتوسط الشرقى ، الذى غدا إذ ذاك قلب العالم النابض ومنبع القوة لكل من تطلع إلى السيادة والسلطان . ثم إن هذا الكفاح الذى بلغ ذروته فى محاولات المسلمين الإستيلاء على القسطنطينية وانتهائه ببقاء هذه العاصمة بعيدة عن متناول قواتهم علمهم كيف يؤقلمون سياستهم ، وأن دولتهم أضحت تكون مع الإمبراطورية البيزنطية محوراً تدور عليه أحداث العالم إذ ذاك .

وهنا يتضح فى الفصل الثالث كيف حافظ كل من الفريقين على بقاء الميزان السياسى بينهما متعادلا ، وأن ما يطرأ على علاقتهما السياسية من أخذ ورد إنما هو من علامات الحياة وما يصاحبها من سنن . ثم عرضت فى الفصلين الرابع والخامس مظاهر تعاون الدولتين على ما فيه نفعهما ، من تبادل تجارى وثقافى ، وتزود كل فريق من معين الآخر بما يقتضيه ذلك من القيام بزيارات وتبادل احترام المعتقدات .

وفى هذا العرض السالف ابتعدت عن الإغراق فى التفاصيل التى تجعل القارئ يضرب فى بيداء متشعبة المسالك لا نهائية السراب . كذلك جعلت فترة ظهور السلاجقة والنورمان نقطة إنتهاء السرد التاريخى للعلاقات بين المسلمين والبيزنطيين فى هذا الكتاب . ذلك أن الدور الذى قامت به هاتان القوتان يعتبر نقطة تحول فى تاريخ العصور الوسطى العام ، أبعدت المسلمين والبيزنطيين عن انفرادهما بتبوئ أسمى مكانتين فى العالم .

إن الحقبة التى يتناولها هذا الكتاب هى الأرض البكر التى يجب أن يعمل فيها الراغبون فى النهوض بالشرق الإسلامى ، وتقديم ثمرة جهودهم لدعم الأسس التى يقف عليها صرح دولة اليوم . ولعل ماقمت به فى هذا الصدد من عرض عام يجذب الأذهان إلى أهمية هذه الحقبة من تاريخ دول الشرق الإسلامى ، وأعشم أن تكون هذه القطرة طليعة غيث منهمر من أبحاث أبناء الشرق يغذى تربة بلادهم ويكسوها نضرة وبهاء .

وإنى إذ أتطلع إلى المستقبل الباسم فى هذا الميدان أذكر هذا العمل الصامت المسموع الذى ساهم به أستاذى الدكتور محمد مصطفى زياده فى هذا الصدد ، إذ ساعدنى مساعدات صادقة فى إخراج هذا الكتاب ، إلى جانب تيسيره لى مهمة الاطلاع على مذكراته الخاصة التى أعدها فى هذا الموضوع ، وأعشم أن يجد القراء فى هذا الكتاب باكورة لرفع قواعد هذا الصرح من الدراسات التاريخية التى وضع أسسها الدكتور مصطفى زيادة ليس فى مصر فحسب ، بل وفى بلاد الشرق الإسلامى أجمع .

الجيزة فى { ١٢ ربيع الثانى سنة ١٣٧٠ هـ
٢٠ يناير سنة ١٩٥١ م

إبراهيم العدوى

« إن أعظم قوتى العالم أجمع قوة العرب وقوة الروم تعلوان وتتألقان كالشمس والقمر فى السماء ، ولهذا وحده يجب أن نعيش إخوة ، على الرغم من اختلافنا فى الطبائع والعادات والدين »

(من رسالة نيقولا ميستيكوس بطريق القسطنطينية حوالى منتصف القرن العاشر الميلادى إلى حاكم جزيرة كريت أيام تبعيتها للمسلمين) .

الفصل الأول

الإمبراطورية البيزنطية والعرب قبل الإسلام

التجارة البيزنطية فى بلاد العرب الجنوبية

لم تعرف أوربا طوال العصور الوسطى دولة أدركت أن التجارة أهم أركان الحياة الاقتصادية إدراك الدولة البيزنطية لهذه الحقيقة الدامغة على مر العصور، ما عدا البندقية وأخواتها من الجمهوريات الإيطالية التى لم تدرك هذه الحقيقة إلا منذ القرن الثانى عشر الميلادى فصاعدا. والواقع أن الدولة البيزنطية إتخذت من التجارة دعامة أقامت عليها صرح إمبراطوريتها، وسيرت بها أداتها الإدارية وجعلت منها وسيلة لرعى مصالحها السياسية عند جيرانها من الدول الكبيرة والصغيرة حتى غدت مكانتها فى عالم السياسة والمال موضع الهيبة الواضحة.

ولم تصل الدولة البيزنطية إلى تلك المكانة إلا بفضل استغلالها لموقعها الجغرافى الفريد وحسن قيامها على التراث الذى تلقته عن الدولة الرومانية الكبرى، وهى أمها الخالدة. فقد بنت تلك الأم الرومانية مجدها فى سلسلة من الفتوحات والتوفيقات الحربية الباهرة التى جعلتها سيدة التجارة فى العالم القديم. فكان التيار التجارى الرئيسى يتدفق من الشرق الأقصى إلى البحر الأبيض المتوسط حيث تقاطرت إيطاليا ومصر والشام وآسيا الصغرى على شراء التوابل والعطور والحرير وغيرها من منتجات الشرق الأقصى لتسد بها حاجاتها الاقتصادية، وتكمل بها أسباب

رفاهيتها[1] . ومن ثم كان البحر الأبيض المتوسط السوق الرائجة وبلاده العميل الذى يحرص القابضون على ناصية التجارة الشرقية إدخاله فى ميدان نفوذهم ودائرة نشاطهم . وتمتعت الدولة الرومانية الكبرى بمركز الصدارة فى هذه السوق ، وكان لها فيه مكانة سامية لم تبلغها دولة أخرى من قبل أو من بعد . ذلك أن جميع الأقاليم المحيطة بذلك البحر خضعت لسلطان روما ، وغدا البحر الأبيض المتوسط بحيرة رومانية أطلق عليه الرومان اعتزازاً به اسم « بحرنا Mare Nostrum »[2] . ودعمت تلك الإمبراطورية سيطرتها على هذا السوق باستيلائها على أفواه المسالك والدروب ، ومنافذ الطرق التجارية الرئيسية التى كانت تمر بها تجارة الشرق الأقصى إلى البحر الأبيض المتوسط ، وأقامت عندها دواوين « Douanes » وهى أصل نظام الجمارك الحالية . ومن هذه الدواوين التجارية إمتلأت خزائن الإمبراطورية من حصيلة المكوس على الصادر منها والوارد إليها من تلك المتاجر .

وكانت هناك أربعة طرق تجارية رئيسية تسلكها التجارة الشرقية ، أحدها يمر فى تركستان إلى بحر قزوين (بحر الخزر) حيث يتفرع إلى فرعين ، يتجه أولهما شمالا إلى نهر إتل (الفلجا) ومنه إلى بحر بنطس (البحر الأسود) حيث ينتهى عند مدينة خرسون ؛ والفرع الثانى يسير جنوباً مخترقاً شمال فارس ويمر بأرمينية إلى طرابيزون على البحر الأسود ؛ ومن هذين الفرعين تنتقل التجارة من البحر الأسود عبر البسفور والدردنيل إلى البحر الأبيض المتوسط . أما الطريق الثانى فيمر بالهند وأفغانستان وأواسط فارس إلى نصيبين فى أرض الجزيرة ومنها إلى سوريا . أما الطريق الثالث فيسير بحراً إلى الخليج الفارسى ثم يتبع طريق الفرات حيث يتشعب شعبتين تخترق إحداهما سوريا والأخرى آسيا الصغرى . أما الطريق

---

(1) S. Runciman , Byzantine Civilisation , 163 .

(2) C. G. Starr The Roman Imperial Navy , 106 , 110 ,
Runciman, op cit, 149.

الرابع والأخير فكان مائياً من أوله إلى آخره عبر البحر الأحمر[١]، ثم يتحول برياً إلى مصر، وأحياناً تنقل المتاجر من شمال البحر الأحمر إلى فلسطين[٢].

على أن الميزان التجارى للامبراطورية الرومانية أخذ يختل من مطالع القرن الرابع الميلادى، إذ كانت الإمبراطورية على أبواب عصر جديد، يؤذن بانتقال نقطة ارتكازها من روما إلى شرق الإمبراطورية لمواجهة الأخطار التى أخذت تتجمع على الحدود الشرقية من ناحية آسيا. ثم تمخضت أحداث القرنين الرابع والخامس الميلادى عن تأسيس روما جديدة، وهى القسطنطينية كما سميت فيما بعد، فى موضع مدينة بيزنطة القديمة على البسفور[٣].

وهكذا غدت الإمبراطورية الرومانية قسمين هما الدولة الرومانية الشرقية وعاصمتها القسطنطينية، والدولة الرومانية فى الغرب وعاصمتها ميلان بعد أن ذهبت عن روما هيبتها القديمة. ودل أباطرة القسم الشرق على بعد نظر حين انتهجوا لأنفسهم سياسة شرقية، ودعوا بها الأحلام والمطامح الرومانية الأولى القديمة، وضمنوا بذلك إمبراطورية جديدة تسير فى اتجاه شرقى جمل إسمها قمينا باسم الإمبراطورية البيزنطية، إحياء لاسم عاصمتهم القديم. وآتت تلك السياسة الشرقية أكلها حين أخذت القبائل الجرمانية، التى دأبت على الإغارة على أراضى الدولة الرومانية ابتغاء العيش فى كنفها والتمتع بمشاركة ثرائها، تولى وجهها من القرن الخامس فصاعدا، بفضل الدبلوماسية البيزنطية، شطر الدولة الرومانية فى الغرب. فزالت الإمبراطورية الرومانية من الغرب فى القرن الخامس زوالا عمليا وحل محلها

---

(١) كانت قوافل بلاد العرب تشارك هذا الطريق البحرى فى نشاطه التجارى. فكانت تنقل المتاجر من عدن التى سميت « المخزن الرومانى » وتسير بهـا القوافل شمالا فى جوف اليمن الى معين ونجران، ثم الى الطائف فمكة فيثرب وأخيراً تنتهى عند بطرا، ومن بطرا تسير القوافل كذلك إلى غزة ومصر.

(٢) Runciman, op cit, 164,

(٣) I bid, 13, 14.

عدة ممالك جرمانية ارتبط بمصائرها تاريخ غرب أوربا[1] . ولم يأت القرن السادس الميلادى حتى غدا الميزان التجارى فى قبضة بيزنطة أو القسطنطينية ، عاصمة تلك الدولة الرومانية الشرقية التى صامدت أحداث القرنين الرابع والخامس الميلادى ، وأضافت إلى مكانتها ما كان لزميلتها فى الغرب من هيبة ونفوذ تجارى .

وهكذا كانت الدولة البيزنطية فى القرن السادس الميلادى الوريث الحقيق لمجد الدولة الرومانية الكبرى التجارى ، وغدت رغم قيام الممالك الجديدة فى غرب أوربا صاحبة الكلمة العليا فى تصريف شئونها الاقتصادية . ذلك أن الوضع الجغرافى لهذه الدولة حفظ لها مكانة ممتازة فى حلبة الاقتصاد والسياسة بين دول العصور الوسطى بفضل ما كفله لها من السيطرة على شرق البحر الأبيض المتوسط ومراكزه الهامة للتبادل التجارى[2] . فكانت رقعتها تضم بحر إيجة ومنافذه التجارية ، وشواطئ آسيا الصغرى الشمالية والجنوبية ، وكذلك موانى الشام وفلسطين ومصر . وأخذت الدولة البيزنطية بفضل هذا الموقع الفريد وبحكم موقع عاصمتها القسطنطينية توجه سياستها التجارية اتجاهاً جديداً قوامه الاعتماد فى الحصول على منتجات الشرق على الطرق البرية عبر آسيا ، ولذا أهملت الطريق البحرى الرئيسى الذى يمر بالبحر الأحمر ومصر وفلسطين . ويبدو أن الدولة البيزنطية كانت ترمى من وراء اتباع تلك السياسة إلى إحياء موانيها ومراكزها التجارية على البحر الأسود والإعلاء

(١) تعتبر سنة ٤٧٦م العام الذى زالت فيه الإمبراطورية الرومانية فى الغرب زوالا مادياً. فى هذه السنة ثار قادة القبائل الجرمانية فى إيطاليا على الإمبراطور رومولوس (Romulus) ووالده أورستيز (Orestes) ، صاحب السلطة الفعلية . واستطاع أودوآكر زعيم الجرمان قتل أورستيز ونفى ابنه ، وأرسل إلى إمبراطور الدولة الرومانية فى الشرق يخبره بما حدث فى إيطاليا وأنها لم تعد بحاجة إلى إمبراطور ، وأنه يرغب فى أن ينعم عليه بلقب النائب الإمبراطورى فى إيطاليا. وغدا الجرمان سادة إيطاليا وغالة (فرنسا) وأسبانيا وبريطانيا ، وأضحت دولهم الناشئة مطالع العصور الوسطى بأوربا .

(٢) Vasiliev , Histiore de L'Empire Byzantin I, 213.

من شأن عاصمتها فى دوائر التجارة العالمية .

وإذ جنت الدولة البيزنطية أشهى الثمار من هذه السياسة التجارية الجديدة التى انتهجتها ، فإن الملابسات الزمنية والأوضاع الجغرافية كذلك أثبتت لها خطأ تماديها فى تلك السياسة الجديدة وكلفتها أيضاً ثمناً غالياً لعدم عنايتها بالطريق البحرى الجنوبى الذى يمر بالبحر الأحمر[١] . فالدولة البيزنطية رغم مكانتها التجارية العالية لم تكن العميل المباشر مع الشرق الأقصى ، إذ قام بنقل المتاجر عبر الطرق الرئيسية أقوام أو دول إما حليفة أو موالية للدولة البيزنطية . ولذا غدت سلامة الطرق البرية الأسيوية تتوقف على عدم قيام منافس خطير ينازع الدولة البيزنطية سيادتها التجارية أو يحد من مواردها الطائلة[٢] . وحدث فى القرن السادس الميلادى ما كان منتظراً وقوعه من حين وآخر للحد من سلطان الدولة البيزنطية التجارى . ذلك أن دولة الفرس التى استقرت أمورها بفضل قيام الأسرة الساسانية (التى خلفت دولة البارثيين[٣] القديمة سنة ٢٢٦م) استولى عليها فى القرن السادس الميلادى تيار من حب التوسع والفتح على حساب الدولة البيزنطية . وغدت تلك الدولة الفارسية

(١) كانت الدولة الرومانية الكبرى تولى عناية بهذا الطريق البحرى وعولت على بسط سلطانها عليه . فقد رأى الامبراطور أوكتافيوس فاتح مصر أن التجارة المصرية غير حرة بسبب احتكار الحميريين سكان اليمن للمتاجر الهندية الواردة إلى مصر عن طريق البحر الأحمر . فبعث حملة من مصر سنة ٢٤ ق . م تحت قيادة حاكم مصر نفسها جايوس جالوس لاخضاع الحميريين . وأبحر هذا القائد من ميناء أرسينوى Arsinoe (القلزم العربية ، أو السويس الحالية) ، وفضل النزول فى ميناء Leuco — Come (الحوراء) فى الحجاز بدلا من الاتجاه مباشرة إلى اليمن . ولكن لقى متاعب فى الزحف براً أدت إلى فشل حملته وعاد إلى مصر . ولكن مهما يكن من نتائج الحملة ، فهى تكشف عن مدى اهتمام الدولة الرومانية الكبرى بهذا الطريق البحرى ، الذى لم تقدر بيزنطة أهميته إلا بعد زمن متأخر .

(٢) Vasiliev, op cit, 214.

(٣) يطلق الفرس على بلادهم اسم إيران ، أما اسم بارس فهو اسم المقاطعة الجنوبية منها فحسب ، وكانت موطن الأسرتين العظيمتين ، الأخامنيين والساسانيين . على أن اليونان حرفوا كلمة بارسا إلى برسيس وأطلقوها على كل البلاد .

بموقعها الجغرافى عقبة كئود فى وجه الطرق التجارية المؤدية إلى الدولة البيزنطية ، حتى أضحت هى القوة التى تحتكر المنتجات الشرقية ، تفرض عليها المكوس الباهظة قبل وصولها إلى بيزنطة . وأدى هذا التنافس التجارى الجديد إلى قيام صراع بين فارس وبيزنطه جهدت فيه كل منهما على السيطرة على المنافذ التجارية التى تفيض بالثروة والخيرات . ويمكن تلخيص الاتجاهات الرئيسية لمجرى الحروب المتقطعة التى نشبت بين الدولتين فى محاولات فارس مد ذراعيها للوصول إلى البحر الأسود والبحر الأبيض المتوسط للسيطرة سيطرة تامة على سوق التجارة الشرقية . ووقفت بيزنطة ترد الزحف الفارسى ، ونجحت دائماً فى الاحتفاظ بمنافذ الطرق الرئيسية ، وهو ماجعلها صاحبة الكفة الراجحة فى الميزان التجارى رغم ماتكبدته من نفقات .

على أن الحروب البيزنطية الفارسية وما تخللها من نجاح أحياناً وفشل أحياناً أخرى للبيزنطيين تمخضت عن أضرار بليغة لحقت تجارة الدولة البيزنطية . فقد أشاعت تلك الحروب الفوضى والاضطراب فى الطرق الأسيوية مما زعزع كيان الدولة البيزنطية التجارى لاعتمادها على تلك الطرق أكثر من غيرها فى استيراد المتاجر الشرقية وبناء ثروتها الاقتصادية . ولذا أخذت الدولة البيزنطية تبحث عن الطرق التجارية التى تكون بعيدة عن أرض فارس ، أو تلك التى لاتقع تحت طائلة الجمارك الفارسية الباهظة . وكان أمام الدولة البيزنطية طريقان ، وهما الطريق الذى يسير فى أقصى الشمال عبر مناطق الاستبس الأسيوية . ولكن حماية التجارة التى تنقل عبر هذا الطريق تتطلب إقامة حاميات عديدة على طول الطريق أو كسب صداقة الأقوام المبعثرة على جانبيه . وفى كلتا الحالتين تتكلف الدولة البيزنطية أكثر مما تجنيه من فوائد استخدام هذا الطريق الشمالى (١) . ومن ثم لم يكن أمامها

(1) Runciman, Op cit, 164,
Vasiliev, Op cit, 214.

غير الاتجاه إلى إحياء الطريق الآخر وهو الطريق البحرى الجنوبى ، مما دفعها إلى العمل على استعادة هيبتها فى المراكز التجارية المطلة عليه والدخول أخيراً فى غمار الأحداث التى جرت فى جنوب بلاد العرب فى ذلك الوقت .

كان للدولة البيزنطية فى أقصى شمال ذلك الطريق ميناء أيله المطل على خليج العقبة ، ومن هذا الميناء إنتقلت التجارة براً إلى فلسطين وسوريا . وكان لبيزنطة ميناء آخر هام على طرف هذا الطريق البحرى وهو القلزم (السويس) ، حيث تنتقل المتاجر مباشرة إلى البحر الأبيض المتوسط . وبالقرب من مدخل خليج العقبة جنوب رأس شبه جزيرة سيناء ، وجدت عدة جزر أقامت الدولة البيزنطية على إحداها وهى جزيرة جوتابا (تيران الحالية) ديواناً للجمارك تجبى فيه المكوس على الواردات الشرقية قبل دخولها البحر الأبيض المتوسط . وأخذت قبضة بيزنطة على مراكزها فى هذا الطريق ، وكذلك نفوذها هناك ، يتلاشى منذ أواخر أيام الإمبراطور ليو الأول (حوالى سنة ٤٥٦ م) ؛ وربما كان ذلك لانصراف بيزنطة نحو الطرق البرية الأسيوية جرياً وراء سياستها الأولى التى سارت عليها . وكان من الأدلة الواضحة على عجز الإدارة البيزنطية عن حماية مناطقها التى تشرف على هذا الطريق واختفاء كل مظهر من مظاهر القوة لها هناك ، أن استولى مغامر فارسى يدعى أموركيزوس (Amorkesos) على جزيرة جوتابا[1] . فقد فر هذا المغامر من وطنه تحت ضغط عدة عوامل ، منها ما لحقه من معاملة سيئة ، ورحل إلى شمال بلاد العرب حيث ألقى عصا التسيار فى إحدى جهاتها القريبة من شبه جزيرة سيناء . وهناك أخذ يغير على شبه الجزيرة مدفوعا باختفاء مظاهر القوة بها ، ووسع دائرة نفوذه حتى توجه بالإستيلاء على جزيرة جوتابا التابعة للدولة البيزنطية . وبذلك جمع لنفسه ثروة طائلة من المكوس التى فرضها على التجارة ، وبسط سيطرته على الأقاليم

(1) J. B. Bury : A History of The Later Roman Empire, I, 231, 232, Vasiliev , Op cit, I, 218 .

المجاورة لهذه الجزيرة ، وغدا الحاكم المطلق عليها . ثم ترامت به المطامع إلى أن ينال من الدولة البيزنطية لقب فيلارخ (Phylarch) ، وحاكما على أهالى بلاد العرب الصخرية[١] التابعة للدولة[٢] .

ورضخت الدولة البيزنطية لمشيئة ذلك المغامر الأفاق ، فأعد له الامبراطور ليو الأول مقابلة شخصية أغدق عليه فيها جميع مظاهر الحفاوة والتكريم وأجلسه معه على المائدة الإمبراطورية وسمح له بمشاهدة بعض جلسات مجلس الشيوخ ، مما أثار سخط الكثيرين من البيزنطيين لتكريم أحد عبدة النار ورفعه إلى تلك المكانة . وعند رحيل أمور كيزوس أهداه الإمبراطور صورة من الموازيكو وأعطاه وثيقة تمنحه جزيرة جوتابا ولقب فيلارخ . ويبدو أن سياسة المسالمة ، التى لم يسندها أى نوع من صلابة قناة الدولة البيزنطية ، أغرت البدو المقيمين فى شبه جزيرة سيناء على الإغارة على فلسطين ونهب المتاجر الشرقية . ولذا عول الأمبراطور أنستاسى الأول (Anastasius I) (٤٩١—٥١٨ م) ، أحد خلفاء ليو الأول ، على استعادة سيطرة بيزنطة وهيبتها على هذا الطريق . فأعد جيوشاً لتأديب أولئك البدو وأوقع بهم هزيمتين ساحقتين كللهما فى سنة ٤٩٨ م بالإستيلاء على جزيرة جوتابا وإعادتها إلى حظيرة بيزنطة[٣] .

على أن اتجاه بيزنطة إلى طريق بلاد العرب التجارى لم يأخذ صبغة جدية واضحة إلا منذ عهد الإمبراطور جستنيان العظيم (٥٢٧ — ٥٦٥ م) . فأولى هذا

---

(١) تواضع الكتاب الأقدمون على تقسيم بلاد العرب إلى ثلاثة أقسام ؛ بلاد العرب السعيدة (Arabia Felix) ، وبلاد العرب الصخرية (Arabia Petraea) ، وبلاد العرب الصحراوية (Arabia Deserta) ، وهذا التقسيم يتفق مع حالة بلاد العرب السياسية فى القرن الأول الميلادى فكان القسم الأول مستقلا والقسم الثانى خاضعاً للرومان والثالث تحت سيطرة البارثيين الاسمية.

(٢) Bury, Op cit, 232 .

(٣) Ibid, 295.

الإمبراطور عنايته بالطريق البحرى وبأحوال جنوب بلاد العرب تحت ضغط فارس وشططها فى احتكار الحرير وفرض الضرائب الباهظة على المتاجر الشرقية . ورأى جستنيان أن يجذب إليه كلا من مملكة أكسوم (الحبشة) ودولة الحميريين فى اليمن . فكانت هاتان الدولتان تقومان بمهمة الوسيط فى نقل التجارة من الهند والشرق الأقصى عبر طريق البحر الأحمر إلى أراضى الدولة البيزنطية[١] . وكانت الظروف فى ذلك الوقت مواتية لتدخل جستنيان فى شئون هاتين القوتين ، وعول على استغلال هذا التدخل لتنفيذ مآربه التجارية والسياسية . فقد نشب صراع دينى بين المسيحية واليهودية فى جنوب بلاد العرب إنغمس فيه الأحباش والحميريون ، وغدا ميدانا تردد فيه صدى الإختلافات والتنافس بين الدولتين الكبيرتين البيزنطية والفارسية .

فالمسيحية واليهودية دخلتا بلاد اليمن فى العصر الحميرى الثانى (٣٠٠ — ٥٢٥ م) وازدهرتا سريعاً بحيث غدا اصطدامهما فى القرن السادس الميلادى أمراً محتوماً ، ولا سيما أن كل دولة من الدولتين البيزنطية والفارسية وقفت تؤازر إحدى هاتين الديانتين . فشدت بيزنطة أزر المسيحية والمسيحيين واعتبرت نفسها صاحبة الفضل فى نشر تلك الديانة فى بلاد العرب ، إذ سلكت المسيحية سبيلها إلى بلاد العرب من الشمال حيث الشام[٢] ، كما أخذت بعض جماعات شامية تدخل بلاد اليمن فى أزمان غير معروف تواريخها فراراً من الاضطهادات الدينية التى قامت من حين إلى آخر فى بلاد الشام . وأول سفارة مسيحية إلى جنوب بلاد العرب وصلتنا أخبارها كانت فى سنة ٣٥٦م، أرسلها الإمبراطور قنسطنطيوس

---

(١) Vasiliev, Op cit, 214, 215

(٢) كذلك وصلت المسيحية إلى جنوب بلاد العرب من مملكة الحيرة ، ولكن لم أتعرض لسرد هذا الجانب المسيحى وأهميته لبعده عن موضوع البحث ، وليس معنى ذلك إغفال شأن الدور الذى لعبه اللخميون أهل الحيرة .

(Constantius) بزعامة رجل يدعى ثيوفيلوس . وتعتبر تلك السفارة مطالع لامتداد الأطماع السياسية الدولية والمنافسة بين البيزنطيين والفرس للحصول على مناطق نفوذ فى جنوب بلاد العرب . ونجح ثيوفيلوس فى إنشاء كنيسة فى عدن وإقامة كنيستين أخريين فى مملكة الحميريين . كذلك اعتنقت نجران المسيحية سنة ٥٠٠م على يد قديس من الشام يدعى فيمون أسرته قافلة عربية عادت به إلى نجران [١] .

على أن الديانة اليهودية سرعان ما نازعت المسيحية السيطرة والنفوذ فى بلاد اليمن ، فتلك الديانة التى دخلت بلاد العرب منذ زمن مبكر يرجع غالباً إلى غزو الأمبراطور تيطس لفلسطين وتحطيمه بيت المقدس سنة ٧٠م ، ازدهرت فى النصف الأول من القرن السادس الميلادى ، وغدت اليهودية إذ ذاك صاحبة السيادة فى بلاد اليمن التى حكمها ملك حميرى يهودى يدعى ذو نواس [٢] .

وإذا كانت المسيحية قد وقفت تشد أزرها بيزنطة ودولة الحبشة المسيحية ، فإن اليهودية أضحت فى نظر معتنقيها من اليمنيين ديانة تمثل الروح القومية للبلاد ، واعتبر اليهود المسيحية رمزاً للتدخل الأجنبى ، وأثراً من آثار نفوذه وسلطانه . ومن ثم غدا الصراع بين هاتين الديانتين محتمل الوقوع بين حين وآخر ، وانفجر الصراع بمذبحة كبرى أطاح فيها اليهود بمسيحيى نجران فى أكتوبر سنة ٥٢٣ [٣] م . لكن أفلت أحد المسيحيين وذهب إلى بيزنطة يطلب النجدة والمعونة . على أن تلك المسألة الدينية اختلطت بالأغراض التجارية مما يحمل على الاعتقاد أن اليهود كانوا ينفذون سياسة فارسية هدفها القضاء على النفوذ البيزنطى الأدبى والتجارى فى بلاد اليمن . فقد وقع حوالى تلك الفترة عدة حوادث إعتداء وسلب وذبح للتجار

---

(١) Hitti , History of the Arabs, 61

(٢) I bid, 61 , 62

(٣) ابن هشام ، كتاب التيجان فى ملوك حمير (حيدر أباد) ص ٣٠١ ؛ Hitti, op cit, 62

البيزنطيين الذين كانوا يعبرون جنوب بلاد العرب فى طريقهم إلى الحبشة ، ولذلك أرسل الإمبراطور البيزنطى جستين الأول (٥١٨ — ٥٢٧ م) إلى ملك الحبشة يدعوه إلى أن يضع حداً لعدوان اليهود فى اليمن [١] . فجهز النجاشى حملة عبرت البحر الأحمر تحت قيادة أرياط . وتعتبر تلك الحملة جزء من سياسة بيزنطة العامة فى ذلك الوقت لإخضاع القبائل العربية لنفوذها واستخدامها ضد فارس . وتمكن أحد ضباط تلك الحملة واسمه أبرهه ، الذى حل مكان أرياط فى القيادة ، أن يهزم ذا نواس اليهودى ، الذى فرّ تاركا اليمن لسيادة الحبشة المسيحية (٥٢٥م) . وأرسل ملك الحبشة إلى جستين الأول وبطريق الإسكندرية يزف إليهما بشرى النصر والفوز .

وقام الإمبراطور جستنيان العظيم ، خليفة جستين الأول ، بدفع السياسة البيزنطية خطوات إلى الأمام فى جنوب بلاد العرب ليجنى ثمار ماغرسه الإمبراطور جستين وأسلافه . فبعث هو الآخر سفارة إلى ملك الحبشة وإلى الحميريين ليحملهما على تنفيذ أغراضه التجارية والسياسية ، ولا سيما تشجيع الحبشة على القيام بدور فعال لوضع حد لاحتكار فارس لتجارة الحرير [٢] وغيرها من منتجات الشرق [٣] . على أن اهتمام جستنيان بذلك الطريق جاء متأخراً ، إذ دعم الفرس سيطرتهم على المراكز التجارية فى المحيط الهندي التى كانت تتجمع فيها التجارة الشرقية قبل نقلها عَبْر طريق البحر الأحمر ، وتركوا للحبشة نصيباً محدوداً فى نقل بعض تلك المتاجر .

وتوجد معلومات قيمة عن نشاط الحبشة حليفة بيزنطة وعدم نجاحها فى تحقيق أغراض جستنيان التجارية ، وفشلها كذلك فى منافسة فارس ، فى كتاب وضعه حوالى منتصف القرن السادس الميلادى شخص يدعي كوزماس الملقب « بيحار

---

(١) Bury, Op cit, 469.

(٢) كانت الحبشة المسيحية تعتبر فى ذلك الوقت وكيلة الدولة البيزنطية فى رعاية مصالح المسحيين فى بلاد العرب ، وامتدت الرابطة بينها إلى الشئون التجارية هناك .

(٣) Vasiliev, op cit, 218.

المحيط الهندى Cosmas Indicopleustes » . فكان هذا البحار الإسكندرى المولد ، مغرما بالترحال والأسفار والإتجار فى السلع أيضاً . ويبدو أنه لم يكن راضياً عن الأحوال التجارية فى مصر فى أيامه . ولعل ذلك يعزى إلى قلة نشاط حركة النقل التجارى فى طريق البحر الأحمر الذى تأثر من سيطرة فارس التجارية على مياه المحيط الهندى . وترك كوزماس وطنه وقام بعدة رحلات طويلة زار فيها كثيراً من الأقاليم ، منها سيناء والحبشة وبلغ جزيرة سيلان[١] . وإذا ألقينا صفحا عن النظرية التى حاول كوزماس شرحها وهدف إلى البرهنة عليها من أسفاره ، وهى تخطىء نظرية بطلميوس والقول بأنه شاهد فى تجواله أن الأرض مسطحة ، نجد وصفاً لأحوال طريق البحر الأحمر ومدى نشاطه التجارى إبان عهد جستنيان . فكانت الملاحة فى هذا الطريق تسير على هدى الكشف الذى وفق إليه هيبالوس ، أحد البحارة التجار فى أواخر عهد البطالمة فى مصر . ذلك أن الحظ حالف هيبالوس فى إحدى رحلاته ، اكتشف فيها أهمية الرياح الموسمية كعامل يمكن استخدامه فى السفر والانتقال بين البحر الأحمر والمحيط الهندى[٢] . فعرف استغلال الرياح التجارية الشمالية فى الإبحار من موانى مصر على البحر الأحمر إلى عدن حيث تساعد الرياح الموسمية الصيفية على السفر إلى سيلان والهند ، والعودة إلى تلك الموانى المصرية عندما تهب الرياح الموسمية الشتوية[٣] ، فكان اصطدام تلك الرياح الأخيرة بمرتفعات جنوب البحر الأحمر تدفع السفن الذاهبة شمالا إلى موانى الحبشة ومصر . ومنذ نجاح هيبالوس فى كشف الرياح الموسمية وعودته إلى الإسكندرية

---

(١) Vasiliev, op cit, 214 215,
Runciman, op cit, 165.

(٢) إبراهيم نصحى ، تاريخ مصر فى عهد البطالمة ، ج ٢ ، ص ٤٠٢ . على أنه يلاحظ أن اكتشاف هيبالوس لم يستغل تماماً إلا فى العهد الرومانى ، ولاسيما عندما أحس اكتافيوس وطأة منافسة الحميريين التجارية .

(٣) Mommsen, The Provinces of the Roman Empire 2, 299, 300.

محملا ببضائع الشرق الأقصى ، وكثير من البحارة والتجار فى البحر الأحمر ينعمون بتلك الميزة الجليلة التى اكتسبها ذلك الطريق التجارى . فأصبح هذا الطريق أكثر استخداماً من ذى قبل ، ومنح الرومان الذين حكموا مصر بعد البطالمة فرصة ثمينة جعلتهم منافسين للحميريين سادة اليمن ؛ لكن قيام الدولة البيزنطية وتشجيع الطرق البرية الأسيوية قلل من نشاط ذلك الطريق البحرى ، وغدا استخدام نظام رياحه فى التجارة قاصراً على قليل من السفن المصرية وسفن الحبشة .

وكان ذلك حال الملاحة فى البحر الأحمر عندما ولى جستنيان وجهه لإنعاش ذلك الطريق التجارى . ولكن كوزماس يبين أن التنافس كان شديداً بين الفرس وبين البيزنطيين وحلفائهم من تجار الحبشة ، وأن الفرس بفضل ذلك الخليج الذى ينسب إليهم والذى يطل على المحيط الهندى استولوا على معظم الواردات الشرقية[1] . وهكذا لم يبق للسفن الحبشية والحميرية إلا نصيب ضئيل فى مضمار التجارة الشرقية . على أن كوزماس يذكر لنا أن ما تبقى للبيزنطيين من نفوذ وسمعة فى تلك المياه الشرقية يعزى إلى احتفاظ عملة الدولة البيزنطية الذهبية ، والتى أهمها السوليدوس (Solidus) والنوميزما (Nomisma) ، بقيمتها . ويروى كوزماس للتدليل على ذلك أن ملك سيلان استقبل عدة تجار من الفرس وتاجراً بيزنطياً اشتد بينهم التنافس وحملهم عمال جمارك سيلان إلى حضرة الملك . وهناك أخذ أحد التجار الفرس ينوه بملكه وبلاده ويفتخر بأن ملكه ملك الملوك ، وأخيراً أقبل ملك سيلان على سوباتروس (Sopatrus) التاجر البيزنطى يسأله عما إذا كان لديه شيء يقوله ليدفع به عن نفسه وملكه . فقال سوباتروس ، كيف أتحدث وأمامك الملكان ، ويمكنك أن تحكم على أيهما أجل بنفسك . فدهش ملك سيلان وقال ولكن أين هما ؟ فقال التاجر البيزنطى ، أمامك عملة الملكين إحداها النوميزما

(1) J. Mc. Crindle , The Christian Topography or Cosmas, 368.

والأخرى الدراخما الفارسية . فأخذ الملك يفحص العملتين ثم قرر أن العملة البيزنطية أعظم ، وأكرم التاجر البيزنطى واحتفى به[١] .

على أن سمعة العملة البيزنطية لم تكن وحدها لتهيئ للحبشة انتزاع السيطرة التجارية من الفرس على مياه المحيط الهندى ، أو تمكن أساطيلها التجارية من مناضلة السفن الفارسية . وهكذا لم تحقق سفارة چستنيان إلى الحبشة الغرض المرجو منها بالرغم من أن الإمبراطور البيزنطى كان يتحرق شوقا إلى نجاح الحبشة فى انتزاع تجارة الحرير على الأقل من الفرس ، وتوفير الأموال الطائلة التى كانت تجبيها فارس من تلك التجارة سنويا . كذلك لم تؤت السفارة التى بعثها چستنيان إلى الحميريين أكلها . فإلى جانب فشل سفنهم التجارية التى عملت تحت لواء الحبشة فى منافسة الفرس فإن حاكم حمير لم يستطع أن ينجز وعده بتعضيد البيزنطيين فى حربهم ضد فارس . فكان من الصعب على الحميريين ، إن لم يكن من المستحيل عليهم ، أن يجهزوا حملة تهاجم بلاد الفرس وتحمل الجيوش الفارسية المواجهة للدولة البيزنطية على الإرتداد جنوبا أو عرقلة حركاتها على الأقل ، إذ أن بعد الشقة بين اليمن وفارس ، ووقوع صحراء موحشة مقفرة بينهما يجعل مهمة سير مثل هذه الحملة أمراً عسيرا[٢] .

وإذا كانت بيزنطة قد فشلت فى إدخال جنوب بلاد العرب فى ميدان نفوذها بشكل يحقق رغباتها السياسية والتجارية ، فإنها لم تلبث أن فقدت مكانتها الأدبية هناك كذلك . فالأحباش الذين حكموا اليمن من سنة ٥٢٥ م إلى ٥٧٥ م بعد أن هزموا ذا نواس اليهودى ، لم يتمكنوا من نشر المسيحية ، التى كانت تحمل معها تغلغلا سلمياً لسيادة البيزنطيين فى تلك الجهات وما جاورها ، رغم ما بذلوه من

(1) Mc. Crindle, op cit, 368, 369

(2) Procopius, Hist. of wars, I, 193, 195.

محاولات . فقد أنشأ أبرهة نائب ملك الحبشة فى صنعاء ، عاصمة اليمن إذ ذاك ، كاتدرائية من أعم الكاتدرائيات التى أسست فى العالم المسيحى فى ذلك الوقت وهى التى سماها العرب « القليس » اشتقاقا من الكلمة اليونانية (ἐκκλησία) أى كنسية . وكانت الحبشة تبغى تدعيم أركان المسيحية فى تلك البلاد ، وخلق منافس لبيت مكة الوثنية فى ذلك الوقت ومركز الحج فى بلاد العرب الشمالية . ومما لاشك فيه أن التنافس الإقتصادى كان القوة الخفية التى حملت على تأسيس القليس. فهدف أبرهه إلى تحويل الحجاج ، ونجح فعلا فى اجتذاب جمهرة غفيرة من المسيحيين العرب إلى القليس ، للحصول على الموارد المالية العظيمة التى كانت تصب فى مكة . ويروى أن اثنين من عرب الحجاز الوثنيين إنتهكا حرمة كاتدرائية صنعاء بأن دنساها فى إحدى الليالى التى أقيم فيها إحتفال بعيد من الأعياد . فاشتاط أبرهة غضباً وسار على رأس حملة تأديبية كبرى لمعاقبة مكة . وحدث ذلك سنة ٥٧١ م ، وهى السنة التى ولد فيها الرسول عليه السلام والمعروفة بعام الفيل ، الذى هلك فيه جيش أبرهة لانتشار مرضٍ بين الجنود[١] . وبذلك تحطمت حملة ربما ترتب عليها — لو قدر لها النجاح — إمتداد سيطرة الأحباش ، وكلاء بيزنطة ، على أهم شريان تجارى فى بلاد العرب ، وما يحمله ذلك من التحكم فى مصائر أحداث الحجاز المقبلة .

وضعفت سيطرة الحبشة على بلاد اليمن بعد تلك الحادثة ، وبالتالى زال ما كان للبيزنطيين من نفوذ هناك ، كما أخذت أحوال اليمن تتدهور سريعاً . لكن مما لا شك فيه أن التدهور الإقتصادي للحميريين هو العامل الأساسى الذى أدى بدولتهم إلى الدمار السياسى والاجتماعى . فحدث إبان حكم أبرهة عودة التصدع فى سد مأرب بعد محاولات غير مجدية قام بها ذلك الحاكم لترميمه . وتلا إحدى

(1) C. Beazly, The Dawn of Modern Geography, 184, 185, Hitti, Op cit, 62, 64.

المرات التي تصدع فيها ذلك السد هجرة قبيلة هامة من عرب الجنوب ، هى قبيلة بنى غسان ، إلى منطقة حوران فى شمال بلاد العرب ودخلت فى التبعية البيزنطية . وينسب المؤرخون العرب ضياع مجد بلاد اليمن الحضارى وهجرة سكانها إلى تلك الحادثة التي انهار فيها سد مأرب . لكن ذلك ليس العامل الأول أو الأساسى ، إذ أن انهيار السد يعد فى ذاته أولا وقبل كل شىء ظاهرة لإهمال وانحلال دولة دب الفساد والفناء فى أوصالها[١] . ولم تلبث الحوادث أن عجلت بذلك الفناء وقضت تماما على ما تبقى لبيزنطة من سحب الآمال فى بلاد اليمن . ذلك أن فارس لم تغفل أهمية بلاد اليمن رغم ما سادها من فوضى واضطراب وتطلعت إلى الإستيلاء عليها لتقصى الأحباش والبيزنطيين عنها ، ووجدت فرصتها حين قامت حركة قومية لتخليص بلاد اليمن من حكم الحبشة . وكان يتزعم هذه الحركة سيف بن ذى يزن سليل البيت الملكى الحميرى القديم . فطلب ذلك البطل من الملك الفارسى كسرى أنو شروان مساعدته على استرداد بلاده . فأمده كسرى سنة ٥٧٥ م بحملة عددها ثمانمائة رجل بددت شمل الحامية الحبشية فى بلاد اليمن. لكن سرعان ما تكشفت نوايا الفرس الحقيقية ، إذ أخذوا يسيطرون على بلاد اليمن التى ألقى سكانها أنفسهم تحت سيادة حاكم جديد من الفرس[٢] .

وهكذا لم تستطع الدولة البيزنطية ، لإهمالها طريق البحر الأحمر التجارى ، أن تسترد مكانتها فى جنوب بلاد العرب حين أحست إشتداد وطأة المنافسة الفارسية . وفى الحقيقة كانت بلاد اليمن بوابة إنثالت منها قوتا بيزنطة وفارس إلى جنوب بلاد العرب وتزاحمتا على السيطرة التجارية فى تلك البلاد . ذلك أن صحراء الشام وما والاها جنوبا ، وقفت حائلا دون تدخل هاتين القوتين العالميتين إذ ذاك من

---

(١) J. Hell, Die Kultur der Araber, 12,
Hitti, op cit, 62, 63.

(٢) ابن هشام ، كتاب التيجان ، ص ٣٠٥ ، ٣٠٦
Hitti, Op cit, 63

الامتداد إلى بلاد العرب من ناحية الشمال . ومن ثم تسربت حُمّى التنافس التجارى بين القوتين المظيمتين اللتين أحاطتا ببلاد العرب شرقاً وشمالا عبر اليمن ، وتمكنت فارس من إقصاء الشبح البيزنطى وحلفائه من الأحباش عن تلك البوابة ، وغدت الرقيب المهيمن عليها حتى أطاح بها الإسلام .

الإمبراطورية البيزنطية والعرب البدو

قنعت بيزنطة من الغنيمة بالإياب إلى قواعدها المطلة على بلاد العرب ، وأقبلت عليها تدعمها لتجعل منها حارساً يدفع الإغارات التى كانت تنبعث من حين إلى آخر من جوف بلاد العرب تبتغى السلب والنهب من الأقاليم البيزنطية المجاورة . فكانت الدولة البيزنطية تواجه فى ذلك الميدان عرباً يختلفون عن أولئك الذين اتصلت بهم فى جنوب شبه الجزيرة العربية . فعرب الجنوب غالبيتهم أهل حضر يتمتعون بسمعة عالية منذ قديم الزمن[1] ، أما عرب الشمال فلم تحس الدولة البيزنطية وطأة أقدامهم على مسرح سياستها إلا بعد ظهور الإسلام فى العصور الوسطى . وكانت غالبيتهم زمن الجاهلية بدوا رحّلا يقيمون فى الحجاز وشمال شبه الجزيرة . ويلاحظ فى هذا الصدد أن الخواص الجغرافية لشمال شبه الجزيرة تسير متصلة دون فاصل تقريباً مع الصحراء الشامية ، ومن هنا كان انثيال البدو على بلاد الشام

---

(١) كان العرب سكان شبه الجزيرة ينقسمون قسمين ، عرب الجنوب وعرب الشمال . وكان القسم الأول يسكن اليمن وحضرموت وعلى طول الساحل المجاور لها ؛ ويتكلم لغة سامية قديمة خاصة به ، وهى إما السبأية وإما الحميرية التى تمت بصلة كبيرة إلى اللغة الأثيوبية (الحبشية) . ويطلق علماء الأنساب على أهل اليمن العرب العاربة الذين تناسلوا فى نظرهم من قحطان ، وحضارتهم قديمة وكانوا على اتصال بالمصريين القدماء ، واستمر الاتصال بعصر إلى أوائل العصور الوسطى . أما عرب الشمال فغالبيتهم من البدو يعيشون فى الحجاز ونجد ، ولغتهم لغة القرآن أى العربية الخالصة ، ويطلق عليهم علماء الأنساب العرب المستعربة . وهم فى نظرهم من نسل عدنان من سلالة إسماعيل عليه السلام .

وفلسطين للسلب والنهب . فأخذت القبائل العربية تجول على طول الحدود العربية الشامية للرعى وللقيام بأعمال السطو على مدن الشام الزاهرة عند ما تسنح الفرصة . وأحست الدولة الرومانية الكبرى ضرر تلك الحركات التى قام بها بدو شمال بلاد العرب واشتبكت معهم فى مصادمات يفر البدو بعدها إلى ديارهم ليكروا مرة أخرى حسبما تواتيهم الأحوال . ولذا أقامت الدولة الرومانية على حدودها المطلة على بلاد العرب الشمالية سلسلة من الحصون شغلتها حاميات لصد إغارات البدو . وورثت الدولة البيزنطية عن أمها الكبرى ، الإمبراطورية الرومانية ، هذه السياسة لتأمين حدودها الشرقية ، لا سيما عند ما أخذت توجه عنايتها بتلك الحدود لدرء ما لاح فى أفقها من أخطار . وهذه الحصون الشامية كانت شبيهة بالحصون الرومانية على حدود الدانوب ، والتى قامت بالدفاع عن أراضى الدولة ضد الإغارات الجرمانية [١] .

لكن يلاحظ أن حركات القبائل العربية إلى نهاية القرن السادس الميلادى كانت تختلف اختلافاً بيناً عن حركات القبائل الجرمانية التى ظهر خطرها فى القرنين الرابع والخامس الميلادى ، والتى انثالت على أراضى الدولة الرومانية فى غرب أوربا . فكانت هذه القبائل الأخيرة موطن الخطر الواضح الملح على أراضى الدولة ، ولم تلبث أن سيطرت على غرب أوربا وأقامت به دولا لها . أما الدولة البيزنطية التى صرفت جهداً جهيداً لتحويل هذا التيار الجرمانى إلى غرب أوربا ، لم تنظر إلى حركات القبائل العربية حتى نهاية القرن السادس الميلادى بعين ملؤها الخطورة أو الحذر .

---

(١) Vasiliev, Op cit, 265.

يعزى إلى الأمبراطور دقلديانوس وقسطنطين الكبير الاهتمام بحدود الأمبراطورية الرومانية المعرضة للأخطار . فأقاما حاميات عليها ، ومنحا جنودها إقطاعات من الأرض ، يتوارثها الأبناء عن الآباء ، طالما نهجوا على منوال آبائهم فى القيام بالأعمال الحربية . وأطلق على هذه الفرق من الجند « حراس الحدود » (limitanei) . فكان الجند يقيمون فى حصون على الحدود الشامية لصد إغارات بدو بلاد العرب ، وعلى نهر الدانوب لدفع القبائل الجرمانية .

فلم يخطر ببالها أو يتأتى لأى عاقل بصير بها فى ذلك الوقت ، التنبؤ بأن مطالع القرن السابع تؤذن بكوارث جسيمة تنزل بأراضى الدولة البيزنطية على يد هذه القبائل العربية التى أصبحت بفضل الإسلام خلقاً آخر .

على أن الدولة البيزنطية خطت فى سياستها إزاء تلك الإغارات المتكررة من جانب البدو — قبل الإسلام — خطوة فعالة ؛ إذ قام فى الشام فى المنطقة الواقعة إلى الجنوب الشرق من دمشق عند الطرف الشمالى لطريق بلاد العرب التجارى مملكة أسسها الغساسنة الذين هاجروا من اليمن بعد انهيار سد مأرب . ودخلت تلك المملكة فى دائرة النفوذ السياسى البيزنطى وغدت رقيباً من قبل بيزنطة على حركات البدو وحاجزاً يصد تيار هجماتهم[١] ، وبلغت هذه المملكة أوج عظمتها فى القرن السادس الميلادى إبان عهد الإمبراطور البيزنطى جستنيان العظيم . وكان ملك الغساسنة فى ذلك الوقت الحارث الثانى بن جبله الغسانى (٥٢٩ — ٥٦٩ م) الذى غدا سيد قبائل عرب الشام ومنحته الدوله البيزنطية لقب «فيلارخ» لما أصابه من نجاح فى القضاء على خطر اللخميين ، عمال الفرس فى شمال بلاد العرب . وقضى الحارث عهده الطويل فى حروب شنها لخدمة المصالح البيزنطية[٢] . وبلغ من علو مكانته عند الدولة البيزنطية أن زار عاصمتها القسطنطينية سنة ٥٦٣ م وشاهد بلاط جستنيان ، واستطاع أن ينال من السلطات البيزنطية تعيين الأسقف المونوفيزيتى يعقوب برديوس (يعقوب البرادعى) أسقفا على عرب الشام[٣] . وتلك خطوة كبرى كان لها نتائجها البعيدة المدى ، إذ كان يعقوب هذا مغالياً فى نشر مذهبه المونوفيزيتى بشكل جعل كنيسة الشام المونوفيزيتية تعرف بعده باسم اليعقوبية .

على أن انتشار المذهب المونوفيزيتى وتعضيد ملوك الغساسنة له قلل من رعاية الدولة

---

(١) نلدكة ، أمراء غسان ، ص ٧ ، ٨ .

(٢) نلدكة ، نفس المرجع ، ص ١١ — ١٣

(٣) « « « ، ص ٢٠ ، ٢١

البيزنطية لهم لما فى ذلك من التعارض مع المذهب الملكانى ، وهو المذهب الرسمى للدولة[١] . وانتهى الأمر بإلقاء القبض على بعض ملوك الغساسنة لما أحاط بهم من شكوك . فكان المنذر بن الحارث ، مثل أبيه ، من أشد الناس تحمساً للمذهب المونوفيزيتى حتى أهملت الدولة البيزنطية أمره وأساءت معاملته . فأثارت تلك السياسة بنى غسان وأعلنوا العصيان على الدولة البيزنطية[٢] . وفى سنة ٥٨٠ م عول الإمبراطور البيزنطى طبريوس الثانى على إصلاح الموقف ، فاستقبل فى تلك السنة المنذر وابنيه استقبالا حافلا ووضع على رأسه تاجا[٣] . لكن ذلك لم يكن معناه إغفال الدولة البيزنطية شأن الخلاف المذهبى القائم بينها وبين الغساسنة ، إذ أن الدولة البيزنطية كانت تخشى ما يكمن وراء ذلك الخلاف المذهبى من نزعات إنفصالية عن جسم الدولة . ولهذا اشتطت بيزنطة فى معاملتها للغساسنة المونوفيزتيين ، وقبضت على المنذر أثناء احتفاله ببناء كنيسة حوران (بين دمشق وتدمر) ونفته إلى صقلية[٤] . فدفعت هذه السياسة النعمان بن الحارث على مهاجمة بعض الأراضى البيزنطية وتخريبها.

وإذا كانت بيزنطة قد نجحت فى القضاء على النعمان فإن الأمر الهام هنا هو أن دولة الغساسنة أخذت تسير على سياسة تخالف تماماً ما أرادته الدولة البيزنطية منها من قبل . وعجلت الحوادث بإتمام هذه السياسة الخرقاء التى انتهجتها بيزنطة إزاء حارسها الذى أقامته لحماية حدودها الشامية من إغارات العرب البدو ، إذ كان استيلاء كسرى أبرويز الساسانى على بيت المقدس ودمشق (٦١٣ / ٦١٤ م) ضربة قاضية لأسرة الغساسنة . فأفل نجم هذه الأسرة ، وصمتت المراجع عن ذكرها ولم يعرف إذا كان الإمبراطور البيزنطى هرقل بعد استرداده الشام من الفرس

(١) أنظر الكتاب ، ص ٢٧ .
(٢) نولدكه ، نفس المرجع ص ، ٢١ ، ٢٥
(٣) نولدكه ، نفس المرجع ، ص ٢٥ ، ٢٦
(٤) نولدكه ، نفس المرجع ، ص ٣١ ، ٣٢

سنة ٦٣٨ م أعاد هذه الأسرة إلى سيرتها القديمة[1] . وكل ما هنالك ما ذكره المؤرخون العرب عن وقوف جبلة بن الأيهم آخر ملوك البيت الغسانى إلى جانب البيزنطيين فى معركة اليرموك الحاسمة .

هكذا باءت السياسة البيزنطية بالخسران فى شمال بلاد العرب كما منيت بالفشل فى جنوب تلك البلاد ، وتركت وسط شبه الجزيرة العربية ، ولا سيما الحجاز ، ميداناً تتجاوب فيه أصداء الحوادث فى الجنوب والشمال ، حتى أضحى هذا الميدان منبعاً صامتاً ينذر بأنواع الخطر المقبل على بيزنطة . فقد زالت عظمة الحميريين من جنوب بلاد العرب واضمحلت حضارتهم ، ولكن بعض آثار هذه الحضارة وصلت بلاد الحجاز . كذلك تطلعت الحبشة التى احتكرت البقية الباقية من تراث السبأيين والحميريين التجارى إلى الاستيلاء على الحجاز الذى اخترق قلبه الشريان التجارى الهام إلى الشام . وكادت أن تنجح فى الاستيلاء على مكة وتهديد الكعبة العتيدة بالدمار سنة ٥٧١م ، وهى السنة التى ولد فيها محمد ، تلك الشخصية التى قدر لها تبليغ الرسالة الإسلامية إلى العالم . ومن ناحية أخرى عمل الغساسنة فى الشمال على تمهيد الطريق لاتصال بدو الحجاز ليس ببلاد الشام فحسب بل بالدولة البيزنطية نفسها . ووفد كثير من الشعراء العرب إلى بلاط الغساسنة ومنهم حسان بن ثابت الذى مدح الغساسنة فى شبابه قبل أن يكون شاعر محمد . وتركت تلك الإتصالات البدوية بالغساسنة والبيزنطيين آثاراً عند عرب الحجاز ، على أن هذه الآثار لم تغير فى اتجاه المنبع الذى أخذ يتدفق بظهور الإسلام . ذلك أن بلاد الحجاز لم تلبث أن سلمت أعنتها راضية مطمئنة إلى الرسول الكريم الذى قاد سفينتها وسط هذه التيارات التى انبعثت من شمال بلاد العرب وجنوبها ، وعرف كيف يفيد من هذا التيار وذاك ، حتى حقق لبلاد العرب وحدة سياسية لم يعرفها التاريخ

---

(١) نولدكه ، نفس المرجع ، ص ٤٩

من قبل ، قلبها الحجاز وسويداؤها المدينة . كذلك كسا محمد بالدين الجديد الذى بشر به هذه الوحدة السياسية ثوباً جديداً جعل من بلاد العرب قوة عالمية مناهضة للدولة البيزنطية ، وملأت أحداث تقابلهما على مسرح العالم صفحات العصور الوسطى .

الفصل الثانى

الإسلام والإمبراطورية البيزنطية

تطور انقلاب التوازن الدولى فى مطلع القرن السابع الميلادى

الحروب الفارسية

إستهل القرن السابع الميلادى سنواته الأولى بنشوب صراع عنيف بين قوتى العالم إذ ذاك ، الدولة البيزنطية والفارسية ، بلغ ذروته عند ما تولى الإمبراطور هرقل عرش الإمبراطورية البيزنطية (٦١٠م) . وسبب تلك المرحلة من الحروب ما جاش بأكاسرة الفرس من أطماع توسعية ، عاملين على الإفادة مما ساد الدولة البيزنطية من اضطراب وما تفشى فيها من حوادث القتل والدس والمؤامرات ، التى هيأت لهرقل نفسه فرصة اعتلاء عرش الإمبراطورية . فجهد الفرس على تحقيق الحلم الذى طالما داعبهم وأرقهم أيضاً ، وهو الحصول على منفذ يطل على البحر الأبيض المتوسط تكمل به لدولتهم سيطرتها التجارية .

وكان تيار التقدم الحربى فى جانب الفرس قبل اعتلاء هرقل العرش . فأوغلت جيوشهم فى بعض أقاليم آسيا الصغرى حتى وصلت خالقدونيا قبالة القسطنطينية على الشاطىء الاسيوى ، كما وصلت قوات فارسية أخرى بعض أرجاء الشام سنة (٦٠٧م)(١) . ولم يهدأ تيار الزحف الفارسى عندما تقلد هرقل أعنة الدولة

---

(1) Vasiliv, op cit I, 257,
Bury, op cit II, 147,148.

البيزنطية ، إذ استولى الفرس على أرمينية سنة ٦١١ م وتقدمت جيوشهم الى حمص بالشام واستولت عليها فى تلك السنة أيضاً . ورأى هرقل أن الأمر يحتاج إلى إعداد وتطهير فى الأداة الحربية قبل مواجهة الفرس . فأدخل تغييراً فى قادة الجيوش البيزنطية فى الميدان الفارسى وأخذ يعد الجيوش لملاقاة الفرس فى جهتين إذ بعث جيشاً إلى أرمينية ، على حين نصب نفسه قائداً عاما لجيوش الميدان الثانى فى أرض الشام(١) . على أن الجيوش الفارسية لم تقف ساكنة إبان تلك الفترة التى كان هرقل يعبىء فيها قواته للقتال . فتقدمت القوات الفارسية واستولت على أنطاكية وقيصرية ودمشق بالشام ، واحتلت قليقية وطرسوس أيضاً بأطراف آسيا الصغرى . وفى سنة ٦١٤ م أنزل الفرس بالبيزنطيين ، قادة العالم المسيحى لطمة قاسية باستيلائهم على بيت المقدس(٢) ، إذ أضحت تلك المدينة المرتبطة بأصول الديانة المسيحية فى أيدى الفرس الوثنيين ، الذين أمعنوا فى الحط من هيبة بيزنطه أمام العالم المسيحى بنقلهم صليب الصلبوت من بيت المقدس وإرساله إلى عاصمة بلادهم . وفى سنة ٦١٩ م غدا الفرس سادة بحر الشام وأكملوا سيطرتهم على مياه البحر الأبيض الشرقى باستيلائهم على مصر .(٣) ولم يقف الجشع الفارسى عند هذا الحد ، بل حملتهم جرأتهم على مهاجمة القسطنطينية ، التى أنقذتها منعتها الطبيعية وموقعها الجغرافى من التردى فى أيدى الفرس .

على أن اتساع الخطر الفارسى وابتلاعه تلك الولايات البيزنطية الكبرى وتهديده العاصمة البيزنطية نفسها أثار شعور الناس فى أنحاء الدولة البيزنطية وامتلأوا حماسة للدفاع عن كيانهم . ووقفت الكنيسة البيزنطية على رأس هذه الحركة تشد أزر الإمبراطور لتخليص الأراضى المقدسة ، وأضفت على مشروعات هرقل الحربية

(1) Bury, op cit II, 221, 224, 225.
(2) I bid, 214,
Vasiliev, op cit I, 258.
(3) Bury, op cit II, 214.

صبغة دينية . وضربت الكنيسة مثلا عملياً على تعضيدها للامبراطور هرقل بأن قدمت له كل ما لديها من ذهب وفضة ليسكها نقوداً على أن يتعهد بردها فيما بعد . وهكذا وقفت الكنيسة والدولة صفاً واحداً فى سبيل تخليص بيت المقدس وصليب الصلبوت[1] . وانكب هرقل على إعداد خطته الحربية التى انتهى منها سنة ٦٢١م ، وجاءت خطة محكمة هيأت له فوزاً مظفراً . فبعث أسطوله من القسطنطينية فى أبريل سنة ٦٢٢م إلى مياه الشام ، على حين تقدم على رأس جيوشه براً عبر آسيا الصغرى متجنباً الاصطدام بالجيوش الفارسية الضاربة فى تلك البلاد . ولما وصل إلى أطراف آسيا الصغرى من ناحية الشام قام بمناورة حربية معلنا أن هدفه الزحف على فارس نفسها . فاضطر الجيش الفارسى إلى الجلاء عن آسيا الصغرى ، وأسرع شهرباراز ليقف فى طريق الإمبراطور البيزنطى ويحول دون تقدمه إلى الأراضى الفارسية . وبذلك أنقذ هرقل آسيا الصغرى فى حركة حربية بارعة تشهد له بالمهارة وحبه للمغامرة[2] . وفى إبريل سنة ٦٢٣ م تجددت الحروب والمعارك بين هرقل وفارس ، وهناك عند تخت سليمان فى الشمال الغربى من بحيرة أرومية انتقم هرقل لما أنزله الفرس من مذلة بالدولة البيزنطية باستيلائهم على بيت المقدس . فكانت مدينة تخت سليمان مركزاً من المراكز الدينية الفارسية فشفى الجند البيزنطيون فيها غلة حماسهم بتخريب معبد النار وإعمال التدمير فيها[3]

وظل النصر يسير فى ركاب هرقل منذ بدأ حملاته على الفرس سنة ٦٢١ م . ذلك أن حوادث تلك الحرب دلت على أن تيار الإنتصارات إذا اتخذ جانباً كان من الصعب على الجانب الآخر أن يحول ذلك التيار إلى جانبه . فباءت بالفشل جميع محاولات الفرس لاستعداء القبائل الضاربة على أطراف الدولة البيزنطية الشمالية على مهاجمة القسطنطينية وحمل هرقل على التخلى عن مهاجمة فارس . فصدت

(1) Bury, op cit, 219. 220 221.
(2) Bury, op cit, 227, 228, 230.
(3) I bid, 231, 232.

القسطنطينية سنة ٦٢٦ م ، غارة مفاجئة شنتها عناصر الآفار والبلغار والسلاف أثناء تفرغ هرقل لإعداد عدة جديدة للقضاء على فارس[١] . وفى تلك السنة أيضاً فرغ هرقل من إعداد العدة وتجنيد قواته فى أقاليم القوقاز ، ثم سار من مدينة تفليس إلى طرابيزون.ومنها وصل مدينة نينوى على نهر دجلة سنة ٦٢٧م . وهناك اشتبك مع الفرس فى معركة كبرى خرج منها ظافراً ، وتقدم بعدها جنوباً إلى مدينة دستاجرد حيث انهارت مقاومة الفرس تماماً ، وجلا كسرى عن تلك المدينة التى دخلها هرقل دون أن يلقى مقاومة كبيرة . ثم واصل هرقل زحفه صوب المدائن عاصمة الفرس وأصبح على مرحلة منها لا يفصله عنها سوى نهر صغير . لكن هرقل أحجم عن متابعة مغامرته لأن خطوط تموينه أصبحت طويلة ، فضلا عن رداءة الأحوال الجويه لإقتراب فصل الشتاء . فعول هرقل على التقهقر من المدائن وعاد إلى تخت سليمان فى فبراير سنة ٦٢٨ م ، قبل أن تسد الثلوج معابر الجبال[٢] .

وانحلت المسألة الفارسية فى تلك الفترة حلا سلمياً ، إذ قامت ثورة فى المدائن زعيمها سراويز بن كسرى ، خلع أباه وطلب من هرقل الدخول فى مفاوضات لعقد الصلح بين الدولتين . وقبل هرقل عقد صلح أبرم سنة ٦٢٨ م ، جلت بمقتضاه القوات البيزنطية عن الأراضى الفارسية وأعاد الفرس إلى البيزنطيين صليب الصلبوت[٣] . وهكذا اختتمت الدولتان البيزنطية والفارسية فصلا من قصة حروبهما المتكررة اتسم بتبادل الطرفين اجتياح أراض واسعة ، ووصول جيوشهما إلى مشارف كل من عاصمتى الدولتين ، مبيدين الحرث والنسل ومثقلين كواهل من

(1) Bury, op cit, 239, 240,
Vasiliev, op cit, 261.

(2) Bury, op cit, 241, 242,
Vasiliev, op cit, 261.

(3) I bid, 261, 262,
Bury, op cit, 244.

يمى على قيد الحياة بالسلب والنهب ، فضلا عما استنزف من مواردهم للنهوض بالأعباء الحربية . وظلت كل من بيزنطة وفارس تئن من الخور والإنهاك ، كما بقيت قصة حروبهما معلقة فصولها عند هذا الحد إلى أن أتم الإسلام فصلها الأخير . فأدخل فارس المثخنة الجراح فى خطيرته ، واقتطع من الدولة البيزنطية أسمن أقاليمها فى حوض البحر الأبيض المتوسط الشرقى وهى مصر والشام ، اللتان ذاقتا صنوف العذاب وألوان الإضطهاد الدينى على أيدى البيزنطيين ولا سيما بعد انتهاء الحروب الفارسية .

الإختلافات المذهبية فى أقاليم الدولة البيزنطية

ذلك أن هرقل خرج من الحروب الفارسية شديد الإعتداد بنفسه ، يؤمن بأنه قدير على حل المشاكل المذهبية المزمنة التى بلغت ذروة تعقدها فى عهده ، مثلما أزال نهائياً شبح الفرس الجاثم على امبراطوريته منذ زمن بعيد . فأقبل بكليته بعد انتصاره فى الحروب الفارسية على إنهاء الخلافات المذهبية التى تفشت فى أقاليم دولته ، دون أن يعير اهتماما لسحابة صغيرة كانت تحوم فى الأفق الجنوبى لإمبراطوريته ، وتوشك أن تزحف عليها وتغير رقعتها ، على حين تحمل للعالم خيراً عميما ، تلك السحابة هى الدعوة المحمدية فى بلاد العرب . ففى فترة الخمس سنوات التى تخللت نهاية الحروب الفارسية وبداية الفتوحات الإسلامية فى الشام (٦٢٨— ٦٣٣م) كانت سياسة هرقل الدينية تؤتى نتائج عكسية فى أقاليم دولته فى شرق البحر الأبيض المتوسط ، وتمهد الطريق لتقدم الإسلام . ذلك أن جيوش المسلمين غدت بفضل الدين الإسلامى الذى شب وترعرع فى تلك الفترة ، قوة مظفرة تختلف فى مبناها وأهدافها عن قوات فارس التى عجمت الدولة البيزنطية عودها زمناً طويلا . ويعزى فشل هرقل فى حل المسألة المذهبية إلى أنها كانت أكثر تعقيداً

مما تصور ، ونتاجاً لتطورات أصولها بعيدة الغور إمتزجت فيها المجادلات الدينية بالتنافس بين المراكز المسيحية الكبرى الأولى . وغدت أخيراً فى عهده قناعا أخفى حركات قومية هدفت إلى الإنفصال عن جسم الدولة البيزنطية .

ففى الأيام الأولى للمسيحية كان مقر الكنائس الكبرى الرئيسية للعالم المسيحى فى عواصم البلاد الرومانية المطلة على البحر الأبيض المتوسط الشرقى ، وهى روما والإسكندرية وأنطاكية . وكانت هناك أسقفيات فى البلاد الأخرى تتناسب مراكزها مع أهمية المدن التى توجد فيها(١) . وكانت القاعدة المعترف بها فى تقديم الكنائس بعضها على بعض هو النظر فى قدر القديس الذى أسس تلك الكنيسة ومدى تمتعه بالشهرة . فادعت روما لنفسها الرئاسة لأن القديس بطرس مؤسس كنيستها ، ونافستها الإسكندرية لأن القديس مرقس منشىء كنيستها وهكذا . على أن ميدان التنافس لم يلبث أن شاهد دخول مبارز جديد هو مدينة القسطنطينية التى غدت العاصمة الجديدة للدولة البيزنطية . فكان ظهور تلك العاصمة الجديدة وتطور أسقفيتها من التبعية لمدينة هرقلة إلى بطريقية قائمة بذاتها مدعاة لإعادة النظر فى ترتيب أقدار الكنائس المسيحية الأولى وبيان درجاتها . واستطاعت القسطنطينية أن تحتل المركز التالى لروما معتمدة على مكانتها فى الدولة . غير أن عوامل الغيرة أخذت تعمل عملها ورفضت الإسكندرية الإعتراف بمركز القسطنطينية الناشئة(٢) .

ولم تلبث عوامل الغيرة الكامنة أن انفجرت واتخذت متنفساً لها فى الجدل الدينى الذى اضطربت به المسيحية منذ قرونها الأولى كذلك ، إذ قامت بعض نظريات وأقوال حول العقيدة المسيحية أدت إلى إختلاف المسيحيين فى تصوراتهم للمسيح . فقام قس من الإسكندرية إسمه أريوس ونادى بأن المسيح

(1) Runsiman, op cit, 109.
(2) I bid, 109, 110.

وإن اتصف بالألوهية فهو مخلوق بأمر الاله الأب وهو لذلك أقل مرتبة منه[١] . وجاء ذلك القول مخالفا للرأى السائد والذى نادى به قس آخر من الإسكندرية أيضاً اسمه أثناسيوس ، وهو أن المسيح أزلى كأزلية الله ، وأن جميع ما حوله من صفات كالجسد والجوهر أزلية كأزلية الله لإستمدادها من الأزلية العليا[٢] . فهذان القولان هما مشكلة المسيحية الأولى فى القرن الرابع الميلادى . وجهدت المراكز المسيحية الأولى على جمع القساوسة ليحددوا آراءهم عن المسيح . فانتهز الإمبراطور قنسطنطين الكبير هذه الفرصة وعول على أن يتدخل فى هذا الجدل كى يظهر بمظهر المهتم بشئون المسيحية ، ويبين قدرته على توجيهها ، معطياً بذلك لبطريقية عاصمته عصا الزعامة الدينية . وكانت الآراء التى تصدرها تلك المجامع (مجمع Concilium) تعتبر عالية (Catholicus)[٣] والخروج عليها هرطقة وجريمة ضد الدولة .

فأى مجمع عام ، وهو اجتماع برئاسة الإمبراطور ، ويمثل فيه كل أفراد الكنيسة المسيحية ، يعتبر هيئة تصدر قراراتها عن إلهام ووحى ، وتلزم المسيحيين جميعاً باتباعها ، وفى مخالفتها هرطقة تعتبر رسمياً خروجاً على القوانين . ولذا كانت السلطات المدنية لا الكهنوتية هى التى تقوم بالتدابير العقابية[٤] .

وعقد أول مجمع مسكونى عام بدعوة من الإمبراطور قنسطنطين الكبير سنة ٣٢٥ م فى بلدة نيقية بالشاطئ الأسيوى قبالة القسطنطينية (موضعها الآن بلدة إسنك) ، وكان يضم جميع أساقفة المسيحية الأولى . وقرر هذا المجمع أن أقوال أريوس والعقيدة الأريوسية فاسدة ، وأن العقيدة الأثناسيوسية هى الصحيحة ،

---

(١) فشر ، تاريخ أوربا فى العصور الوسطى (ترجمة الدكتور زيادة) ، ص ١٧ ، ١٨

(٢) Vasiliev, op cit, 69,
Bury, op cit, 187.

(٣) Bury, op cit, 148, 185.

(٤) Runciman, op cit, 114.

وأصدر قراراً هو المعروف باسم المذهب « النيق » والذى قامت على أساسه الديانة الكاثوليكية [١] .

على أن هذا المجمع لم ينجح فى إفهام العقول ، ولا سيما العقل اليونانى ، سر عقيدة التجسد ، ولذا تطور الجدل من جزئية المسيح أو كليته من حيث ألوهيته ، إلى القول بالطبيعة المزدوجة للمسيح — بشرية وإلهية — وبالطبيعة الواحدة ، أو المونوفيزيتية [٢] .

وتوالى إنعقاد المجامع لتقرير هذا الرأى أو ذاك ، وكانت تصدر آرائها معضدة رأى الأسقف الذى يتمكن من إدارة دفة المناقشات ، وهنا كانت المنافسات بين المراكز الكنسية تلعب دورها . فعند ما جاهر أسقف القسطنطينية برأيه فى القول بأن للمسيح طبيعتين ، إستغل بطريق الإسكندرية تلك الفرصة لإعلاء شأن عاصمته وأدار دفة الجدل الذى انتهى بأن أصدر المجمع الكنسى الثالث فى أفيسوس سنة ٤٣١ م قراره ضد القسطنطينية . على أن القسطنطينية ثأرت لنفسها واستردت مكانتها ، حينما نادى بطريق الإسكندرية بالطبيعة الواحدة للمسيح فى المجمع الكنسى الرابع فى خلقدونية سنة ٤٥١م ، إذ خشيت روما ازدياد نفوذ الإسكندرية ، وعارضت قول بطريقها ، وانضمت إليها القسطنطينية فزعاً من علو شأن الإسكندرية . واتخذ المجمع قراراً اعتبر المونوفيزيتية هرطقة ، ورعاياها يجب عقابهم وتعذيبهم [٣] .

إن الآراء اللاهوتية حول الطبيعة الواحدة للمسيح «المونوفيزيتية» والطبيعة المزدوجة للمسيح (التى أطلق على أتباعها فيما بعد إسم الملكانيين) [٤] بسيطة غير

(١) Vasiliev, op cit, 68, 69.

(٢) Bury, op cit, 188—190,

فشر ، نفس المرجع ، ص ٥٥ .

(٣) Baynes, The Byzantine Empire, 81.

(٤) كان المذهب الملكانى هو المذهب الرسمى للدولة البيزنطية ، وربما تعزى هذه التسمية إلى كلمة ملك ، وإن كان القلقشندى يذكر فى كتابه « صبح الأعشى » أن الإسم مشتق من إسم الإمبراطور مارقيان (من تفسير الدكتور مصطفى زيادة) .

معقدة ، ولكن الأسس السياسية التى قامت عليها تلك الآراء هى العامل المحرك للمجادلات فى المجامع الكنسية العامة . فتطور الأمر من مجرد تنافس بين مراكز المسيحية الأولى على السيادة ، إلى ارتباط المشكلة المذهبية بالحركات القومية فى البلاد التابعة للدولة البيزنطية واتكاء الأقاليم المختلفة على تلك الخلافات الدينية للانفصال والاستقلال . وفى الحقيقة ما دامت تلك الأقاليم تحس نحو الدولة البيزنطية بوجوب الانفصال عنها ، لم يكن هناك أمل فى حل المشكلة المذهبية ، سيما وأن الحلول التى حاول الأباطرة إتخاذها كانت ترمى من وراء حل المشكلة المذهبية إلى إخماد الحركات القومية ، وإزالة العوامل المساعدة التى كانت تعضد تلك الحركات ، وأهمها العامل الدينى . وكان هذا هو كنه الموقف عندما اتجه هرقل بعد انتهائه من الحروب الفارسية لحل المشكلة المذهبية ، مؤملا أن ينجح فيما فشل فيه أسلافه عله يكتب له الفوز كما نجح فى القضاء على خطر فارس . واستقر رأى هرقل على ما يعرف باسم «صورة التوفيق» ، وهى تقضى بأن يمتنع الناس عن الكلام عن كنه المسيح وطبيعته ، وعما إذا كانت له صفة واحدة أو صفتان ، ولكن عليهم أن يشهدوا أن له إرادة واحدة وقضاء واحداً . ويعرف مذهب هرقل باسم مذهب « التوحيد أو المونوثليا »[1] .

غير أن المذهب جاء بنتيجة على غير مايهوى هرقل ، إذ قال المعاصرون سواء من الملكانيين أو من أصحاب الطبيعة الواحدة (الذين أطلق عليهم أيضاً إسم اليعاقبة ، نسبة إلى زعيمهم يعقوب براديوس) أن الإمبراطور ما أراد بهذا المذهب إلا ليضل الكثيرين . ورفض كل منهما التخلى عن مذهبه ، وإتباع مذهب ثالث يعدونه زيفاً وبهتاناً . واشتدت المعارضة لهذا المذهب ، ولا سيما فى مصر ، حيث لجأ قيرس « Cyrus » (المقوقس) المبعوث الإمبراطورى هناك لحل المسألة

(1) Vasiliev, op cit, 293, 294,
Bury, op cit, 250, 251.

المذهبية إلى العنف وجميع وسائل التعذيب لحمل الناس على إتباع المذهب الجديد . فاضطر البطريق القبطى المونوفيزيتى (بنيامين) إلى الهرب والقيام بحركة مقاومة سرية[١] . وكانت تلك خطوة خطيرة من جانب البطريق المونوفيزيتى ، إذ كان مطران الإسكندرية الملك الفعلى للعاصمة والفرعون الروحى للبلاد ، وممثل الشعب ، كلمته فيهم نافذة كالقانون ، وعند ما يصيح بأفراد الشعب لأداء أمر ما يهرعون لتلبيته دون تردد أو فتور ، ملتفين حوله جميعاً ، رهبانا وأهالى ، زرافات ووحدانا . وهكذا أصبح قرار البطريق القبطى إيذاناً باندلاع حركة مقاومة قومية فى البلاد ، وغدا القبط يتمنون زوال الإمبراطورية والإمبراطور صاحب المذهب الجديد[٢] ، فى وقت كان الرسول محمد « صلى الله عليه وسلم » ينشر دعوته فى بلاد العرب ، داعياً سكانها إلى الدين الإسلامى ، وإتباع سنته وتعاليمه ، وجاهداً على خلق روح الوحدة والأخاء بينهم .

ظهور الإسلام

كان من المنتظر وقد اندلعت الحركات القومية فى بلاد الدولة البيزنطية نتيجة تعسف هرقل فى نشر مذهبه الدينى ، أن تلقى تلك البلاد بنفسها فى أحضان أية قوة تكفل لها الخلاص من العنت المذهبى والإنفصال عن الدولة التى جرعتها كأس التعذيب والإزهاق . وكان ذلك حال مصر والشام ، وما جاش فى نفوس أهاليهما من آمال ، عند ما تلقى محمد « صلعم » الرسالة ، وأخذ يدعو سكان بلاد العرب إلى اتباع الدين الجديد . واستطاع محمد « صلعم » بفضل رسالته أن يخرج العرب من جاهليتهم ، التى جعلت الدولة البيزنطية تنظر إليهم دائما على أنهم جنس قليل الخطورة متخبط فى نظمه الجاهلية ، بما فيها من أحقاد وترات وغارات وطمان[٣] .

(1) Butler, The Arab Conquest of Egypt. 176, 177.
(2) Baynes. op cit, 78.
(3) Vasiliev, op cit, 269, 278.

وإذا كانت بيزنطة لم تعر الحركة الإسلامية ، التى أخذت تصوغ العرب فى قالب جديد ، أى اهتمام ، فإن أصداء الحوادث الكبرى التى امتلأت بها الدولة البيزنطية تردد صداها فى بلاد العرب . فكانت تلك البلاد بفضل جريان الطريق التجارى من اليمن إلى فلسطين وسوريا ومصر ، تقف على أخبار الدولة البيزنطية[١] وما يضطرب به جوفها من صخب مذهبى ، أو إعداد لشن حرب على فارس . ويبدو أن مكة ويثرب كانتا محطتى تردد أصداء تلك الحوادث ورواية أخبارها ، باعتبارهما من محطات القوافل الهامة على الطريق التجارى ، وموطن عدد كبير من التجار اليهود والمسيحيين . وكانت مكة بصفة خاصة ذات شهرة عالية قبل ظهور الإسلام ، إذ تدل اسماؤها التى رددتها الكتب القديمة والنقوش على أن لها مركزاً دينياً خاصاً بها . فاسم مكة مأخوذ من كلمة مكرابا السبئية ومعناه المعبد ، مما يدل أن هذه المدينة ببيتها العتيق تمتعت بمكانة عالية فى بلاد العرب منذ أقدم العصور . وإلى جانب ذلك تبوأت مكة بفضل مركزها التجارى وقدسية بيتها العتيق مكاناً عالياً عند سائر القبائل العربية . فكانت مركز التجار من كل صوب وحدب ، وبيتها مزاراً لهم ، وغدت إحدى القبائل العربية ، وهى قبيلة قريش صاحبة السيادة فى تلك المدينة منذ القرن الخامس الميلادى فصاعداً . وكانت يثرب التى تقع إلى الشمال من مكة على بعد مائتى ميل تحتل المركز التالى لمكة فى حلبة التجارة والنفوذ فى بلاد العرب[٢] .

وهكذا كان الوسط الذى بعث فيه محمد « صلعم » ينبض بالحياة ، وإن خاله سكان الأقاليم المحيطة به ساكناً ، يتجاوب فيه الكثير من أخبار جيرانه ،

---

(١) يشير القرآن الكريم إلى هذه الرحلات فى سورة قريش : « لإيلاف قريش إيلافهم ، رحلة الشتاء والصيف فليعبدوا رب هذا البيت الذى أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف »

(٢) Vasiliev, op cit, 267, 268,
Hitti, op cit, 103, 104.

ولا يعرف جيرانه عما كان يتردد فى جنباته إلا نذراً يسيرا . فكانت أنباء الحروب البيزنطية ضد فارس مثار اهتمام أنصار الدين الإسلامى الجديد ومعارضيه فى بلاد العرب ، يتتبع كل منهما أخبارها معلقين عليها بما يعن لهم من الأقوال لتأييد دعواهم . فنى العقد الثانى من القرن السابع عند ما جهر محمد « صلعم » برسالته ، وأخذ يدعو إليها ، كانت الجيوش الفارسية تطوى الشام وأرض مصر ، من أقاليم الدولة البيزنطية ، وتهدد القسطنطينية نفسها بالدمار . فكان أعداء محمد صلى الله عليه وسلم ، يهللون لتلك الانتصارات الفارسية ، معلنين أن محمداً « صلعم » سوف يلق مصيراً مشابهاً للبيزنطيين ، لأنه مثلهم صاحب كتاب ، وأن عبدة النار إستطاعوا أن يذلوا أتباع كتاب مقدس . فكان المسلمون يدفعون عن أنفسهم تلك الناحية من حرب الأعصاب بالتذرع بالصبر والتشيع للبيزنطيين وأنهم المظفرون عما قريب [١] .

وإذا كانت أنباء حروب الدولة البيزنطية مثار اهتمام المسلمين فى فجر حياتهم ، فيبدو أنهم وقفوا كذلك بعد هزيمة فارس وعودة الشام ومصر إلى حظيرة البيزنطيين ، على حوادث الإضطهاد والتعذيب التى رزحت تحتهـا تلك البلاد من جراء مذهب هرقل الجديد . فكان التجار العرب دائبين على اتصالهم بمصر والشام ، ينقلون متاجرها كما ينقلون أخبارها [٢] . ولذا فليس ثمة شك فى أن المسلمين وقفوا على تفاصيل الخلاف بين أنصار الطبيعة الواحدة (المونوفيزيتيين) فى مصر والشام وبين أنصار الطبيعتين (الملكانيين) من أتباع الدولة البيزنطية صاحبة السيادة ، ومحاولة هرقل حمل هؤلاء وأولئك على اتباع مذهبه الجديد . وكانت الدعوة الإسلامية

---

(١) سورة الروم « الم . غلبت الروم فى أدنى الأرض ، وهم من بعد غلبهم سيغلبون فى بضع سنين ، لله الأمر من قبل ومن بعد ، ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله » .

(٢) تشير الروايات التاريخية إلى أن عمرو بن العاص فاتح مصر زارها زمن الجاهلية للتجارة ، وأنه كان خبيراً بأحوالها .

حينئذ قد أخذ يفوح شذاها بالكتب التى بعثها الرسول « صلعم » إلى هرقل والمقوقس وغيرهما من قادة العالم (١) . فلم تقدر الدولة البيزنطية تلك الدعوة التى وصلتها ، ولم تدرك ما انطوت عليه من عقيدة جديدة سوف تزلزل أركانها ، وتدخل فى ميدانها الأقاليم التى سادها المذهب المونوفيزيتى . ذلك أن بيزنطة رأت فى العقيدة الإسلامية بحضها على وحدانية الله ضرباً من العقيدة الأريوسية التى قرر مجمع نيقية الأول إعتبارها هرطقة فاسدة (٢) . كذلك لم تعر موطن العقيدة الإسلامية اهتماما ، لأنها لم تتصور أن بلاد العرب سوف تصبح بفضل تلك العقيدة الجديدة وحدة لها خطرها ونفوذها .

وهكذا جرت الأحداث على غير ما تشتهى الدولة البيزنطية ، فأدى محمد « صلعم » رسالته وهى فى غفلة عن جهاده ليتم الله أمره . وخلف سكان بلاد العرب مسلمين مشربة قلوبهم بعقيدة ، جوهرها وحدانية الله ، جعلتهم أقرب إلى نفوس أتباع الطبيعة الواحدة المسيحيين (٣) من البيزنطيين قادة العالم المسيحى المعتنقين لمذهب الطبيعتين . فكانت العقيدة الإسلامية النور الذى أضاء للجيوش الإسلامية سبيلها فى بلاد المونوفيزيتيين ، ونزلت على سكانها برداً وسلاماً وسط جحيم اضطهاد البيزنطيين الملكانيين (٤) . ولذا وقفت الدولة البيزنطية مأخوذة أمام تيار الفتوحات

---

(١) Bury, op cit, 261.
ابن هشام ، السيرة ، ج ٣ ، ص ٤١٨ ، ٤١٩ ،
المسعودى ، التنبيه والإشراف ، ص ٢٢٥ .

(٢) Vasiliev, op cit, 274,
Bury, op cit, 260.

(٣) إن الإسلام بدفاعه عن عيسى عليه السلام وتنزيهه كان من الأمور المحببة لدى المونوفيزيتيين ، ويدل على ذلك حادثه نجاشى الحبشة مع مسلمى الحجاز الذين هاجروا إلى بلاده .

(٤) البلاذرى ، فتوح البلدان ، ص ١٤٤ . فقد روى عن أهالى حمص عبارة تصور شعور أهالى الشام حيال الفاتحين المسلمين ، « لولايتكم وعدلكم أحب إلينا مما كنا فيه من الظلم والغشم »

الأسلامية التى بدأت تنثال رويداً من المدينة ثم قلبت أوضاعها سريعاً رأساً على عقب .

إستيلاء المسلمين على الشام ومصر

فتح الشام

يعتبر الرسول « صلعم » القائد الأعلى الذى رسم بنفسه الخطة التمهيدية التى حملت الجيوش العربية على الاستيلاء على الشام وتأسيس أول ركن فى دولة الاسلام خارج بلادهم الأصلية ، على شواطىء البحر الأبيض المتوسط الشرقى . ذلك أن الرسول إلى جانب قيامه بتبليغ الدعوة الأسلامية إلى قادة العالم فى وقته ، كان قائداً ماهراً يقظاً ، لايغض الطرف عن أى مظهر عدوانى قد يحط من شأن دعوته أو يعمل على النيل منها . فلم يقف النبى ساكناً إزاء استشهاد رسوله الذى بعثه إلى أمير الغساسنة فى بصرى(١) ، وإنما عول على أتباع دعوته السلمية إلى الاسلام فى الجهات التي لم ترع حرمة مبعوثه بالقيام بمشروعات حربية كانت بطبيعتها محدودة . فأتباع محمد فى ذلك الوقت ، وهى الفترة السابقة لفتح مكة ، لم يكونوا قد وصلوا إلى الأعداد العديدة التى أصبح عليها المسلمون فيما بعد . ففى سنة ٦٢٩ م / ٨ هـ أرسل محمد أحد قادته المقربين إليه وهو زيد بن حارثة على رأس حملة عددها ٣٠٠٠ رجل إلى الجهات الشمالية الغربية من بلاد العرب ، يدفعه إلى ذلك واجب الأخذ بثأر من قتل من أتباعه على الحدود العربية الشامية(٢) . وهناك عند مؤته الواقعة على حدود البلقاء إلى الشرق من الطرف الجنوبى للبحر الميت إلتقى المسلمون بالقوات

(١) قتل شرحبيل بن عمرو الغسانى الحارث بن عمير الأزدى رسول النبى إلى صاحب بصرى ، ويلاحظ فى هذا الصدد أنه لم يقتل للنبى رسول غيره . ويروى كذلك أن خمسين مسلما لقوا حتفهم على حدود بلاد العرب المطلة على الشام .

(٢) Hell, op cit, 40 .

البيزنطية . وتمكن البيزنطيون من دحر القوات الاسلامية ، ولقى قائدها زيد نفسه حتفه فى المعركة . على أن خالد بن الوليد الذى اعتنق الاسلام قبل تلك الوقعة بزمن قليل ، لمّ شمل الفلول الاسلامية وعاد بها إلى المدينة[١] .

ومهما تكن الخاتمة التى لقيتها تلك الحملة فإن نتائجها وآثارها كانت بعيدة المدى . فبينما رأى البيزنطيون فى تلك الحملة إغارة من الأغارات التى اعتاد البدو شنها للسلب والنهب ، كانت حملة زيد فى الحقيقة إغارة من نوع جديد لم تقدر بيزنطة أهميتها ، فهى إغارة منظمة قامت لتؤدى مهمة خاصة ، وغدت هزيمتها وقتل قائدها الباعث الذى جعل المسلمين يتطلعون بأعين واسعة إلى الشام . كذلك أضحى تحرق المسلمين للأخذ بثأرهم القوة التى دفعت الأداة الحربية الاسلامية فى انطلاقها السريع تطوى أرض تلك البلاد . ففى العام التالى أى سنة ٦٣٠ م / ٩ هـ قاد النبى بنفسه حملة إلى تبوك ، كانت أشبه بمناورات حربية فى منطقة الحدود بين الأراضى البيزنطية وشبه جزيرة العرب . ذلك أن هذه الحملة لم تشتبك مع أية قوات بيزنطية هناك ، وآثر النبى الاكتفاء بأظهار قوته فى تلك الجهات وعاد إلى المدينة[٢] .

وبذلك بقيت هزيمة مؤته تجذب أنظار المسلمين صوب الشام . وفى سنة ٦٣٢م ١١ هـ أعد النبى جيشاً بقيادة أسامة بن زيد ، ابن القائد الذى لقى حتفه فى مؤته ، لمهاجمة البيزنطيين . غير أن النبى توفى فى نوفمبر سنة ٦٣٢م / ربيع الأول ١١ هـ قبل تحرك ذلك الجيش[٣] . فترك لخلفائه خطة واضحة المعالم ، وولى وجوههم شطر قبلة عينها لهم . وهكذا وقف محمد بثاقب نظره على أن أشد الأخطار التى يمكن أن تحل ببلاد العرب وتناوىء دعوته إنما موطنها الشام حيث البيزنطيون وعمالهم

(١) ابن هشام ، ج ٣ ص ٢١١ ، ٢١٥ ؛ المسعودى : التنبيه والأشراف ، ص ٢٣٠ ، ٢٣١ .

(٢) ابن هشام ، ص ٣٢٨ ، ٣٣٨ ؛ المسعودى ، نفس المرجع ، ص ٢٣٥ .

(٣) ابن هشام ، ص ٣٥٢ ، ٤٥٣ .

الغساسنة . وأثبتت أحداث الفتوحات الاسلامية فى أراضى الدولة البيزنطية صدق هـذه الاشارة السالفة ، فـكان البيزنطيون أشد المحاربين عناداً ، كما وقف جبلة بن الأيهم آخر ملوك الغساسنة إلى جانبهم فى معركة اليرموك ، أحسم الوقائع الحربية وأشدها حرجا بين المسلمين والبيزنطيين .

وعمل أبو بكر خليفة الرسول على تحقيق أهداف النبى والسير قدماً نحو انجازها . ففى السنة التى توفى فيها الرسول (٦٣٢م) بعث أبو بكر أسامة على رأس الجيش الذى أعده النبى من قبـل إلى شمال بلاد العرب . فغزا أسامة بلدة يبنى بين عسقلان ويافا الحالية ثم قفل راجعاً . ويبدو أن أبا بكر أراد بالعمليات الحربية التى قامت بهـا الجيوش الاسلامية إذ ذاك أن يسبر غور البيزنطيين ويعجم عودهم ، فـكانت تعليماته لقواده ألا يتجاوزوا أراضى الأطراف البيزنطية شمال بلاد العرب . ففى سنة ٦٣٣ م / ١٢ هـ أوغل أحد قادة جيوشه وهو خالد بن سعيد فى بلاد الشام حتى اقترب من دمشق ، مخالفـاً ما لديه من تعليمات . فـكانت مغبة هذه الجرأة وخيمة ، إذ انهزم خالد وقفل راجعاً[1] . وبذلك استطاع أبو بكر أن يدرس الموقف الحربى فى الشام ، واقتنع بأن الضرورة الحربيـة تقتضى غزو بلاد الشام غزواً صحيحاً منظما . وهـذا بينما الدولة البيزنطية غارقة فى أحلامها القديمـة بأن القوات العربية التى التقت بها ليست طلائع لموجة جارفة وإنما عصابات صغيرة تبغى السلب والنهب فى أراضيها .

أعد أبو بكر بعد انتهائه من حرب الردة الجيوش الإسلامية لتشن هجوماً فى الجنوب والجنوب الشرقى من بلاد الشام ، وعقدلواءها لأربعة قادة مشاهير، أبوعبيدة بن الجراح ، عمرو بن العاص ، يزيد بن أبى سيفان ، شرحبيل بن حسنة ، وكلف كل

---

(١) الطبرى : تارخ الأمم والملوك ،ج ٤ ، ص ٣٠

واحد منهم مهاجمة مقاطعة معينة من أقليم الشام(١) . وفى نفس الوقت إحتفظ أبو بكر بقوات خالد بن الوليد ، ذلك القائد الموهوب ، فى ميدان أهدأ نسبياً ، وهو الميدان الشرق فى أرض فارس ، إلى حين تدعو الحاجة إليه . وكان أبو بكر صائباً فى رسم خططه . إذ سرعان مادعت الحاجة إلى خالد بن الوليد وقواته(٢) ، فقد لقيت الجيوش الاسلامية جهداً و نصباً رغم ما أصابته من فوز فى أعمالها المتفرقة فى مقاطعات الشام . فكانت تلك المقاطعات منذ تعديل النظام الادارى للأمبراطورية البيزنطية فى عهد جستنيان العظيم ، مناطق إدارية حربية ، يتولى تصريف شئونها حكام يجمعون بين السلطة المدنية والأدارة الحربية(٣) . وكانت ميزة هذا النظام الجديد جعل المناطق الإدارية وحدات قائمة بنفسها قادرة على رد أى عدوان يقع عليها ، أو انهاك مهاجمها حتى يأتيها المدد من جهات أخرى تجاورها . فلاقت الجيوش الاسلامية نصباً لتفرقة جهودها فى الجهات التى هاجمتها ، ووقف تيار زحفها ، على حين كان هرقل يسرع فى إعادة تنظيم جيشه المنهوك القوى بعد حرب فارس . وجعل هرقل أخاه

(١) الطبرى ، نفس المرجع ، ج ٤ ، ص ٢٨ ، ٣٢ . كانت الجهات التى عينها أبو بكر لقواده هى : أبو عبيدة بن الجراح ووجهته حمص ومركز القيادة فى الجابية ، عمرو بن العاص ووجهته فلسطين ، يزيد بن أبى سفيان ووجهته دمشق ، شرحبيل بن حسنة ووجهته وادى الأردن

(٢) Hell, op cit, 49.

(٣) يعزى إلى الأمبراطور جستنيان الفضل فى إعادة تنظيم الأمبراطورية البيزنطية من الناحية الأدارية ، وتبعه خلفاؤه فى تحسين النظم التى وضعها . وكان هدف جستنيان هو تقوية جهات امبراطوريته المعرضة لأخطار خارجية ، أو التى تضطرم بالفتن والثورات . فاقتضى ذلك منح حكام تلك الجهات سلطات حربية إلى جانب المهام الأدارية التى اضطلعوا بها . وكانت فرق من الجيش موزعة فى هذه الأقاليم وخاضعة لأشراف الحاكم العام الذى لقب باسم « استراتيجى » (Strategus) . وتطور هذا النظام فى عهد الأمبراطور هرقل ، وغدا ركنا هاماً فى حياة الإمبراطورية التى هددتها الأخطار الفارسية وغيرها . فكانت بلاد الشام وغيرها من أقاليم الدولة البيزنطية ولا سيما آسيا الصغرى مقسمة إلى أقاليم حربية من هذا النوع أطلق عليها اسم البنود (Themes) وهى تسمية مشتقة من كلمة (Thema) أى فرقة عسكرية .

تيودور قائداً لهذا الجيش الذى بعثه إلى جنوب الشام لملاقاة الخطر الاسلامى الجديد الذى أخذت سحبه تتكاثف هناك . فاضطرت القيادة الاسلامية إلى تعديل خطتها لمواجهة الوضع الجديد ، إذ رأى أبو بكر ضرورة توحيد الجيوش الاسلامية وحركاتها تحت لواء واحد ، فاستدعى خالد من الميدان الشرقى حيث أخضع الحيرة إذ ذاك ليتولى قيادة الجيوش الاسلامية فى الشام (١) .

وهكذا أثمرت خطة أبى بكر فى الاحتفاظ بخالد وقواته إلى وقت الحاجة إليها ، كما برهن على أنه خير خلف للرسول فى وضع الشام فى المكان الأول من اهتمامه ، وتقديره لضرورة الإستيلاء عليها . وسرعان ما وصل خالد إلى ميدان الشام بعد اجتيازه صحراء موحشة بطريقة فذة ما زالت مثار الدهشة والتساؤل حتى الآن ، وهناك انضم إلى القوات الإسلامية التى تولى القيادة العليا لها . ومنذئذ بدأت الحملات النظامية فى الشام ، فافتتح خالد سلسلة انتصاراته بحادث تاريخى يعتبر تحقيقاً لأمنية الرسول وبداية للسير قدما بهذه الأمنية ، إذ استولى على بصرى (٢) (٦٣٤م/١٣هـ) التى كان استشهاد رسول النبى إليها قطب الرحى الذى دارت عليه سياسة الرسول الحربية ، وكذلك سياسة خليفته أبى بكر ، إزاء بلاد الشام . ثم توالت انتصارات المسلمين الحربية ، فسقطت دمشق ، عاصمة إقليم الشام ، ومحط رحال القوافل العربية منذ قديم الزمن بعد حصار دام ستة أشهر (٦٣٥م / ١٤ هـ) . ولم تجد جهود الإمبراطور هرقل للقيام بهجوم مضاد يشل حركة الجيوش الإسلامية المظفرة ، إذ استطاع خالد بن الوليد أن يقضى على الجيش البيزنطى الذى وصل إلى جنوب الشام فى ٥٠٫٠٠٠ رجلا فى معركة اليرموك الحاسمة . وتجلى فى الخطة الحربية التى رسمها خالد للقضاء على هذا الجيش البيزنطى ما تحلى به من عبقرية فذة ومواهب

---

(١) الطبرى ، نفس المرجع ، ج ٤ ، ص ٣١ .

(٢) البلاذرى ، نفس المرجع ، ص ١١٩
الطبرى ، نفس المرجع ، ج ٤ ، ص ٣٥ .

ممتازة فى إدارة دفة الجيوش الإسلامية . فجمع حوالى ٢٥٫٠٠٠ من جند المسلمين فى وادى اليرموك[١] ، حيث عسكر البيزنطيون إلى الشمال من ذلك النهر . وفطن خالد إلى ضعف الموقف البيزنطى ، إذ كان النهر يدور فى الشمال على شكل نصف دائرة تقريباً ، بحيث يحتضن جنوبى القوس سهلا له باب واحد من الجنوب ، بينما بقية مدخله مغلق بخندق طبيعى . فسد خالد المدخل الجنوبى ، على حين دار خلف الجيش البيزنطى وألقى عليه حلقة محكمة من الحصار ، ثم شن هجوماً مرعباً على الجيش البيزنطى ، الذى لقى هزيمة فادحة ، وسقط معظم الجند البيزنطيون قتلى فى قاع النهر ، وغدت فلولهم أشتاتاً مبعثرة تهيم على وجوهها لا تدرى لها مفراً[٢] .

تعتبر معركة اليرموك من أشد المعارك وأحسمها فى التاريخ ، إذ قررت مصير الشام ، أجمل أقاليم الدولة البيزنطية ، والتى حق لهرقل أن يودعها قائلا : « عليك ياسورية السلام ونعم البلد هذا للعدو »[٣] . وتلك العبارة التى ودع بها هرقل أرض الشام تحمل معانى واسعة أوجزها قائد محنك ، خاض كثيراً من الحروب بنفسه وحول تيارها دائماً إلى جانب دولته . فأدرك هرقل ، وعبر عن ذلك فى عبارته الختامية ، أن الشام المفتاح الذى يسهل للمسلمين ولوج أبواب جديدة والاستيلاء على أقطار شاسعة تجعلهم سادة إمبراطورية عالية . وأدرك المسلمون من ناحيتهم أهمية ذلك الإقليم الجليل الذى وضع النبى أولى الخطط للاستيلاء عليه وقام خليفته خير قيام للنهوض بالتركة التى خلفها له الرسول هناك . ثم جاء خليفة أبى بكر وهو عمر ابن الخطاب ليتم البناء ، فبعث الجيوش إلى شمال الشام حيث وصلت إلى حدوده الطبيعية وهى جبال طوروس ، ولقيت من أهالى المدن الشامية ترحيباً وتقديراً

(١) اليرموك نهر صغير ينبع من مرتفعات حوران ، وينساب فى خانق ضيق متعرج ويتصل بنهر الأردن على بعد ستة كيلو مترات ونصف جنوبى بحيرة طبرية .

(٢) محمد أحمد حسونة ، الجغرافيا التاريخية ، ص ٣٢ ، ٣٣ .

(٣) البلاذرى ، نفس المرجع ، ص ١٤٣ .

صورتها تلك العبارة التى رويت عن سكان حمص: « لولايتكم وعدلكم أحب إلينا مما كنا فيه من الظلم والغشم »[١] . كذلك حضر الخليفة عمر بنفسه ليتولى تسليم بيت المقدس التى حاصرها عمرو بن العاص سنة ٦٣٦ م ، والتى أبى بطريقها إلا أن يسلمها للخليفة نفسه . فكتب عمر لبطريقها صفرنيوس عهد أمان ، وانتهز كذلك فرصة وجوده بالشام ، فقام بتنظيم إدارته وتعديل قيادة الجيوش الإسلامية به ثم قفل راجعاً إلى المدينة[٢] .

على أن بيزنطة لم تكن لتترك المسلمين ينعمون بالإستقرار فى بلاد الشام ، إذ داعبت الآمال هرقل على شن هجوم قوى يجلى به المسلمين عن الشام عله يعيد قصة انتصاراته على الفرس . وبدا أن الفوز حليف هرقل فى تلك المحاولة[٣] ، إذ كانت القبائل العربية الضاربة فى أرض الجزيرة ، قرب شمال الشام ، لا تزال على ديانتها المسيحية وتمردها ، تبغى القضاء على سلطان الجيوش الإسلامية التى استقرت فى العراق والشام ، خشية أن يمتد إليها بأسها ونفوذها . فراسلت هرقل تطلب منه العون على مهاجمة المسلمين . وهنا يتضح أول خطر ملح هدد كيان المسلمين فى الشام بالزوال . فإلى ذلك الوقت كان المسلمون يلقون ترحيباً من أهالى البلاد حباً فى التخلص من الإضطهادات المذهبية التى قامت بها الدولة البيزنطية ، كما كانوا عاملا هاماً فى تسهيل فتح البلاد للمسلمين . ولكن رأى هرقل فى تألب القبائل العربية النصرانية فرصة مواتية كفيلة أن تزلزل أركان المسلمين بالشام . فراسل تلك القبائل وحضها على التجمع استعداداً لتلقى مدد يأتى إليها بحراً من مصر . وأقبل هرقل يمد الجيوش مرة أخرى بعد أن قضى سنة مستجماً بعيداً عن ميدان القتال فى

(١) البلاذرى ، نفس المرجع ، ص ١٤٤ .
(٢) الطبرى ، نفس المرجع ، ج ٤ ، ص ١٥٨ ، ١٥٩ .
(٣) Bury, op cit, II 268
Sir William Muir, The Caliphate, its Rise Decline and Fall, 140 .

الشام ، وجد عنده الأمل أن معظم ثغور الشام على البحر الأبيض لا زالت تقاوم المسلمين كما أن البحر ما زال طريقاً مفتوحاً أمامه آمناً يمكن أن ينقل عبره قواته. وأبحرت الجيوش البيزنطية سنة ٦٣٨ م من الإسكندرية بقيادة قنسطنطين بن هرقل نفسه ، مما يدل على الأهمية الكبرى التي علقها هرقل على تلك الحملة . وألقت الحملة مرساها فى أنطاكية التى استولى عليها البيزنطيون وانضموا إلى القبائل العربية[1] المتمردة .

ولم يلبث أن ثارت أقاليم الشام الشمالية وألفى أبو عبيدة نفسه محصوراً فى حمص على حين يسير أعداؤه لمحاربته من البر والبحر . فكتب إلى الخليفة بالحجاز يستنجده ، كما عقد مؤتمراً حربياً من القادة المسلمين للتشاور فى الوضع الحربى . وكان الأمر خطيراً والموقف حرجاً ، إذ استقر رأى المؤتمر الحربى على إلتزام خطة التريث والدفاع ، وعارض القادة لأول مرة رأى خالد بن الوليد القائل بالمبادرة إلى مهاجمة العدو . وفى نفس الوقت أمر الخليفة القعقاع ، أحد قادة المسلمين فى العراق ، أن يتوجه بأسرع ما يمكن لمساعدة أبى عبيدة ، على حين جمع النجدات من الحجاز ، وسار بنفسه على رأسها متجهاً إلى الشام . وكانت خطة المسلمين ترمى إلى إخراج القبائل المتمردة من دائرة الجيش البيزنطى . وملاقاته على حده . فانطلق سهيل بن على وعبد الله بن عتبان للقيام بحركة إلتفاف حول أرض الجزيرة ومهاجمة قبائلها . وكان لإسراع المسلمين فى إرسال النجدات وجدية حركاتهم أثر فى إلقاء الرعب فى نفوس القبائل التى تخلت عن البيزنطيين وقفلت راجعة إلى مضاربها مؤثرة السلامة[2] . وكان نجاح هذا الشطر من خطة المسلمين بإخراج القبائل من نطاق البيزنطيين مدعاة للمبادرة بالهجوم على الجيش البيزنطى . فأظهر البيزنطيون رغم شدة هجوم المسلمين

---

(١) Gaussin De Parceval, Essai sur l'Histiore des Arabes III, 512

(٢) ابن الأثير ، الكامل فى التاريخ ، ج ٢ ، ص ٢٢٤ .

بأساً وصلداً كانا كفيلين بصد المسلمين لو أن القبائل العربية ظلت على تعضيدها ومساعدتها . على أن مقاومة البيزنطيين إنهارت قبل أن تصل إمدادات القعقاع ونجـدات الخليفة ، وانسحبت القوات البيزنطية بحراً إلى الإسكندرية والقسطنطينية .

وبذلك ثبتت أقدام المسلمين فى الشام ، وجنت جيوشهم المظفرة أولى ثمار جهودهم التى جاءت نتيجة اضطراب أحوال الدولة البيزنطية فى تلك البلاد . لكن خرج المسلمون من أحداث حروبهم فى الشام بدرس وسع مجال أفقهم الحربى ، إذ رأوا أن استقرارهم فى الشام حجر الزاوية لفتوحاتهم الجديدة رهن بالإستيلاء على مصر .

فتح مصر

رأى المسلمون فى مقاومة البيزنطيين لهم فى الشام خطة منظمة ، تعمل على عرقلة حركاتهم وتقويض دعائم سلطتهم فى تلك البلاد إذا سنحت الفرصة . وجاءت حركة الإمبراطور هرقل الأخيرة حافزاً قوياً حمل قادة الجيوش الإسلامية على أن يتدبروا موقفهم فى الشام على ضوء الحوادث والأمر الواقع . وينسب إلى عمرو بن العاص ، قائد الميدان الجنوبى فى الشام ، الفضل فى إدراك كنه الموقف الحربى ، وبيان الدور الذى أسهمت به مصر فيما يعانيه المسلمون من متاعب فى الشام[1] . فمصر كانت

(١) لم تتناول المراجع الأصلية سواء العربية أو البيزنطية الأسباب التى حملت المسلمين على فتح مصر بشيء من الأيضاح . ويستشف القارىء للروايات التى تداولتها تلك المراجع على أن فتح مصر جاء وليد مغامرة القائد عمرو بن العاص الذى رغب فى إظهار مواهبه فى هذا الميدان الجديد . ولكن المدقق فى تمحيص الروايات العديدة يلمس أن الدور الذى لعبه عمرو — وإن كان هاما — ليس الدافع الرئيسى أو الأهم على فتح مصر . فلا يعقل أن يقدم المسلمون وعلى رأسهم إذ ذاك خليفة حذر ، لا يندفع وراء أمور عارضة ، وهو عمر بن الخطاب ، على فتح مصر دون أسباب لها خطرها ، مذكور أكثرها فى العرض المدون فى هذا الفصل .

القاعدة التى انسحب إليها الأرطبون (Areteon) داهى دهاة الحرب فى الشام[1]. فقد رأى هذا القائد البيزنطى أن الاحتفـاظ بالشام أو الدفاع عنها مضيعة للقوى البيزنطية ومهلـكة لها ، وأن الأجدى التجمع فى منطقة آمنة يشن منها هجوما مضاداً على القوات الإسلامية فى الشام . وقد تقهقر هذا القائد بقواته من فلسطين دون أن يدافع عن بيت المقدس ودخل مصر .

ويظهر أن مفاوضة البطريق صفرنيوس للمسلمين وإصراره على حضور الخليفة عمر بنفسة للاستيلاء على بيت المقدس كان كسباً للوقت ، ليتمكن القائد البيزنطى من سحب جنوده من تلك المدينة والوصول إلى مصر آمناً . ولعل تلك الأحداث جرت على اتفاق سابق بين البطريق والقائد البيزنطى ، كل يعمل لما فيه الصالح العام ، الأول يحافظ على مدينته والآخر يرعى جنوده وقواته . ومهما يكن من أمر ذلك فقد ظهرت أهمية مصر للمسلمين وخطر تجمع القوات البيزنطية بها حين بعث هرقل حملته البحرية من الإسكندرية واستولت على أنطا كية ، وكادت أن تزعزع الفتوحات الإسلامية بالشام . فما لا شك فيه أن قوة تلك الحملة وما بعثته فى قلوب قادة المسلمين من فزع جعلهم لايغضون الطرف عن ذلك الأقليم الذى انبعثت منه الحملة ، وأنهم إذا كانوا قد انتصروا على القوات البيزنطية ، فأنهم لم يأمنوا أن تتـكرر تلك المحاولة ولا يرغبون فى بقائهم فى حالة ترقب وخوف .

وربما قوى تلك المخاوف عندهم أن البحر مازال فى أيدى البيزنطيين تسير فيه سفنهم حاملة الجيوش لاسترداد الثغور البحرية التى استولى عليها المسلمون ، وعد الموانى التى لم تسقط بعد بالعـُدة والعتاد . فأنطا كية فتحت أبوابها بسرعة لقوات

---

(١) الطبرى ، نفس المرجع ، ج ٤ ، ص ١٥٩ . وقد تحدث الطبرى عن الأرطبون قائلا : « كان الأرطبون أدهى الروم وأبعدها غورا وأنكاها فعالا . وقد وضع بالرملة جندا عظيما وبأيلياء جندا عظيما ، وكتب عمرو إلى عمر بالخبر ، فلما جاءه كتاب عمرو قال : قد رمينا أرطبون الروم بأرطبون العرب » أنظر الطبرى ، ج ٤ ، ص ١٥٧ .

هرقل البحرية وغدت مركز الثورة ضد المسلمين فى الشام . وقيسارية فى الجنوب ظل عمرو يحاصرها بعد سقوط بيت المقدس دون أن يمسها بشيء ، لأبراجها المنيعة وأسوارها الحصينة وجانبها المطل على البحر الذى يلقى الامدادات . ومن الجلى أن أقرب قاعدة زودت قيسارية وغيرها من الموانى هى مصر [١] ، التى غدت محور ارتكاز القوات الحربية للدولة البيزنطية فى حوض البحر الأبيض المتوسط الشرقى . فهذه الأسباب المباشرة هى التي حملت الخليفة عمر على عقد مؤتمر الجابية بعد استرداد شمال الشام لدراسة الموقف الحربى ، واتخاذ الخطوات اللازمة لتأمين الفتوحات الاسلامية هناك . ولم يكن مستغربا أن ينفرد القائد عمرو بأدارة دفة المناقشات فى هذا المؤتمر مبيناً العراقيل التى تضعها مصر فى طريق فتوحات المسلمين فى الشام . فعمرو هو قائد المنطقة الجنوبية (أى فلسطين) الذى رأى الجيوش البيزنطية تتجنب الاحتكاك بقواته وتنسحب إلى مصر ؛ وأن مصر هى التى تبعث الإمدادات إلى الشام مما جعله يقف مكتوف الأيدى أمام قيسارية [٢] .

ولا بد أن هناك عوامل أخرى جعلت مؤتمر الجابية يقرر غزو مصر إلى جانب الأسباب السابقة ، التى لم تكن إلا حدثاً مباشراً جذب أنظار المسلمين إلى مصر . فالعرب منذ قديم الزمن يقدرون أهمية مصر ومركزها فى الدولة البيزنطية . فهى المخزن الذى يمد الدولة بالغلال ويهيء لها رغداً من العيش ، والإستيلاء عليها كفيل بكسر شوكة المقاومة البيزنطية وإزهاق الدولة البيزنطية نفسها ، وحرمانها من

---

(١) M. De Goeje, Memoire sur la conquête de la Syrie, 167،
Ameer Ali Syed, A short history of the Saracens, 40.

(٢) وكان عمرو بن العاص يعلم عناد الأرطبون ودأبه على الحرب منذ أن التقى معه فى حروب الشام . وكانت سياسة الأرطبون التأثير على روح عمرو المعنوية . فمن ذلك مارواه الطبرى : « كتب أرطبون إلى عمرو بأنك صديقى ونظيرى أنت فى قومك مثلى فى قومى ، والله لاتفتح من فلسطين شيئا بعد إجنادين ، فارجع ولا تغر فتلق مالقى الذين قبلك من الهزيمة » . ج ٤ ، ص ١٥٨ .

أهم الشرايين التى تبعث فيها ماء الحياة[١] . كذلك من المحتمل أن قادة المسلمين ، وقد اتسع أفق تفكيرهم الحربى نتيجة للحملات المنظمة التى قاموا بها ، أدركوا أن مصر ليست قاعدة يمكن أن تقضى على فتوحاتهم فى الشام فحسب ، بل هى ذات مركز إستراتيجى يهيىء له موقعه الجغرافى شن حملة انتقامية على بلاد العرب نفسها حين يفيق البيزنطيون إلى أنفسهم[٢] . ولعل قادة ذلك المؤتمر — بما فطر عليه العربى من حفظ أيام بلاده وأحداثها — تذكروا حملة القائد الرومانى جايوس جالوس زمن الإمبراطور أكتافيوس ؛ إذ أبحر هذا القائد من ميناء القلزم على البحر الأحمر على رأس حملة ألقت مرساها فى بلاد الحجاز وتابعت السير لمهاجمة الحميريين فى اليمن . فربما يكرر البيزنطيون هذا الدور ضد الحجاز ، ذلك المنبع الذى أخذ يقلق راحتهم ويقض مضجعهم . وأخيراً رأوا فى الإستيلاء على مصر حرماناً للأسطول البيزنطى من أية قاعدة يستطيع أن يعمل منها ضد المسلمين سواء فى مياه البحر الأبيض المتوسط الشرقى قرب سواحل الشام أو فى مياه البحر الأحمر قبالة الحجاز[٣] .

ولذلك كانت الدوافع التى حملت الخليفة عمر على أن يمنح عمرا فى مؤتمر الجابية الحربى سلطة فتح مصر أسباباً لها قيمتها الجوهرية ، كما كان رأيا ثاقبا جاء وليد البحث والإستقصاء ، فضلا عن مواجهة مقتضيات الظروف . فالمعروف

---

(١) Cambridge Mediaeval History II, 349.

(٢) I bid, 349.

(٣) لازالت مسألة فتح مصر تحتاج إلى دراسات تفصيلية . ويعتبر كتاب بتلر (فتح العرب مصر) من الدرجة الأولى فى وصف سير الحملة الإسلامية ومناقشة حوادث سقوط المدن المصرية واحدة بعد الأخرى فى أيدي المسلمين . ولكن بتلر لم يناقش فى إسهاب الدوافع التى حملت المسلمين على توجيه إهتمامهم الى مصر ، فى هذه المرحلة المبكرة من فتوحاتهم . وكذلك مسألة خطاب الخليفة عمر الى عمرو بن العاص وهو فى طريقه إلى فتح مصر تحتاج إلى مناقشة لا يتسع المجال هنا لترديدها . وقد اكتفيت بسرد ما يمكن استخلاصه من الآراء مذكورة فى هذا الفصل .

عن الخليفة عمر ولا سيما فى تلك الحروب التى جرت فى عهده ، حبه فى التأنى وكبح جماح السرعة الحربية التى جرت بها عجلة الحروب ، وعدم تعريض قواته للخطر ، ودأبه فى العمل على سلامتها وتأمين مراكزها قبل الإقدام على أية مغامرة جديدة . ولذا كان إرسال الخليفة عمر الجيوش لفتح مصر وليد إلحاح ضرورة حربية استدعت تأمين قواته وفتوحاته فى الشام . وهذا يحملنا على النظر فى أمر الخطاب الذى قيل إن الخليفة عمر أرسله إلى قائده عمرو وهو فى طريقه لفتح مصر ؛ إذ ما تذكره الروايات عن مضمون هذا الكتاب وهو حمل عمرو على العودة إن لم يكن قد بلغ أرض مصر ، أو السير قدماً فى وجهته إن هو دخل أرضها حين استلامه الكتاب ، فهذا قول لا تشجع الحوادث أو كياسة الخليفة عمر على التسليم به على علاته . أضف إلى ذلك أن مثل تلك الخطوة كفيلة — إذا قفل عمرو راجعاً دون فتح مصر — بأن تحط من هيبة القوات الإسلامية التى ملأت انتصاراتها الآفاق ، وأن تظهر المسلمين بمظهر أناس يرتجلون خططهم ، وهذا مالا تؤيده حوادث حروبهم . وعلى الجملة فإن وقوع الأختيار على عمرو ، الخبير بشئون مصر ومسالكها لمتاجرته فيها زمن الجاهلية ، دليل قاطع على أن الحملة التى وجهت لفتح مصر سارت لتحقيق هدف خاص هام لا يخالطه التردد أو الريب .

وقصة فتح عمرو لمصر تدل على أن اضطراب أحوال الدولة البيزنطية كان السبب الرئيسى فى ضياع ذلك الأقليم ، فالجيوش البيزنطية كانت عديدة وقوية فى مصر ، وفى استطاعتها صد قوات عمرو الضئيلة . غير أن قيادة تلك الجيوش كانت مفككة ، لا رابط بين قوادها أو تعاون (١) . كذلك أضحى هرقل رجلا مسنا أخذ الضعف يدب فى أوصاله ، ورغم محاولاته المتكررة لصد العرب ،

(١) Vasiliev, op cit, 277, 278,
J. Maspero, Organisation Militaire de l'Egypte Byzantine,
انظر الباب الرابع من هذا الكتاب الذى وضعه ماسبيرو لتوضيح الأشارة السالفة ، من ص ١١٤ إلى ١٣٢ .

وتكليف أبنائه وأقاربه قيادة الجيوش للقيام بذلك الغرض ، فشل فى صد تيار عمرو الجارف . وأخذ هذا القائد المسلم يجنى فى مصر ثمار سياسة الإضطهاد الدينى التى اتبعتها بيزنطة هناك ، فاستولى عمرو على الفرما (٦٤٠ م / ١٩ هـ) أو بلوزيوم مفتاح مصر الشرقية ، بعد حصار لم يصلها فيه أية إمدادات بيزنطية . ثم احتل بلبيس وحصن بابليون (٦٤١ م / ٢٠ هـ) الذى جعله سيد مصر الوسطى والدلتا . واتجه عمرو بعد ذلك إلى الإسكندرية التى كانت العاصمة إذ ذاك ، فاستولى على نيقيوس فى الطريق إليها ثم التى الحصار على الإسكندرية التى كان بها قوة تبلغ ٥٠٫٠٠٠ رجل ويشد أزرها الأسطول البيزنطى . وحاول هرقل أن ينقذ تلك المدينة ، فأخذ يعد العدة لذلك ، وصمم على أن يخرج بنفسه على رأس الجيش الذاهب إلى الإسكندرية . على أن مجهودات هرقل كانت كصحوة الموت إذ لم يلبث أن توفى فى فبراير سنة ٦٤١ م قبل سقوط الاسكندرية التى استولى عليها المسلمون فى سبتمبر سنة ٦٤٢م / ٢١ هـ [١] . وبذلك غدا المسلمون سادة مصر إلى جانب سيادتهم للشام ، وأضحوا يتطلعون إلى البحر الأبيض المتوسط الشرقى الذى طلت سواحل ممتلكاتهم عليه ، يعملون على دفع غائلة البيزنطيين وإقصاء سلطانهم عنه .

وتجلى إهتمام المسلمين فى المحافظة على هذين القطرين الهامين فى اتجاههم منذ زمن مبكر إلى العناية بالشئون البحرية . فأقبلوا أولا على تحصين سواحلهما المطلة على البحر الأبيض المتوسط وتقويتها بالحاميات الدائمة (الرباط) ، التى كان يختار أفرادها دائماً من أولى البأس والقوة . ثم لم يلبث المسلمون أن أنشأوا السفن الحربية وغدت أساطيلهم تمخر عباب المياه ، تصد أساطيل البيزنطيين ، وتوقع بها الهزائم قبل أن تقترب من الشواطىء الإسلامية .

---

(١) ابن عبد الحكم ، فتوح مصر ، ص ٥٨ ، ٧٢ ؛ السيوطى ، حسن المحاضرة ، ج ١ ، ص ٥٢ ،

Butler, op cit 295, 300 .

التنافس بين المسلمين والبيزنطيين
فى البحر الأبيض المتوسط الشرقى

فشل البيزنطيين فى استعادة مصر والشام

كانت السنوات الأخيرة من عهد هرقل فترة اضطراب ومتناقضات فى الدولة البيزنطية . فذلك الإمبراطور الذى قضى زهرة حياته فى إعادة النظام والسلام إلى الدولة ، وقضى على عدوها اللدود دولة الفرس العتيدة ، شاهد فى السنوات الختامية من حياته إقتطاع الشام ومصر من إمبراطوريته مرة أخرى . كذلك لم ينعم طويلا بالاحتفالات التى حضرها فى الشام لأعادة صليب الصلبوت إلى بيت المقدس بعد استرداده من الفرس .والظاهر أن طاقة هرقل الجسمانية ضعفت لدرجة أقعدته عن تولى قيادة الجيوش البيزنطية بنفسه لمقابلة القوات الإسلامية . فكان يعهد إلى أولاده والأخصاء من أقاربه قيادة الجيوش ، غير أن الفوضى شملت أرجاء البلاط البيزنطى وقتئذ ، وقنع هرقل ذلك الإمبراطور المعتد برأيه أن يسلم بمطالب زوجته مارتينا الجميلة الطموح . فترك وصية تنص على أن يتولى شئون الدولة من بعده إبنه الأكبر قنسطنطين ويشاركه هيرقلوناس بن مارتينا وزوجته مارتينا كذلك[1] . ولذا كان البلاط البيزنطى فى الأيام الأخيرة من عهد هرقل ، ولا سيما إبان توغل الجيوش الإسلامية فى أرض مصر ، مسرحاً للدس والمؤامرات ، تقودها الإمبراطورة مارتينا بغية تهيئة الجو لانفرادها ومعها ابنها بالحكم . فانقسم القواد البيزنطيون شيعاً كل يؤيد حزبا من الأحزاب ، كما عزل البعض منهم أو أطلق سراح الآخرين حسبما

(1) Bury, op cit , 282.

تهوى السلطات العليا فى القسطنطينية [١] .

وانعكست صورة هذه الفوضى التى سادت العسكريين فى تفكك قيادة الجيوش البيزنطية المدافعة عن مصر ، وغدا الاستبسال فى الدفاع عن البلاد المصرية ضد الجيوش الإسلامية الغازية حركات فردية يقوم بها هذا القائد أو ذاك . فمن القواد البيزنطيين الذين قاوموا الجيوش الإسلامية مقاومة عنيفة القائد مانويل الذى صمد لحصار عمرو بن العاص للاسكندرية ، وكاد يبعث الضجر فى نفوس المحاصرين العرب . ولكن ما أن توفى هرقل حتى عم الاضطراب فى القسطنطينية ، ويئس مانويل من وصول إمدادات تشد أزره فى الدفاع عن الإسكندرية وانسحب منها بحراً . وكانت مرتينا صاحبة النفوذ الأعلى إذ ذاك فى الدولة البيزنطية قد منحت قيرس (المقوقس) سلطة مفاوضة العرب فى مصر [٢] .

على أن هيمنة مارتينا على شئون الدولة لم تطل كثيراً ، إذ توفى قنسطنطين الإبن الأكبر لهرقل ، وسرت الإشاعات أن مارتينا هى التى سببت وفاته . وتمخض شعور الإستياء عن إقصاء مارتينا وإبنها عن الحكم وتولية إبن قنسطنطين المتوفى وهو قنسطانز الثانى (Constans II) [٣] . وفى عهد هذا الإمبراطور أخذت الدولة البيزنطية تعدل سياستها لمواجهة الحالة التى خلقها العرب لهم فى البحر الأبيض المتوسط الشرقى . فعمل قنسطانز أولا على استرداد مصر والشام من المسلمين معتمداً على قوته البحرية . وأرسل فى نهاية سنة ٦٤٥ م / ٢٥ هـ ثلثمائة سفينة تحمل العدة والعتاد لاسترداد مصر . وكانت تلك الحملة تحت قيادة مانويل ، ذلك القائد الذى دافع عن الاسكندرية فى حصارها الأول دفاعا مجيداً . وجاءت الحملة مفاجأة

(١) Bury, opcit, 283.

(٢) Bury. op cit, 271 , 288, Butler, op cit , 304, 319, 320.

(٣) Bury, op cit II , 284 , 285 , 286

المسلمين فى مصر ، حيث سلمت الإسكندرية سريعاً واتخذها مانويل قاعدة للتوغل فى الأراضى المصرية (١) . وتقدمت الجيوش البيزنطية فعلا حتى كادت تقترب من حصن بابليون . واضطربت القيادة العربية العليا فى الحجاز من أنباء هذه الحملة مما حملها على إيفاد عمرو بن العاص ، فاتح مصر ، ليصد العدوان البيزنطى . فكانت إعادة الخليفة عثمان قيادة الجيوش فى مصر إلى عمرو بن العاص عملا هاما وخطوة موفقة ، إذ التقى فاتح مصر الأول والخبير بشئونها ، بالقائد مانويل البيزنطى العنيد الذى أراد أن يعيد مجد دولته فى مصر . ورغماً عن استماته مانويل فى الحرب فإنه لقى هزيمة عند نيقيوس وعاد إلى الإسكندرية حيث تحصن بها ونصب المجانيق على أسوارها (٢) .

وهناك وقف عمرو ، الذى تابع انتصاراته ، مشدوها مرة أخرى أمام أسوار الإسكندرية ، وفاض به الحنق لوقوفها فى وجهه ، وأقسم لئن استولى على المدينة ليهدم أسوارها ويجعلها كبيت الزانية يؤتى من كل مكان (٣) . وذهبت مجهودات مانويل فى التحصن داخل الإسكندرية أدراج الرياح ، إذ تمكن عمرو من دخول المدينة فى أوائل سنة ٦٤٦ م عن طريق استمالة أحد حراسها وأعمل الذبح والتقتيل فى الحامية البيزنطية التى خر قائدها مانويل نفسه قتيلا فى الميدان (٤) .

كانت حملة مانويل على مصر شعبة لحركة مزدوجة ، إتجه طرفها الآخر براً فى نفس تلك الفترة (حوالى عام ٦٤٦) لمهاجمة الشام . على أن هذه الحملة الأخيرة

---

(١) ابن عبد الحكم : نفس المرجع ، س ١٥٧ ، و Bury, op cit II , 288

(٢) إبن عبد الحكم ، نفس المرجع ، س ٣٥٨ ؛ أبو المحاسن ، النجوم الزاهرة ، ج ١ ص ٦٥ ، ٦٦ .

(٣) المقريزى : المواعظ ، ج ١ ، س ١٦٧

(٤) المقريزى ، نفس المرجع ، ج ١ ، س ١٦٧

منيت بدورها بهزيمة فادحة على يد معاوية وإلى الشام[١] ، الذى أتم بذلك القضاء على مشروع قنسطانز لمحاولة إعادة سلطان الدولة البيزنطية فى مصر والشام . وغدا المسلمون سادة أهم شواطيء البحر الأبيض المتوسط الشرقى ، ورأوا أن تدعيم تلك السيادة يستلزم إنشاء الأساطيل لرد أي عدوان تشنه بيزنطة . وكان اتجاه المسلمين لركوب البحر مشكلة اضطروا لمواجهتها بعد تلك الإغارات البحرية المتكررة التى شنها البيزنطيون على فتوحاتهم الجديدة . وبرهن العرب على حسن إدارة مصر والشام واستخدام أهاليهما فى سياستهم البحرية ، حتى غدا لهم أسطول كانت مصر نفسها عموده الفقرى وعصب حياته .

إعادة تنظيم الإمبراطورية البيزنطية فى القرن السابع الميلادى

وسار النصر فى ركاب الأسطول الإسلامى منذ بدأ حركاته الأولى ضد البيزنطيين فى مياه البحر الأبيض المتوسط الشرقى[٢] . فاستهل المسلمون نشاطهم البحرى بالإستيلاء على قبرص (٦٤٩ م / ٢٨ هـ) لحماية شواطيء الشام وتأمينها من إغارات البيزنطيين[٣] . كذلك أحرز الأسطول الإسلامى انتصاراً باهراً كان نقطة التحول فى السيطرة على مياه البحر الأبيض المتوسط الشرقى . ففى سنة ٦٥٥ م / ٣٤ هـ ، أبحر الإمبراطور قنسطانز على رأس عمارة بحرية كبيرة لعرقلة الإستعدادات البحرية التى كان المسلمون يعدونها فى موانى الشام لشن إغارة على القسطنطينية . وأسفرت المعركة البحرية التى نشبت عند فوينكس (Phoenix) قرب شواطيء ليكيا — بآسيا الصغرى — عن انتصار المسلمين واندحار

(١) Bury, op cit, II, 288.

(٢) Vasiliev, op cit, 281.

(٣) ابن الأثير ، نفس المرجع ، ج ٣ ، ص ٤٠ . لم يكن احتلال المسلمين لقبرص دائماً ، وإنما توالى الأخذ والرد على هذه الجزيرة بين المسلمين والبيزنطيين .

البيزنطيين الذين كاد امبراطورهم نفسه يقع أسيراً فى قبضة المسلمين[١] .

وتعتبر تلك الوقعة البحرية التى يسميها المؤرخون العرب معركة ذات الصوارى ، لكثرة صوارى السفن التى اشتبكت فى القتال ، حداً فاصلا فى سياسة البيزنطيين إزاء المسلمين . فقد أفاق الإمبراطور قنسطانز بعدها إلى نفسه وأدرك أن إعداد أية حملات برية أو بحرية لاسترداد مصر أو الشام مجهود فاشل ضائع ، ومحاولات فات أوانها . ورأى من الأجدى أن ينظم دولته وسياستها على أساس الأمر الواقع للاحتفاظ بالبقية الباقية من ممتلكاتها ، ويقوى أداتها الحربية لصد هجوم المسلمين الذي أخذ يتطلع إلى القسطنطينية نفسها . وكان ذلك إتجاها سليما دلّ على حصافة رأى الإمبراطور قنسطانز ، واستطاع خلفاؤه على ضوء هذه السياسة أن يوقفوا تيار الفتوحات الإسلامية عند أطراف آسيا الصغرى الجنوبية . ومما ساعد الأباطرة البيزنطيين على الدفاع عن كيانهم أن الفتوحات الإسلامية حملت لدولتهم نتائج حسنة جاءت عن غير قصد . ذلك أن سقوط مصر والشام فى أيدى المسلمين اقتطع رقعة أقلقت الدولة البيزنطية كثيراً وأجهدتها زمناً طويلا وصرفت إهتمام أباطرتها إلى ميدان لا طائل من ورائه ، وهو محاولة حل المشكلة المذهبية . وغدت الأراضى البيزنطية باستثناء بعض الجهات التى ظلت تابعة للدولة ، فى شمال إفريقية وإيطاليا ، وحدة يسودها سكان إغريق يتكلمون لغة واحدة ويدينون بعقيدة واحدة ومذهب واحد ، ويكونون كتلة متماسكة موالية للامبراطور . فأضحت بذلك المشاكل التى تواجهها الدولة البيزنطية محدودة بسيطة . وصح لأحد المؤرخين القول بأن الفتوحات الإسلامية خففت الأعباء الثقيلة التى ناءت بها الدولة البيزنطية ، وتركتها تجتاز فترة نقاهة تسترد فيها قوتها[٢] .

---

(١) ابن عبد الحكم ، نفس المرجع ، ص ١٩٠ ، ١٩١ .

(2) Vasiliev, op cit, 282.

ويلاحظ أن المسلمين لم يتمكنوا من السير قدماً للاستفادة من نتائج النصر الذى أحرزوه فى موقعة ذات الصوارى ، إذ تلا هذه المعركة مقتل عثمان بن عفان (٦٥٦م/٣٥هـ) . ومن ثم بدأت فترة نزاع حول الخلافة بين على بن أبى طالب وبين غيره من الطامعين فيها وأبرزهم معاوية بن أبى سفيان . فانتهز الإمبراطور قنسطانز فترة الهدوء التى سادت العلاقات الحربية بين دولته والمسلمين وعول على تدعيم إمبراطوريته . ورأى أن ينقل مقر حكمه من القسطنطينية إلى صقلية حيث يستطيع من هذا المقر الذى يربط الدولة البيزنطية بالبقية الباقية لها فى شمال أفريقية ، أن يصد الزحف الإسلامى المتدفق من مصر عن هذه البقية ويحفظ ممتلكاته فى الغرب . لكن قنسطانز أغتيل فى سيراكوز (٦٨٨م) وقبر معه مشروع تقوية الجبهة الغربية من الإمبراطورية (١) .

الأمويون والقسطنطينية

وبينما هذه الأحداث تجرى فى الإمبراطورية البيزنطية إنتهت الإضطرابات الداخلية التى جرت فى الدولة الإسلامية بعد مقتل الخليفة عثمان باستتباب الأمر لمعاوية بن أبى سفيان والى الشام سنة ٦٦١م/٤١هـ . وبذلك دبت الحياة مرة أخرى فى حركة الفتوحات الإسلامية ، إذ تطلع معاوية — أول الخلفاء الأمويين — إلى إكمال السياسة الحربية التى بدأها الخلفاء الراشدون من المدينة . فاندفعت العجلة

---

(١) Vasiliev, op cit, 238, Bury, op cit II, 297, 298, 302.

لم تكن هذه هى المرة الأولى التى يفكر فيها إمبراطور بيزنطى فى نقل العاصمة من القسطنطينية إلى مكان آخر . فقد سبق محاولة قنسطانز تفكير الإمبراطور هرقل فى نقل مقر ملكه إلى قرطاجة فى شمال إفريقية عندما اشتد الخطر الفارسى على أراضى الدولة البيزنطية وهدد القسطنطينية نفسها . ولكن محاولة قنسطانز كانت ذات طابع يختلف عن تلك التى أراد هرقل تنفيذها . فقد رغب قنسطانز بنقله العاصمة إلى سيراكوز عرقلة الفتوحات الإسلامية وإنقاذ ما يمكن إنقاذه من أراضى الدوله البيزنطية فى شمال إفريقية .

الحربية الإسلامية تطوى الأراضى البيزنطية فى شمال أفريقية حتى وصلت فى النهاية — فى عهد خلفائه — إلى المحيط الأطلنطى . على أن معاوية تطلع إلى تحقيق تلك الرغبة التى جاشت فى نفسه أيام أن كان والياً على الشام ، وهى الاستيلاء على القسطنطينية . فالآن وهو خليفة ، أصبح طليق اليد فى إعداد العدة للاستيلاء على عاصمة البيزنطيين وتتويج الفتوحات الإسلامية — التى طوت المدائن من قبل — بهذه العاصمة الجديدة . وشجع معاوية على الإقدام على تلك المحاولة الجريئة إعتلاء الإمبراطور قنسطنطين الرابع (٦٦٨ — ٦٨٥ م) الصغير السن عرش الدولة البيزنطية بعد مقتل أبيه قنسطانز الثانى . على أن القسطنطينية كانت من معدن آخر غير المدائن ووقفت كالعنقاء أبعد من أن تصاب بفضل موقعها الجغرافى وجهود علمائها الموفقة فى اختراع النار البحرية (أو النار الإغريقية) التى اجهدت المسلمين وأنزلت بهم خسائر فادحة .

اتجهت الحملة الإسلامية ، التى أعدها معاوية ، شطر القسطنطينية فى نهاية سنة ٦٧٢م واشتبكت فى عمليات حربية مع الأساطيل البيزنطية فى مياه القسطنطينية مدى سبع سنوات (٦٧٤—٦٧٠م/٥٤ — ٦٠هـ)[١] . على أن تلك الفترة كلها لم تكن مسرحاً لحروب متصلة ، فكانت خطة المسلمين قضاء الشتاء فى جزيرة كيزيكوس . Cyzicus (وهى أرواد فى المراجع العربية)[٢] ، وفى الربيع يحاصرون القسطنطينية براً وبحراً حتى يقبل الخريف فيعودون أدراجهم إلى مقرهم الشتوى فى كيزيكوس وظل المسلمون يجاهدون على هذا المنوال دون أن تتمكن أساطيلهم أو جيوشهم من الإستيلاء على المدينة . فالقسطنطينية لم تكن إذ ذاك مدينة شبيهة بتلك المدن التى أخذها المسلمون عنوة فى الشام ، وإنما كانت عاصمة لإقليم إدارى حربى (وهى

(١) Vasiliev, op cit, 283.

(٢) الطبرى : تاريخ الرسل والملوك (مصر) ، ج ٦ ، ص ٦٤ .

ما يسمى بالبند Theme [(١)]) يستطيع أن يصمد لأى هجوم برى بحرى ؛ إذ به مؤنه وزاده ، وتأتى إليه الإمـــدادات بحراً من المناطق المجاورة له . واستخدم البيزنطيون للمرة الأولى إبان ذلك الحصـار ضرباً من الفنون الحربية ، عرقل حركات الأساطيل والجيوش الإسلامية ، ذلك أن البيزنطيين استخدموا جندهم غير النظامى الذى كان يقيم فى مرتفعات جبال طوروس وبصفة خاصة فى حصون اللكام (Amanus) فى القيام بهجوم مضاد على بلاد الشـام نفسها . ذلك أن بلاد الشام غدت بعد سقوطها فى أيدى المسلمين القاعدة التى تجمعت فيها القوات البرية والأساطيل الإسلامية لشن إغاراتها أو القيام بحملاتها ضد الدولة البيزنطية وكان هدف البيزنطيين شطر أجناد الشام البرية عن الأجناد السـاحلية [(٢)] ومنع التعاون بينهما وشل حركاتهما . وكان أولئك الجند الذين اضطلعوا بهذا الهجوم ضد المسلمين عنصراً متمرداً عنيداً ، يحيا حياة شبه مستقلة ملؤها المغامرة ، فأدوا إلى سادتهم خدمات شبيهة بأعمال فرق الموت أو الصاعقة . وكان من عادة أولئك الجند حمل قضبان حديدية جعلت البيزنطيين يلقبونهم باسم (apoblitoi) . على أنهم إشتهروا بالإسم الذى أطلقه عليهم العرب وهو المردة ، أى الثوار الخارجون على القانون [(٣)] ، إذ أنهم أبوا الإذعان للمسلمين وتراجعوا أمام تقـدم الجيوش الإسلامية — زمن الفتوحات الأولى — واسـتقروا فى جبال طوروس ، مفضلين

---

(١) أنظر ، س ٣٩ ، حاشية ٣ .

(٢) كانت بلاد الشام أيام السيادة البيزنطية خاضعة لنظام البنود أو الأقاليم الحربية . وعندما استولى المسلمون عليها أبقوا على هذا التنظيم الإدارى وأطلقو عليه اسم الاجناد (وهو جمع لكلمة جند) . فقد أقام المسلمون جندا فى كل إقليم من أقاليمها القديمة . وغدت هناك خمسة أجناد فى الشام زمن المسلمين وهى : جند دمشق ، وجند حمص ، وجند قنسرين ، وجند الأردن ، وجند فلسطين . انظر س ٣٩ .

(٣) Bury, op cit II, 312 ; Vasiliev, op cit, 285 .

خدمة الدولة البيزنطية وتنفيذ سياستها ضد المسلمين (١) . وكللت حركات المردة في الشام بالنجاح ، حيث كان اندفاعهم كالشوكة في جانب المسلمين وأدى إلى شل نشاطهم (٢) .

كذلك عانى الأسطول الإسلامي وبحارته كثيراً من المتاعب بسبب النار البحرية التي استعملت لأول مرة في ذلك الحصار . وينسب اختراع هذه النار إلى مهندس سوري يدعى كالينيكوس ، كان لاجئاً في القسطنطينية . وجاءت هذه النار مفاجأة غير سارة للمسلمين حيث أذاقتهم أشد أنواع التعذيب والتحريق ، واضطر الأسطول الإسلامي إلى العودة إلى قواعده في الشام . ولكن لم تكن هذه الحادثة نهاية المأساة ، إذ هبت عاصفة حطمت معظم السفن الإسلامية ، على حين طارد الأسطول البيزنطي السفن التي قدر لها النجاة من العاصفة وغنم معظمها (٣) .

وتوفي معاويه بعد ذلك بقليل سنة (٦٨٠ م / ٦٠ هـ) ، تاركا الدولة الإسلامية تجتاز مرحلة أخرى من الاضطراب الداخلي والنزاع على الخلافة نفسها بين أبنائه وبين كبار رجالات الدولة الإسلامية إذ ذاك . فقد ظلت الخلافة الأموية منذ عهد يزيد بن معاويه إلى أيام عبد الملك بن مروان (٦٨٠ — ٦٩٢ م/٦٠ — ٧٣ هـ) في شغل بالقضاء على المطالبين بالخلافة الذين كان الحسين بن علي وعبد الله بن الزبير من بعده أبرز رجالاتهم . فكانت تلك فترة ثمينة هيأت للدولة البيزنطية السكينة والتنعم بثمار انتصارها في الدفاع عن عاصمتها القسطنطينية . فأصبح إسم قنسطنطين الرابع ، الإمبراطور الذي دافع بنجاح عن عاصمته ، محط احترام القبائل الضاربة بالأراضي المحيطة بالدولة البيزنطية وأرسلت تخطب وده . كذلك رأت الدول الأخرى

---

(١) Bury, op cit II, 312 ; Hitti, op cit, 204, 205.

(٢) H. Lammens, Etudes sur le Rigne du Mo'awia 1er, 18—20

(٣) Vasiliev, op cit, 283, 284,
Bury, op cit II, 310. 311.

فى غرب أوربا أن روما الجديدة — أى القسطنطينية — لا تقل فى عظمتها وأهميتها عن روما الخالدة ، وأن روما الجديدة أصبحت الحصن الذى يدافع عن المسيحية وخط دفاعها الرئيسى . ومكنت حالة القلاقل التى سادت الدولة الإسلامية الإمبراطور قنسطنطين الرابع من شن إغارات على الشام نفسها ، قام بها أولئك المردة سكان اللكام فى شمال الشام . وبقى خطر المردة أو الجراجمة ، كما سموا أحياناً ، جاثماً حتى أيام الخليفة عبد الملك بن مروان (٦٨٥ — ٧٠٥ م / ٦٥ — ٨٦ هـ) . فقد عقد هذا الخليفة مع الإمبراطور البيزنطى جستنيان الثانى (٦٨٥ — ٦٩٥ م) معاهدة من شروطها وقف خطر الجراجمة ونقل غالبيتهم إلى بعض جهات إمبراطوريته الفقيرة فى سكانها ، مثل رومانيا وتراقيا . وبذلك حطم جستنيان الثانى هذا « الحائط النحاسى » على حد قول أحد المؤرخين ، والذى كان سداً منيعاً عرقل تيار الفتوحات الإسلامية عن التوغل فى آسيا الصغرى[١] .

على أن الدولة الإسلامية لم تكن تخلت بعد عن مطمحها فى الاستيلاء على القسطنطينية ، إذ اشتدت الحركة الذاتية فى الفتوحات الإسلامية الثانية فى عهد الوليد بن الملك (٧٠٥ — ٧١٥ م / ٨٦ — ٩٦ هـ) . وأخذ هذا الخليفة الذى اقترن عهده بفتوحات واسعة يعد العدة لمهاجمة القسطنطينية . وإذا كان الوليد قد توفى قبل خروج الحملة إلى القسطنطينية فقد كلأ خليفته سليمان (٧١٥ — ٧١٧ م / ٩٦ — ٩٩ هـ) المشروع بعناية وحماسة جعلته يعتقد أنه سليمان الذى قالت النبوءات عنه أنه فاتح القسطنطينية[٢] . ولعل هذا الأمل الذى داعب الخليفة سليمان يعتبر صدى لشعور المسلمين إذ ذاك ، وترديد للنبوءات التى سرت بينهم عن فتح

---

(١) Theophanes, Chronographia, 295, Bury, op cit II, 312,
البلاذرى : نفس المرجع ، ص ١٦٦ ، ١٦٧ .

(٢) الطبرى ، نفس المرجع ، ج ٨ ص ، ١١٣ ، Hitti, op cit, 203.

القسطنطينية ، وتطلعهم إلى دخول تلك العاصمة التى كان فى بقائها بعيدة عن أيديهم ضمان لبقاء الدولة البيزنطية ، ووقوفها موقف الند والقرين للدولة الإسلامية. وتجلت حماسة الخليفة ، والدولة الإسلامية من ورائه ، فى إعداد جيش وأسطول عظيمين وإعطاء مسلمة أخى الخليفة نفسه القيادة العليا لهذه الحملة . وفى ١٥ أغسطس سنة ٧١٧ م / ٩٨ هـ وقفت الجيوش البرية أمام أسوار القسطنطينية على حين وصل الأسطول الإسلامى بقيادة أمير البحر سليمان إلى مياه القسطنطينية فى أول سبتمبر سنة ٧١٧م / ٩٨ هـ [١].

كان إتمام حصار القسطنطينية وضمان الإستيلاء عليها رهنا بنجاح الأسطول الإسلامى فى التعاون مع القوات البرية فى إكمال الحصار وفرض حلقة منيعة من البحر . ولذا كان أول هدف أمام أمير البحر الإسلامى هو قطع المواصلات البحرية بين القسطنطينية وبين البحر الأسود شمالا وبينها وبين بحر مرمرة وبحر إيجه جنوبا. واستطاع سليمان أن ينفذ الشطر الأول من خطته فى قفل الباب الجنوبى . ولكن عندما انتهز فرصة هبوب رياح مواتية وبعث قسما من أسطوله لاحتلال مدخل البحر الأسود وقعت كارثة قلبت الخطط الإسلامية رأسا على عقب ؛ إذ كانت هذه المنطقة صعبة الملاحة بسبب انحدار تيار مائى من البحر الأسود عبر البسفور إلى بحر مرمرة ، وفضلا عن ذلك لا تستطيع السفن الصاعدة ضد هذا التيار الإعتماد على تسخير الرياح فى جانبها زمناً طويلا . وهذا ما حدث للسفن الإسلامية التى أبحرت فى تلك المنطقة لسد المدخل الشمالى ، إذ سارت ببطء شديد من جراء التيارات المائيه ، ثم لم تلبث الرياح أن غيرت إتجاهها ، فوقع الإضطراب بين السفن التى ارتطمت بعضها البعض وفقدت توازنها . وفى هذه الأثناء بعث البيزنطيون ، الذين كانوا يرقبون حركات المسلمين بعين ساهرة من عاصمتهم القسطنطينية ، سفناً

---

(١) الطبرى ، نفس المرجع ، ج ٨ ، ص ١١٧ ؛ Bury, op cit II, 401, 402

محملة بالنار الاغريقية أتمت حلقة الإضطراب والذعر التى سادت الأسطول الاسلامى وقضت على خطة أمير البحر سليمان(١). وينسب الفضل فى حسن الدفاع عن العاصمة البيزنطية إلى أحد أباطرتها وهو ليو الثالث الذى تولى العرش فى هذه الظروف الحرجة وأنقذ الدولة فى الوقت المناسب(٢). ولم يلبث الشتاء أن دهم المسلمين المحاصرين للقسطنطينية فعانوا من ذلك كثيراً إلى جانب ركود حركاتهم الحربية. وجاء هذا الشتاء قارصاً على غير العادة وقضى على كثير من الجند المسلمين الذين شاركهم هذا المصير أمير البحر سليمان نفسه. فكانت هذه الكوارث تجرى بالمسلمين وسكان العاصمة ينعمون آمنين تصلهم الأمداد والمؤن.

وبمطلع الربيع تجدد الأمل عند المسلمين، إذ وصلتهم نجدات بحرية جديدة من مصر وشمال إفريقية. لكن هذه السفن بدورها لم تستطع إنجاز الخطة التى رسمها أمير البحر المتوفى سليمان خشية أن تلقى نفس المصير الذى تردى فيه الأسطول الإسلامى من قبل. ولذا بقى حصار القسطنطينية منقوصاً غير كامل، مما جعل مهمة المسلمين عسيرة شاقة. وزاد هذه الحالة سوءاً أن الجيش الإسلامى الذى عهد إليه حصار شواطىء البسفور وبحر مرمرة لقى هزيمة فادحة على أيدى الكمائن البيزنطية التى كانت تنظيماً حربياً جديداً عانى منه المسلمون متاعب جمة. كذلك استعانت الدولة البيزنطية بالبلغار الذين فاجأوا القوات الإسلامية من الشمال وأنزلوا بها هزيمة فادحة. وفى ١٥ أغسطس سنة ٧١٨ م / ٩٩ هـ بعد حصار دام اثنى عشر شهراً أمر

---

(١) Bury, op cit II, 402 , Vasiliev, op cit, 314.

(٢) كان الإمبراطور ليو يشغل أولا منصب حاكم أناتوليا (أى البند الشرقى من أقاليم آسيا الصغرى). وحاول المسلمون إستمالته إلى جانبهم إبان زحفهم على القسطنطينية، ولكنه إستغل هذه الفرصة وصحب الجيوش الإسلامية إلى أسوار العاصمة حيث عزم على تنفيذ ما بيته فى نفسه من تحقيق مآربه الخاصة. فتمكن من الدخول إلى القسطنطينية، وانتهز فرصة اضطراب أحوالها وتقلد أعنة الإمبراطورية. ولما كان خبيرا بأساليب العرب ومطامحهم، فقد تمكن من توجيه دفة الدفاع عن العاصمة بشكل ضمن له الفوز.

الخليفة الأموى الجديد عمر بن عبد العزيز الجيوش الإسلامية برفع الحصار والعودة إلى الشام بعد أن أصبح ألا طائل من متابعة القتال (١) .

ويعتبر فشل المسلمين فى الإستيلاء على القسطنطينية هـــذه المرة حدثاً من الأحداث الكبرى فى تاريخ العصور الوسطى . فمن الناحية الإسلامية هزت تلك الهزيمة محور الحركات الحربية الإسلامية ، إذ كانت الجيوش الإسلامية تلقى فيضاً منهمراً من الأمداد والنجدات والمؤن من دمشق ، قاعدة الدولة الإسلامية ، التى امتازت عن غيرها من الحواضر الإسلامية بقربها من القسطنطينية . ورغماً عن ذلك استعصى على تلك الجيوش الإستيلاء على إحدى عواصم العالم القديم ووريثه عظمة الدولة الرومانيــة الأولى . ومن ثم تغيرت خطط المسلمين إزاء الدولة البيزنطية ، وغدت أعمالهم الحربية المقبلة خلوا من الأطماع الواسعة التى امتلأت بها حركة الفتوح الإسلامية زمن الأمويين . ولو انتصر المسلمون فى معركة القسطنطينية لانتشر الإسلام مبكراً فى شرق أوربا وغدت المساجد وأصوات المؤذنين تحتل أماكن الكنائس وقرع الأجراس ليس فى ممالك أوربا الشرقية فحسب بل فى سائر أنحاء روسيا التى تلقت نظمها وتعاليمها الدينية عن الدولة البيزنطية .

أما الدولة البيزنطية فكتب لها البقاء بخروجها ظافرة من دفاعها عن عاصمتها ، وظلت محتفظة بمكانتها وهيبتها فى أعين الدول المسيحية التى قامت فى غرب أوربا . كذلك بقيت هذه الدولة تتابع رسالتها كزعيمة للعالم المسيحى وراعية شئونه . غير أن النتائج العامة لمعركة القسطنطينية جعلت كلا من الدولة الإسلامية والدولة البيزنطية تتطلع إحداها إلى الأخرى بمنظار جديد قوامه أن الدولتين لابد وأن يعيشا جنباً إلى جنب لا غنى لإحداها عن الأخرى فى التعاون على قضاء مصالحهما العامة ، وأن الجشع فى الاستئثار ببعض الفوائد المادية مثار لحروب لا جدوى من ورائها .

---

(١) ابن الأثير : نفس المرجع ، ج ٥ ، ص ١٨ ،

Cidreni, Annales, 371,
Bury, op cit II, 403,404.

الفصل الثالث

ميزان القوة السياسية بين البيزنطيين والمسلمين

مظاهر التطور فى العلاقات الإسلامية البيزنطية

ركود المشروعات التوسيعية (سقوط الخلافة الأموية — الحركة اللاإيقونية)

يعتبر ارتداد المسلمين عن القسطنطينية سنة ٧١٨ م خط تقسيم واضح فى قصة العلاقات الإسلامية البيزنطية ، ونقطة تحول فى نظم الدولتين الداخلية ، تجلت آثارها فى المجرى العام لهذه العلاقات . ذلك أن جهود الدولتين انصرفت إلى معالجة المشاكل الداخلية التى انبثق خطرها بعد انتهاء واقعة القسطنطينية ، وجاءت فى بعض مظاهرها نتاجاً لما تخلف عن هذه الواقعة من آثار وأحداث . فانغمست الدولة الإسلامية فى غمار حركة سرية ترمى إلى القضاء على الخلافة الأموية صاحبة السلطان والكلمة العليا فى الدولة . وأثبت التاريخ أن هذه الحركة التى نبتت بذورها بعد معركة القسطنطينية كانت مؤذنا بانتهاء عصر الشام الزاهر ومجد دمشق القائم على تحدى القسطنطينية وإزهاق أراضيها ، وبشيرا بقيام الدولة العباسية التى عملت على اتخاذ عاصمة لها — بغداد — تباعد بينها وبين عاصمة البيزنطيين ، واختلفت فى أحلامها ومطامعها عن أهداف دمشق وعزمها على السيطرة على القسطنطينية .

فبعد وفاة الخليفة الأموى هشام بن عبد الملك (٧٤٣ م / ١٢٥ هـ) تربع على عرش الخلافة أشخاص ضعاف الهمة والعزيمة ، تخلوا عن تقاليدهم العربية القائمة

على الجهاد والوقوف بالمرصاد لحركات الطامعين فى مركزها واقتناص الفرص لتوسيع رقعة أراضيها على حساب البيزنطيين ما استطاعت إلى ذلك سبيلا . ولكن على النقيض من ذلك سقط أولئك الخلفاء صرعى للغوانى والشراب ، وغدوا عبيداً للملاذ والشهوات ونماذج لانحطاط الخلق والسفه . ولذلك لم يكن مستغرباً أن تنطلق من معاقلها العوامل الهدامة الكامنة فى جسم الدولة الأموية ، وتندفع للتشفى من سادة الدولة التى آن أفول نجمها . فكانت أولى هذه العوامل استيقاظ روح العصبية والنخوة القبلية بين قبائل عرب الشمال والجنوب تلك الروح التى استعرت فى جهات عديدة من أرض الدولة الإسلامية ، وغدت بقاع كثيرة من الدولة مسرحاً للاصطدام بين بعض القبائل وبعض ، على ضفاف السند وشوطىء صقلية ، وفى أرض خرسان وفى منطقة دمشق نفسها . وانحطت هيبة الخلفاء الأمويين لمناصرتهم هذا المعسكر القبلى أو ذاك ، وأضحوا ممثلين للفروع القبلية المختلفة على حسب أنسابهم لا خلفاء للدولة الإسلامية الكبرى . ومما ضاعف فى خطورة هذه الإنقسامات أن المسلمين من غير العرب ولا سيما مسلمى فارس كانوا متذمرين من الأمويين الذين نظروا إلى أولئك المسلمين نظرة أقل من نظرتهم للمسلم العربى ، فاعتبرهم الأمويون موالى لا يصح مساواتهم بالمسلمين العرب فى النواحى الإقتصادية والإجتماعية . وبذلك كان الجو مهيأ لهؤلاء الموالى لضرب الأمويين الضربة القاضية لو تهيأت لهم قيادة منظمة ، وفى الحقيقة كانت هذه القيادة تسرع الخطى لتتقدم الصفوف ، إذ وجدت بذور الشيعة أنصار سيدنا على ، الحانقين على الأمويين لقتلهم أعظم رجالاتهم ، فى فارس ، ولا سيما خراسان موطن الموالى ، تربة صالحة للنمو والازدهار . على أن شمس الأمويين آذانت بالأفول عند ما استطاع العباسيون أن يدمجوا دعواهم مع العلويين تحت ستار المطالبة بحقوق آل البيت الهاشمى باعتبارهم أعضاء هذا الفرع الهاشمى من قبيلة قريش ، فكان الشيعة يعتقدون أن حقوق البيت

الهاشمي تنحصر أول الأمر فى سلالة على بن أبى طالب .

على أن العباسيين عرفوا كيف ينفردون بالموقف ، إذ سرعان ما استغلوا حالة الإنقسامات فى الدولة الأموية وانتشار التذمر بين الموالى ، فادعوا لأنفسهم حق الدفاع عنهم وعن إعادة الدين الحق الذى انحرف به الأمويون عن جادة الصواب . فأصبح العباسيون زعماء حركة المعارضة للبيت الأموى والمنظمين لها ، حتى نجحوا أخيراً فى إشعال نيرانها فى خراسان . ففى رمضان سنة ١٢٨ هـ / يونيو سنة ٧٤٧م نشر أبو مسلم عامل العباسيين فى خراسان العلم الأسود رمز لواء الرسول ، والذى أصبح إذ ذاك شعار العباسيين ، ودخل « مرو » عاصمة خراسان . ثم تابعت القوات العباسية سيرها إلى العراق تحت قيادة عبد الله بن على عم السفاح ، أول الخلفاء العباسيين ، وقضت هناك فى معركة الزاب (أحد فروع دجلة) سنة ٧٥٠ م ١٣٢ هـ على جند الأمويين . وتمكنت جيوش العباسيين من إتمام ذلك النصر بالقبض على مروان الثانى آخر الخلفاء الأمويين فى بلدة « بوصير » بالقطر المصرى وقتله[1] .

وإن سقوط الأمويين يعد حدثاً هاماً فى التاريخ الإسلامى ، فلم يكن معناه زوال أسرة وقيام أسرة غيرها فى الحكم فحسب ، وإنما زال بسقوط الأمويين أيضاً عظمة إقليم الشام الذى كان يحتل مركزاً استراتيجياً هاماً فى الدولة الإسلامية ، أثر

(١) لقد دل العباسيون على دهاء وعلو كعب فى السياسة عندما استطاعوا أن يستخدموا العلويين ، وما هم عليه من سلامة الطوية حتى أعلن أبو العباس السفاح أول خليفة عباسى ، وعندئذ ثاب العلويون إلى رشدهم ، ولم يستطيعوا مناهضة البيت العباسى ، ولا سيما أن أبا العباس أخذ يبحث عن عاصمة له فى مقر آمن بعيد عن مناطق التشيع للعلويين ، فاتخذ الهاشمية « نسبة إلى هاشم أحد أجداده » قرب الأنبار عاصمة له . ولكن خليفته أبا جعفر المنصور وفق إلى اختيار موقع بغداد التى أضحت عاصمة العباسيين حتى زوال ملكهم . ومن بغداد استطاع أبو جعفر المنصور أن يقضى على حركات العلويين الذين نظروا إلى العباسيين على أنهم مغتصبون لحقهم فى الخلافة . وهذه الحركة العلوية هى التى تزعمها « محمد النفس الذكية » وأخوه « إبراهيم » ولكن لم يكتب لها الفوز لأن العباسيين كانوا قد دعموا سلطانهم على أسس متينة .

كثيراً فى توجيه النشاط الحربى الإسلامى . وبقيام العباسيين فى الخلافة انتقل مركز الإسلام إلى الشرق ، حيث أسسوا عاصمتهم الجديدة ، بغداد ، على ضفاف دجلة ، وأخذوا يؤقلمون سياستهم ، ولا سيما إزاء البيزنطيين ، على أساس هذا الوضع الجديد . فكان بعد الشقة بين بغداد والقسطنطينية مدعاة لرسم سياسة حربية جديدة اختلفت عن سياسة دمشق[١] ، ولم تدخل دور التنفيذ الجدى إلا زمن الخليفة هارون الرشيد .

وظلت الدولة البيزنطية إلى عهد هذا الخليفة العباسى كذلك عاجزة عن القيام برد فعل حربى على نطاق واسع ، واستغلال فترة الانتقال بين الأمويين والعباسيين واختلال أحوال الدولة الإسلامية إبانها لتستعيد ما ضاع من أراضيها . فقد شغلت الدولة البيزنطية بحركة جدل دينى ساعد على ظهورها نجاح البيزنطيين فى الدفاع عن عاصمتهم القسطنطينية ضد هجوم المسلمين . ذلك أن الامبراطور ليو الثالث الإيسورى منقذ القسطنطينية شن حملة شعواء على عبادة الإيقونات ، أى الصور المقدسة والتماثيل التى تصور العذراء والقديسين . وتعرف سياسة هذا الإمبراطور فى التاريخ البيزنطى باسم الحركة اللاإيقونية ، أى الحركة ضد الصور والتماثيل المقدسة وعبادتها ، وإصلاح الحالة الدينية وتطهيرها من الماديات[٢] .

على أن أصول هذه الحركة الدينية التى انفجر بركانها بعد ارتداد المسلمين عن القسطنطينية ترجع إلى أشباه تلك الحوادث التى أحاطت بالدولة البيزنطية وعاصمتها ، إذ نجت الدولة من أزمات وكوارث حربية نجاة أشبه بالمعجزات ، مما حمل الناس وهم على جانب عظيم من التدين فى تلك العصور الوسطى الأولى على الاعتقاد بأن قوى سماوية هى التى أنقذت الدولة من هذه الأخطار المتكررة . فالحرب الفارسية

---

(١) T. Laurent, L'Armenie Entre Byzance et L'Islam, 221,222.

(٢) Bury, op cit, 428,429.

التى حطت من سمعة الدولة البيزنطية وألحقت بها كثيراً من الأضرار ، انتهت بانتصارات بيزنطية رائعة ، هدد بها هرقل المدائن نفسها عاصمة الفرس ، وأعاد صليب الصلبوت إلى حوزة البيزنطيين . كذلك لم تستطع الجيوش الإسلامية ، رغم محاولاتها العديدة ونجاحها فى التهام بقاع شاسعة من ممتلكات الدولة البيزنطية أن تستولى على القسطنطينية نفسها . وكان ذلك لمناعة العاصمة البيزنطية واستماتة الناس فى الدفاع عنها ، ولكن الناس لم يعتقدوا فى مناعة الأسوار وشجاعة الرجال ، وإنما نسبوا الفضل فى ذلك إلى المعجزات والبركات . ولما كانت الصور والإيقونات المقدسة عنصراً هاماً فى الحياة الدينية فى الدولة البيزنطية ، فقد زاد اعتقاد الناس فى تلك الصور وفى بركتها ، وأنها هى التى أنقذت العاصمة مما حاق بها من أخطار . ولذا غدت قبور القديسين وصورهم مزار الناس ، ومقصد طلاب الحاجات .

وفى الحقيقة كانت الإيقونات عاملاً هاماً فى الديانة المسيحية ، إذ اعتمدت المسيحية منذ قيامها فى تزيين دورها وكنائسها على الصور والإيقونات المقدسة ، واتخذتها وسيلة لتقريب قواعد الدين وتاريخ المسيحية لعقول الناس . فكانت صور المسيح والعذراء والقديسين شيئاً عادياً فى الكنائس والأديرة ، وعلى الأمتعة والملابس[(١)] ، كما كان أمراً عادياً سجود بعض الناس أمام تلك الإيقونات المقدسة وإيقاد الشموع ووضع باقات الزهور عليها ، أو تقديم القرابين المختلفة من الذهب والفضة عند أقدامها .

وإذا كانت هناك عوامل عده غير الوازع الدينى والإغراق فى التقوى شجعت على تقديس الصور والإيقونات بشكل حمل الأمبراطور ليو على مناهضتها ، فإن عوامل أخرى بدورها دفعت الإمبراطور على السير قدما فى حركته اللاإيقونية . فقد رأى أن الأديرة والبيوت الدينية أهم معاقل الإيقونية ، والرهبان والديارون

---

(١) Vasiliev, op cit, 339,340.

ودعاتها وسائل نشرها ، وأن هذه البيوت الدينية أضحت واسعة الانتشار فى أرجاء الدولة البيزنطية فى القرن الثامن الميلادى ، ويتمتع أهلها بامتيازات وإعفاءات مالية حتى أثر كل ذلك فى خزانة الدولة ، فضلا عما أحدثته كثرة الرهبان والديارين من أضرار بحركة التجنيد والشئون الزراعية فى الدولة(١) . لذلك اتجهت سياسة الإمبراطور ليو الثالث الإيسورى وخلفائه من بعده إلى الأديرة والرهبان لوضع حد لحركة عبادة الإيقونات وما نجم عنها من متاعب للدولة .

وفى سنة ٧٢٦ م أصدر الإمبراطور ليو الثالث مرسوماً يطلب فيه من القائمين على شئون البيوت الدينية والأديرة رفع الصور المقدسة إلى أماكن عالية حتى يقلع الناس تدريجياً عن الوقوف والركوع أمامها خاشعين مبتهلين(٢) . وأدى هذا المرسوم المعتدل إلى فتنة شديدة بالقسطنطينية ، مما يدل على أن الإيقونات كانت تحتل ركناً أساسياً من اعتقادات النـاس . غير أن الإمبراطور المعتد بنفسه ، وصاحب اليد الطولى فى إنقاذ العاصمة من حصار المسلمين ، رأى عدم التخاذل أمام ثورة شعبية لا تقوم على أساس . وإنما زادته الفتنة عزما ، إذ أعقب مرسومه الأول بمرسـوم آخر أزيلت بمقتضاه التماثيل والصـور الموجودة فى الـكنائس وغيرها .(٣)

على أن تطبيق هذا المرسوم أثار ضجة عالية فى القسطنطينية امتدت آثارها إلى خارج العاصمة ، وكان ذلك إيذاناً باندلاع الحركة اللاإيقونية التى استنفدت قوى الدولة البيزنطية معظم القرن الثامن الميلادى ، وتفرعت عنها مشاكل لم تـكن فى الحسبان ، إذ ناهض معظم رجال الدين سياسة الإمبراطور متذرعين بأن بقاء الصور والتماثيل وسـيلة لتقريب الدين إلى أذهان الناس . وتطور الموقف

(1) Vasiliev, op cit, 340,341.
(2) I bid, 342.
(3) I bid, 342, 343.

فيما بين الأمبراطور ورجال الدين إلى نضال بين الدولة والكنيسة ، وانضمت البابوية — التى رأت رأى رجال الدين فى الصور والتماثيل المقدسة — إلى الحركة المناهضة للسياسة اللاإيقونية مما حمل الأمبراطورية البيزنطية على مماداة البابوية . وبذلك تطورت المسألة كلها أواخر عهد الأمبراطور ليو الثالث من مسألة دينية بحتة إلى مسألة دينية غلبت عليها النزعة السياسـية . فأجاب الأمبراطور على عداء البابوية لحركته بفصل الممتلكات البيزنطية فى قلورية وصقلية وإلليريا عن سلطان البابوية المهيمن عليها إذ ذاك ، ووضعها تحت سيطرة بطريقية القسطنطينية . وبذلك كان على ليو الثالث وخلفائه من بعده مواجهة قوى داخلية وخارجية . ولكن سار الأمبراطور قنسطنطين الخامس بالحركة اللاإيقونية قدماً مكملا ما تم فى عهد أبيه ليو الثالث ، دون أن يأبه بما ناله من ألقاب السخرية مثل الأصطبلى (Caballinus) التى أغدقها عليه العامة الذين رغبوا فى تشويه سمعته والحط من قوانينه اللاإيقونية الصارخة[١] .

وبذلك ظل أباطرة الدولة البيزنطية فى شغل بالحركة اللاإيقونية حتى توفى ليو الرابع بن قنسطنطين الخامس ، وخلفه ابنه القاصر قنسطنطين السادس وأمه الوصية الأمبراطورة أيرين . فى تلك الفترة (٧٧٦ — ٧٩٧ م) تجلى مبلغ انغماس الدولة البيزنطية فى المشكلة الدينية واضطرار الدولة إلى الدفاع عن نفسها بشراء السلم عن طريق المال وتحصين الحدود من إغارات هارون الرشيد الذى تولى مقاليد الحكم حينئذ (٧٨٦م / ١٧٠ هـ) فى الدولة الإسلامية[٢] .

(1) Vasiliev, op cit, 343,348.
Bury, op cit, 432,460,461.
(2) Bury, op cit, 493.

تحصين العواصم والثغور

اتسمت الفترة التى انصرف فيها مجهود الدولتين الإسلامية والبيزنطية إلى حل مشاكلهما الداخلية بوقوع بعض المصادمات الحربية على منطقة الحدود بين الدولتين ، اتخذت فى كثير من الأحيان طابع الأغارات المحدودة الأثر . ولم يكن منتظراً من الدولتين الإسلامية والبيزنطية أن تقوما بأكثر من ذلك النشاط فى ميدان العمليات الحربية ، ولا سيما أن مركز القوة الإسلامية انتقل إلى بغداد وأضحى بعيداً عن عاصمة الأمبراطورية البيزنطية . ولذا كانت الإغارات التى شنها الطرفان عندما سمحت لهما الظروف تهدف إلى السلب والنهب ، وتخريب ما تستطيع تخريبه من المدن والحصون دون أن تترامى بها الآمال إلى القيام بمشروعات حربية واسعة ، شبيهة بما أعدته الخلافة الأموية . فكان من الطبيعى أن يهتم المسلمون والبيزنطيون بتحصين مناطق الحدود بينهما للحد من نشاط الأغارات .

وكان خط الحدود يتكون من سلسلتى جبال طوروس بمعاقلها وحصونها ذات المكانة الحربية الاستراتيجية الممتازة لوقوعها عند تقاطع الطرق التى تخترق تلك السلسلة الجبلية ، ولتحكمها كذلك فى الممرات الجبلية الضيقة . وحرص كل من المسلمين والبيزنطيين على السيطرة على تلك الحصون والمعابر والممرات الهامة للهجوم أو الدفاع . فوضع البيزنطيون منطقة الأطراف التى واجهت أراضى الدولة الإسلامية والتى سميت باسم منطقة الممرات أو الثغور (Kleisurai) تحت إشراف رجال حربيين لقبوا بحكام الثغور (Kleisuriarchs)[1] . ولما ازدادت حدة الأغارات الإسلامية فى القرن الثامن الميلادى دعموا تلك المنطقة بحاميات أطلق

---

(1) Byzantium, 299.

يلاحظ أن المراجع العربية عربت كلمة Kleisuriarch إلى كيلرج .

عليها حراس الحدود (Akritoi) ، ومهمتها مساعدة حكام منطقة الثغور[١] . وكان هذا الخط الدفاعى يسير على امتداد جبال طوروس من الفرات الأعلى إلى حدود قيلقيا ، وينقسم قسمين : الأول يمتد من ملطية إلى عين زربة وكان مخصصاً لدفع الإغارات الإسلامية الآتية من شمال العراق . وأهم حصون ذلك القسم ملطية التى تقع عند ملتقى الطرق الرئيسية المؤدية من سبيسطة (Sebastea) أو سيواس (Sivas) وقيصرية إلى أرمينيا وشمالى العراق . ويمر هذا الطريق من ملطية إلى مرعش (Germanica) عبر جبال طورس بقلعة زبطرة (Zapetra) . أما القسم الثانى من الخط الدفاعى البيزنطى فكان يواجه الشام ومهمته الدفاع عن الأراضى البيزنطية ضد الحملات الشامية[٢] .

وقامت الدولة الإسلامية زمن العباسيين بمثل ما قامت به الدولة البيزنطية لتحصين حدودها . فأقبل خلفاؤها على ترميم المعاقل والحصون فى منطقة الحدود المطلة على الأراضى البيزنطية . ولكن المعروف أن الخليفة هارون الرشيد هو صاحب الخطوة الهامة فى تأمين الحدود الإسلامية . فقد أسس إقليما مشابهاً لإقليم الأطراف البيزنطى على حدود البلاد الإسلامية الشمالية ، وسماه أقليم العواصم والثغور ، وعاصمته أنطاكية ، وجعل عليه ابنه المعتصم . وكان الإقليم الجديد قسما من أرض قنسرين فصله هارون عنها تماماً ، وشمل حلب ومنبج وأنطاكية غرباً إلى الساحل[٣] . على أنه يقصد بلفظ العواصم سلسلة الحصون الداخلية الجنوبية بطرقها الحربية ، لأنها تعصم الحدود وتعينها على صد غارات البيزنطيين ، وفى نفس

---

(١) Byzantium, 299.

(٢) Bury, Histoy of The Eastern Empire, 244,246,
Runciman, The Emperor Romanus Lecapenus, 121,122,
Anderson, The Road System of Eastern Asia Minor, 34.

(٣) ياقوت : معجم البلدان ، ج ٣ ، ص ١٦ ؛ ج ٦ ، ص ٢٣٧

الوقت للتمييز بينها وبين الحصون الشمالية الخارجة الملاصقة للحدود البيزنطية [١]، وهى الحصون التى سميت بإقليم الثغور لمواجهتهـا للثغرات أو المنافذ التى فى أرض العدو . وكان إقليم الثغور ينقسم قسمين : أحدهما فى الشمال الشرقى ويسمى بالثغور الجزرية التى تدافع عن شمال العراق ، ومن حصونها الهامة زبطرة وحصن منصور والحدث ؛ والقسم الثانى يسمى بالثغور الشامية فى الجنوب الغربى حيث يقترب من ساحـــل خليج الإسكندرونة ، ومن أهم حصون ذلك القسم المصيصة وأدنة وطرسوس [٢] .

وأهم الممرات فى هذه المنطقة الممر القديم المعروف باسم أبواب قليقية (Cilician Gates) ، ثم الممر الذى يسير فيه الطريق من مرعش إلى البستان أو الأبلستين (Arabissos) . فالطريق الأول ترجع شهرته إلى العصور القديمة والعصور الوسطى كذلك ، ويبلغ طوله سبعة أميال حيث يبدأ من سفح هضبة آسيا الصغرى جنوبى طوانه (Tyana) ، ويمتد إلى حيث يطل سفح جبال طوروس على سهل قبادوقيا .

---

(١) كانت حالة الحصون والمعاقل الأسلامية تدعو إلى الرثاء فى عهد الخليفة المهدى العباسى . فنى سنة ١٦٢ هـ غزا الحسن بن قحطبة الطائى بلاد الدولة البيزنطية ونزل فى مرج طرسوس وشاهد خراب المدينة ، وقلة سكانها . فقدم تقريرا بذلك إلى الخليفة المهدى بعد عودته من الغزو ، وأشار بإعادة بنائها وترميمها وشحنها بالمقاتلة لما فى ذلك من حماية أرض الإسلام وزجر العدو عن شن الإغارات . فأمر المهدى ببناء طرسوس على أن يبدأ بمدينة الحدث . فلما كانت سنة ١٧١ هـ ترامت الأنباء إلى الخليفة هارون الرشيد أن البيزنطيين ينوون النية للاستيلاء على طرسوس ، فأسرع بتنفيذ وصية الخليفة المهدي وبعث هرثمة بن أعين فى نفس السنة لشن غارة على أرض العدو وتعمير طرسوس . وقام بمهمة البناء والتعمير فرج بن سليم الخادم ، الذى بعث إلى طرسوس ، بعد تحصينها ، ثلاثة آلاف رجل من أهل خراسان ، ثم أتبعهم بألفى رجل من أهل المصيصة وألف من أهل أنطاكية ، وزاد فى أعطياتهم . (أنظر البلاذرى : فتوح البلدان — مصر ١٩٠٠ م — ص ١٧٦) .

(٢) G. Le Strange, The lands of the Eastern Caliphate, 128.

وعند أقصى الطرف الشمالى للممر تقع قمة منعزلة شديدة الارتفاع ، تبلغ حوالى ألف قدم تقريباً وتتحكم فى منطقة واسعة من سهول قبادوقيا الجنوبية وسفوح طوروس الشمالية . وعلى هذه القمة المنيعة بنيت قلعة اللؤلؤة ، التى ظلت مضرب الأمثال فى المناعة ، وتبادلها المسلمون والبيزنطيون بوسائل الدس والخيانة مرات عديدة . وكانت تلك القلعة مفتاح الممر المعروف بأبواب قليقية . فإذا كانت فى أيدى الروم لم يتمكن الجيش الإسلامى من غزو قبادوقيا ، وإذا انتقلت إلى أيدى المسلمين لم يجرؤ جيش بيزنطى على المخاطرة لاجتياز ذلك الممر . ومما أضاف إلى أهمية قلعة اللؤلؤة أن الطريق الشمالى المؤدى إلى طوانة والطريق الغربى إلى هرقلة (Heraclea) يتقابلان قربها مما جعلها تتحكم فى عدة ممرات هامة .

وتصف المراجع ذلك الممر بأنه ينحنى صوب الشرق بعد بدايته ، ثم يتجه جنوبا حيث يطل على وادى البذندون (Podandos) البيضاوى الشكل ، ويطلق عليه اسم معسكر قورش (Camp of Cyrus) لأن قورش الصغير عسكر فيه أثناء سيره لمحاربة أخيه ، ثم يسير الممر فى اتجاه مرتفع عبر وديان ضيقة شديدة الانحدار حتى يصل إلى نهايته . وعلى الجانب الشرقى من طرف الممر قلعة حصينة مبنية من الحجر الأسود على قمة تل مرتفع وتتحكم فى مدخله ويطلق عليها اسم حصن الصقالبة (أو قلعة السلاف) . ومن قمة ذلك التل المعروف الآن باسم تكير (Tekir) يؤدى ممر منزلق طوله ثلاثة أميال تقريباً إلى منحنى صخرى يعرف باسم أبواب قليقية ، وهو الاسم الذى أطلق على الممر بأجمعه . وطول ذلك الممر المنزلق مائة ياردة تقريبا ، وعرضه بضع ياردات فقط ، وتحيط به جدران عالية فى ارتفاع عمودى ، مما جعل القلعة المعروفة باسم حصن الصقالبة تستطيع بحاميتها الصغيرة إيقاف جيش كبير العدد[١] .

---

(1) Bury, The Eastern Empire, 245,246.

وأقام البيزنطيون من قلعة اللؤلؤة (عندما كانت فى أيديهم — أو بالقرب منها فى حالة وقوعها فى يد العرب) عبر آسيا الصغرى إلى القسطنطينية سلسلة من المنارات ، استخدمت فى إرسال الأنباء بواسطة إشعال النار . فكانت النار التى توقد على تل حصن اللؤلؤة أو على مقربة منها ، يراها الحراس القيمون على قمة جبل أرجايوس (Argaios) المطل على بحيرة تاتا (Tatta) ، وهذا الجبل يختلف عن جبل أرجايوس المطل على قيصرية . ومن جبل أرجايوس المطل على بحيرة تاتا تنقل الأشارة إلى تل إزاموس (Isamos) ، ومنه إلى مرتفع أيجيلوس (Aigilos) ثم إلى معسكر دوراليوم الكبير ، الذى يقع على تمبريس (Tembris) على بعد ثلاثين ميلا من أيجيلوس ، ثم تحمل الأشارة إلى محطة ماماس (Mamas) ، ثم إلى موكيلوس (Mokilos) ، حيث تعبر الأشارة خليج بيثينيا (Bythynian Gulf) إلى آخر منارة على جبل القديس أوكزينتيوس (Auxentios) . ومن هذه المنارة تنقل الأشارة إلى حراس القصر الكبير الذين يوقدون منارته دلالة على وصول برقية من طرف آسيا الصغرى(١) .

وهذه الوسيلة من المواصلات ترجع إلى العصور القديمة حيث استخدمها الرومان فى جهات عديدة من إمبراطوريتهم . على أن استخدام البيزنطيين لتلك الوسيلة فى آسيا الصغرى فى القرن الثامن الميلادى اقتصر على إرسال إشارة واحدة تحمل نبأ قيام إغارة إسلامية . ولكن سرعان ما أدخل ليو الرياضى ، أحد العلماء البيزنطيين المتضلعين فى علم الهندسة فى عهد الأمبراطور ثيوفيل (٨٢٩—٨٤٢م) تحسيناً جديداً على ذلك النظام ، واستخدمه الأمبراطور ثيوفيل فى طرق البريد بآسيا الصغرى . وهذا التحسين الجديد يتلخص فى إعداد ساعتين تسيران فى زمن واحد ، توضع إحداهما فى القصر الأمبراطورى والأخرى فى القلعة البيزنطية القريبة

(1) Bury, op cit, 245,246.

من حدود قليقيا ، ثم تتفق السلطتان المقيمتان فى القصر والقلعة على اثنتى عشرة حادثة ، ويرمزون لكل حادثة منها بساعة معينة من الساعات الاثنتى عشرة ، وتكتب كل حادثة أمام العدد المخصص لها على واجهة الساعة . فإذا حدث أن أحس حاكم قلعة اللؤلؤة فى الساعة الرابعة مثلا أن العدو على أهبة عبور الحدود ، انتظر إلى الساعة السادسة حتى يتبين حركات العدو ثم يشعل النار ، وعندما تنقل تلك الأشارة عبر المحطات السالفة الذكر حتى تصل إلى القصر الأمبراطورى ينظر الحراس إلى الساعة ، فيعلمون متى أشعلت النار فى قلعة اللؤلؤة ، ويقفون بذلك على معنى هذه الأشارة ، أى أن العدو أخذ يحرك ركابه للهجوم ؛ والأشارة التى يعرف حراس القصر أنها أشعلت فى الساعة السابعة تدل على أن الحرب وقعت بين الطرفين ، وتلك التى أشعلت فى الساعة الثامنة تدل على أن العدو أعمل الحرائق وهكذا[١] ...

وكانت الحملات البيزنطية على العراق تتبع غالباً طريق البستان — مرعش حيث تجتمع قوات البنود الأسيوية الشرقية مع قوات البنود الغربية عند قيصرية ، ومن ثم تسير فى ذلك الطريق مخترقة جبال طورس إلى البستان عبر ممر كورو — خاى (Kuru—Chai)[٢] .

واستخدم المسلمون فى حملاتهم واتصالاتهم بآسيا الصغرى نفس الممرين الرئيسيين اللذين عرفهما البيزنطيون . فأطلقوا على الممر الذى يصل مرعش بالبستان درب الحدث . وترجع هذه التسمية إلى ما لقيه العرب عند ذلك الممر من هزائم متكررة زمن الفتوحات الإسلامية الأولى وكان لها حدث سيء[٣] . أما الممر الثانى فكان الطريق الذى يسمى أبواب قليقية ، وكان مستخدماً للبريد والسفارات المتبادلة

(1) Bury, op cit, 247, 248.
(2) Ibid, 248.
(3) Le Strange, op cit, 128.

بين الخلفاء والأباطرة ، وربما كان هذا الاستخدام السلمى هو الذى جعل المسلمين يطلقون على الجزء الجنوبى من ذلك المر اسم درب السلامة (١) .

وكانت الدول الإسلامية تنفق بسخاء على أقاليم الثغور ، إذ كان خراجها قليلا لا يقوم بأود الدفاع عنها . فكان يجبى من الثغور الشامية بما فيها طرسوس وأدنه ألف دينار ، كانت تنفق جميعها على المرافق العامة لتلك المناطق ، من دفع أجور الجواسيس والبريد ومسالح الدروب الجبلية وتقوية مخاضات (٢) الأنهر هناك . أما نفقات الغزوات التى كانت تشن من هذه المناطق صيفاً وشتاء ، فكانت الدولة الإسلامية تتكفل بها وبلغت أحياناً مائتى ألف أوثلثمائة ألف دينار (٣) . أما ثغور الجزيرة بما فيها مرعش والحدث وملطية وبعض بلاد أخرى فكان خراجها سبعين ألف دينار ينفق منها أربعون ألفاً على مرافقها العامة ويخصص الباقى وقدره ثلاثون ألفاً لدفع أعطيات الجند ، التى كانت الدولة تساهم فيها سنوياً فوق المبلغ السالف الذكر بمقدار مائة وعشرين ألفاً أو مائة وسبعين ألف دينار . هذا عدا النفقات على الحملات التى كانت تتكفل بها الدولة ، وكانت تتراوح بين الكثرة والقلة حسب أهمية الغزوة وعدد المشتركين فيها (٤) .

وهكذا كانت الدولتان الإسلامية والبيزنطية تعنيان كل العناية بتقوية مناطق الحدود بينهما ، والإنفاق عليها بسخاء لتكون دائماً على أهبة الاستعداد والدفاع ولعل الأموال الطائلة التى أنفقتها الدولة الإسلامية على مناطق الثغور تشير جلياً إلى مدى حرصها على حمل الناس على الإقامة فى تلك الجهات وتعميرها .

---

(١) Le Strange, op cit, 134.

(٢) المخاضات هى الأماكن القليلة الغور فى الأنهار ويمكن العبور منها بسهولة .

(٣) قدامه بن جعفر ، نبذة من كتاب الخراج ، ص ٢٥٣ .

(٤) قدامه بن جعفر ، نفس المرجع ، ص ٢٥٤ .

النشاط البرى والبحرى

الصوائف والشواتى البرية

تعتبر قصة العلاقات بين المسلمين والبيزنطيين من منتصف القرن الثامن إلى منتصف القرن التاسع الميلادى تاريخاً زمنياً لإغارات تبادلها الطرفان لم تتوغل كثيراً ، اللهم إلا نادراً ، فى أراضى الدولتين .

وكانت الصفة البارزة لتلك الإغارات الاستيلاء على معاقل جبال طوروس والتخلى عنها حسب مدّ الحرب وجزرها ، وإن تمخضت بعض الإغارات الكبرى منها عن تخريب كثير من المدن الهامة .

وكان للمسلمين أوقات معينة يغيرون فيها على أراضى الدولة البيزنطية : بعض الإغارات تحدث فى فصل الربيع والصيف وتسمى الصوائف ، وأخرى فى الشتاء وتسمى الشواتى . فغزو الربيع يبدأ من منتصف مايو حين تكون الخيول قد سمنت وقويت من رعيها فى كلأ الربيع ومراعيه ، ويستمر الغزو ثلاثين يوماً أى إلى منتصف الشهر التالى . وفى هذه الإغارات تجد الخيول غذاء وفيراً فى مراعى البيزنطيين التى تمر بها . ثم يجنح المسلمون إلى السكينة ويريحون خيولهم من منتصف يونيو إلى منتصف يوليو حيث تبدأ إغارات الصيف ، وكانت هذه الحملات تستغرق ستين يوماً . أما إغارات الشتاء فلم يقدم المسلمون عليها إلا فى حالات الضرورة القصوى ، دون أن يمعنوا فى التوغل داخل أراضى البيزنطيين . فلم تستغرق الشواتى أكثر من عشرين يوماً يأخذ فيها الجند مؤنهم الضرورية التى تقوم بأودهم خلال هذه الأسابيع الثلاثة . وكانت تلك الشواتى تقع عادة فى الفترة مابين أواخر فبراير والنصف الأول من مارس[١] .

---

(١) قدامة بن جعفر ، الخراج ، ص ٢٥٩ . أنظر الملاحق فى آخر الكتاب ، ملحق ٢ .

وتحتفظ المراجع العربية بسجل واف دقيق لهذه الإغارات أكثر مما دونته المراجع البيزنطية . على أن استعراض هذه الإغارات تفصيلياً يؤدى إلى التكرار الذى لا طائل من ورائه . ومن ثم يجدر الاقتصار على وصف الجو العام لحوادث الإغارات ، وذكر إغارتين يمكن اعتبارهما نموذجاً لأحداث ذلك العصر ، مع العلم بأن هاتين الإغارتين بالذات قد ارتبطتا بما كان يموج فى جوف الدولتين من حركات .

فمنذ أيام الخليفة هارون الرشيد تكاد تكون إغارات المسلمين منتظمة سنوياً فى أراضى الدولة البيزنطية[1] ، عدا تلك الفترات التى انشغلت فيها السلطات الإسلامية بإخماد بعض الفتن الداخلية والقلاقل . وقد شجعت الأحوال الداخليـة فى الدولة البيزنطية هارون الرشيد على التوغل فى إقليم آسيا الصغرى وحصوله على كثير من الغنائم . فكان القائم على شئون الدولة البيزنطية الإمبراطورة أيرين (Irene) الأم الوصية على إبنها القاصر قنسطنطين السادس (٧٨٠ — ٧٩٧ م) . وكانت تلك المرأة من النسوة القلائل اللائى عرفهن التاريخ فى مختلف العصور والبلاد بما اجتمع فيهن من أطماع واسعة وصفات فذة .

غير أن الأطماع السياسية والكبرياء والطموح الذى ملأ نفس الوصية أيرين دفعها إلى التخبط فى شئون الدولة ، ذلك أنها لم تطق صبراً أن ترى ابنها قنسطنطين يبلغ سن الرشد فى الثامنة عشرة من عمره وأن يصبح بذلك كفئاً لتولى العرش الإمبراطورى .

ولم يطق الإبن الشاب بدوره أن يرى أمه تهيمن عليـه وعلى الإمبراطورية ، حتى غدا الاصطدام بينهما أمراً محتوما[2] . فلجأت الإمبراطورة إلى تهيئة الجو لها بمسالمة الخلافة العباسية سنة ٧٨٣ م ، ووافقت على أن تدفع للخلافة العباسية جزية سنوية مقابل المحافظـــة على السلام . غير أن الجيش البيزنطى لم يرض عن هذه

(١) أنظر ملحق ٢ .

(٢) Bury, op cit II, 483,

السياسة الخارجية التي انتهجتها الإمبراطورة أيرين ، ولا سيما بعد سلسلة الحملات التي أنفذها هارون الرشيد سنة ٧٨٩ م / ١٧٣ هـ . وساد الاعتقاد في دوائر الجيش البيزنطي بأن الكوارث الخارجية ناشئة من وجود امرأة على رأس الدولة . فأعلنت فرق الجنود في الأقاليم العصيان ، وطلبت تنصيب قنسطنطين السادس إمبراطوراً وإلغاء الوصاية . فاضطرت الإمبراطورة إلى التنازل مكرهة عن العرش ، وظلت تنصب لابنها الشراك حتى نجحت أخيراً في القبض عليه وهو بإحدى مدن آسيا الصغرى وأمرت بسمل عينيه وكتبت عليه حياة يقضيها في الظلام[١] .

على أن ذلك لم يكن معناه استقرار الأمر لأيرين ، إذ غدا العرش الإمبراطوري محط أنظار الوزراء . وانتهى الأمر بأن أصبحت مسائل الدولة الخارجية مهملة ، واتسع مجال المؤامرات حول الإمبراطورة حتى نجحت واحدة منها على يد نقفور ، الذي أعلن نفسه إمبراطوراً في غياب أيرين عن القسطنطينية ، ونفاها سنة ٨٠٣ م[٢] .

ويشتهر هذا الإمبراطور في التاريخ الإسلامي « بكلب الروم » ، وهو اللقب الذي أغدقه عليه هارون الرشيد في إحدى كتبه التي بعثها إليه رداً على تهديده للخلافة الإسلامية ومطالبته الرشيد برد ما دفعته أيرين له[٣] . وأهم إغارات

---

(١) Bury, op cit, 285,488

ويلاحظ أن أيرين ظلت وصية على ابنها من سنة ٧٨٠ إلى سنة ٧٩٧ م . ثم استأثرت بالسلطة من سنة ٧٩٧ م — ٨٠٣ م .

(٢) Bury, Hist. of the Eastern Empire.

(٣) القلقشندي ، صبح الأعشى ، ج ١ ، ص ١٩٢

كتب نقفور إلى الرشيد : « أما بعد ، فإن هذه المرأة وضعتك موضع الرخ ، ووضعت نفسها موضع الشاة . . . . فأد إلى ما كانت المرأة تؤدى إليك ! » . فأجاب الرشيد : « بسم الله الرحمن الرحيم ، من عبد الله هارون أمير المؤمنين إلى نقفور كلب الروم . أما بعد ، فقد فهمت كتابك والجواب ما تراه لا ما تسمعه » .

هارون الرشيد فى عهد نقفور كانت فى صيف سنة ٨٠٦م / ١٩٠هـ عندما قاد الخليفة الجيوش الاسلامية بنفسه ولبس قلنسوة كتب عليها « غازى حاج » . وكان جيشه يبلغ ١٣٥٫٠٠٠ جندى عدا المتطوعين ، واستولى على عدة معاقل هامة منها هرقلة وطوانه شمال قلعة اللؤلؤة . واضطر الإمبراطور نقفور إلى طلب الصلح ودفع ٥٠٫٠٠٠ دينار مقابل تخلى الخليفة هارون عما بيده من الأراضى البيزنطية[١] . ولعل فى هذا المثال ما يدل على أن الخلافة العباسية لم ترسم لنفسها سياسة ثابتة هدفها تقويض دعائم الدولة البيزنطية . ثم شغل هارون فى أواخر أيامه ٨٠٨ — ٨٠٩م / ١٩٢ — ١٩٣هـ بثورات الأقاليم الشرقية من أرض الخلافة ، كما تلا وفاته اضطراب الدولة الإسلامية بالخلاف بين ولديه الأمين والمأمون .

ولما استتب الأمر للمأمون بعد مقتل الأمين سنة ٨١٣ م / ١٩٨هـ كان عليه أن يواجه بعض الفتن العنيفة التى تجلت فى ثورة طائفة الخرّمية[٢] . لكنه لم يصرف نظره تماما عن الدولة البيزنطية ، إذ انتهز إحدى الثورات الهامة التى أعلنها توماس الصقلبى[٣] على الإمبراطور ميخائيل الثانى (٨٢٠ — ٨٢٩ م) وعمل على شد أزر هذا الثائر ضد الإمبراطورية . وكانت كل آسيا الصغرى تقريبا تساعد توماس بسبب الأحوال الدينية والاجتماعية التى سادت الدولة البيزنطية فى ذلك الوقت . فقد استأنف الإمبراطور ميخائيل اضطهاد عباد الصور والإيقونات مما دفع هؤلاء الناس ، وكانوا كثيرين ولهم قادة متحمسون ، الى تأييد توماس ، الذى ضمهم إليه باحتضان حركة المقاومة لسياسة الإمبراطور ميخائيل

---

(١) الطبرى ، نفس المرجع ، ج ١٠ ، ص ٩٩

(٢) انظر ص ٨٢ حاشية ٢ .

(٣) كان توماس من أولئك الرجال الذين امتلأت بأشباههم الدولة البيزنطية من خروج على الأباطرة ومنازعتهم السلطان . وأخذ صفة الصقلبى من الجالية الصقلبية التى انتمى إليها والتى كانت فى آسيا الصغرى . ولكن توماس فى الحقيقة من أصل أرمنى .

اللاإيقونية[١] . ولذلك لم يكن المأمون ليغفل أمر تلك الثورة ، ولم يتردد فى أن يعقد حلفاً مع توماس تعهد فيه بأن يمده بجيش قوى يساعده على مهاجمة القسطنطينية . ثم اتخذ هذا الحلف صبغة شرعية عندما توج بطريق أنطاكية التابع للخلافة الإسلامية توماس إمبراطورا[٢] .

وعندما تحرك توماس بجيشه وأسطوله لمهاجمة القسطنطينية لم يقدر الإمبراطور ميخائيل ما عليه منافسه من قوة وخطر ، اذ أرسل جيشاً صغيراً سحقه توماس فى سهولة ويسر ، على حين تقدم أسطوله آخذاً فى ركابه سفن الأقاليم البيزنطية البحرية[٣] .

ولم يلبث الإمبراطور ميخائيل أن أدرك منذ هزيمة جيشه خطورة توماس ولا سيما تزعمه حزب الإيقونات . فجنح إلى السلم مع أنصار الإيقونات ليضعف جبهة توماس ، على حين ارتكب الأخير خطأً حربياً بتقدمه مباشرة لحصار القسطنطينية ، تاركا وراءه بقاعا فى آسيا الصغرى احتشدت فيها بعض الفرق الإمبراطورية . وأخذ توماس فى محاصرة العاصمة براً وبحراً فى ديسمبر سنة ٨٢١ م . وكان يتوقع أن تفتح له المدينة أبوابها بمجرد اقترابه منها ، ولكن أمله لم يتحقق ، إذ أخذ الإمبراطور تمام أهبته للدفاع عن عاصمة ملكه . وفى ربيع سنة ٨٢٢ م أخذ النصر يحالف الإمبراطور ، فاستطاع أن يهزم جند توماس المحاصرين للمدينة براً وأنزل بأسطولهم خسارة فادحة[٤] . كذلك استعان ميخائيل بالبلغار ، فطاردوا فلول جيش توماس الذى ولى الأدبار لتطرق السأم والضجر بين أفراده بسبب طول الحصار وبعدهم عن وطنهم، دون جدوى . على أن توماس تحصن فى مدينة أركاديوبولس (لولوبرجاس اليوم) ، ولكن ثار أهل المدينة عليه وسلموه

(1) Vasiliev, Byzance et les Arabes, 23 . 24 .
(2) Ibid , 31 , 32 .
(3) Ibid , 33 .
(4) Ibid, 34 , 35 .

فى منتصف أكتوبر سنة ٨٢٣ م إلى الإمبراطور ميخائيل الذى أمر باعدامه[١] .

وبانتهاء ثورة توماس تلاشت آمال الخليفة المأمون فى إزهاق الدولة البيزنطية ، على حين ظلت الخرّمية تقلق باله . وكان أنصـار هذه الثورة التى أعلنت فى سنة ٨١٦ م / ٢٠١ هـ من سكان الإقليم الجبلى الواقع بين أذربيجان وبلاد الديلم إلى همذان والدينور . وكان كثير من قبائل هذه الناحية قد اعتنق آراء بابك الذى حمل لواء العصيان على المأمون[٢] . واتسمت هذه الثورة زمن المـأمون بالعنف والشدة ، واستغرقت عشرين عاماً هزم فيها بابك جيوش الخليفة مرة تلو الأخرى ، وأباد بصفة خاصة جيشاً بأكمله بعثه المأمون سنة ٨٢٩ — ٨٣٠ م/٢١٤ — ٢١٥ هـ . وظل أوار ثورة بابك متأججا إلى ما بعد وفاة المأمون ، واصطلى به الخليفة المعتصم (٨٣٣ — ٨٤٢ م / ٢١٨ — ٢٢٧ هـ) فى السنوات الأولى من حكمه . ولـكن النصر حالف جيوش المعتصم فى النهاية ، ففى سنة ٨٣٣م / ٢١٨ هـ أرسل المعتصم إلى همذان جيشاً بقيادة أمير بغداد إسحق بن إبراهيم قضى به على ستين ألفاً من أتباع الخرّمية وهرب الباقون فى أرض الدولة البيزنطية[٣] .

على أن الدولة البيزنطية رأت فى ثورة بابك فرصة للأخذ بثأرها من مساعدة الخلافة العباسية للثائر توماس . فاتخذت خطوات إيجابية فى سبيل احتضان ثورة

---

(١) Vasiliev, op cit, Ibid . 42,43,45

(٢) ظهرت طائفة الخرمية فى بلاد فارس التى كانت موطن كثير من المعتقدات والبدع زمن الإسلام وقبله كذلك . ويقال إن الذى أسس طائفة الخرمية هو مزدك زمن كسرى قباذ ، وأخذت إسمها من امرأته خرما التى اضطلعت بنشر عقائد هذا المذهب بعد وفاة زوجها . ويقال الخرمى معناه الوضاح المنير . وسميت أحياناً طائفة الخرمية بالمحمرة ، أى الذين يلبسون الثياب الحمر ، تميزاً لهم عن أصحاب المذاهب الأخرى ، فـكان شعار العباسيين مثلا اللون الأسود ؛ والشيعة اللون الأخضر . وكان بابك يخدم أحد رؤساء الخرمية ، ولما توفى هذا الرئيس حل مكانه ، وأخذ يعيث فساداً فى عهد المأمون . وفى عهد المعتصم دخلت أذربيجان فى حوزته ، على حين ساعدته الدولة البيزنطية فى إقلاق راحة الخلافة العباسية .

(٣) ابن الأثير، الـكامل فى التاريخ ، ج ٦ ، ص ١٦٢.

بابك ولا سيما أن المعتصم جرد جيشاً عديداً وضمه تحت أشهر قواده الأفشين وإيتاخ وجعفر الخياط للقضاء على بابك. وأرسل بابك كذلك عندما أدرك خطورة موقفه إلى الامبراطور البيزنطى ثيوفيل (٨٢٩ — ٨٤٢ م) يحرضه على الإغارة على أراضى الدولة الإسلامية المفتقره إلى وسائل الدفاع، لأن قوات المعتصم كلها مشغولة بحرب الخرمية. وكان بابك يرمى من وراء ذلك أن يضطر الخليفة المعتصم حين يعلم بغزو البيزنطيين لأراضيه إلى سحب جزء من جيشه لمواجهة ذلك الخطر، ويخفّ بذلك العبء عن الخرمية. ولبى الإمبراطور ثيوفيل دعوة بابك، وأعد جيشاً بلغ ١٠٠,٠٠٠ رجل اتجه به إلى حصن زبطرة، الذى يقع فى ثغور الجزيرة قرب الحدود بين الدولتين الإسلامية والبيزنطية.

وكانت الخطة الرئيسية لحملة ثيوفيل ترمى إلى الاتجاه إلى أعالى الفرات أملاً فى الاتصال بثوار أرمينيا وأذربيجان. وتمخضت هذه الإغارة عن إشعال النار فى زبطرة سنة ٨٣٧ م / ٢٢٣ هـ وقتل الذكور من أهلها وأخذ كثير من نسائها وأطفالها أسرى، وقنع الإمبراطور بعد ذلك بالقفول إلى بلاده عائداً مظفراً[١].

على أن المعتصم لم يعجل بالانتقام وآثر أولا القضاء على ثورة بابك، وضيق عليه الخناق حتى تمكن من القضاء عليه فى نهاية نفس السنة (٨٣٧ م) التى خرب فيها الإمبراطور ثيوفيل زبطرة. وبذلك استطاع المعتصم أن يتفرغ لتنفيذ الخطة التى بيتها للانتقام، والتى هدفت إلى تخريب عمورية موطن الأسرة المالكة فى الدولة البيزنطية للحط من شأنها. فكانت عمورية يومئذ فى أعز أيامها، إذ من المحتمل أن الإمبراطور ميخائيل الثانى جعلها أسقفية مستقلة بنفسها، ثم شُيّد لها فيما بعد حصن منيع.

أعد المعتصم سنة ٨٣٨م / ٢٢٣هـ ثلاثة جيوش لغزو آسيا الصغرى سار أحدها

---

(١) ابن الأثير، نفس المرجع، ج ٦، ص ١٧٦

تحت قيادة الأفشين عبر جبال طوروس من درب الحدث ، وزحف الجيشان الآخران تحت قيادة الخليفة نفسه والقائد آشناس عبر أبواب قليقيا ، واتخذت تلك الجيوش الثلاثة أنقرة نقطة التلاقى قبل الزحف على عمورية [(١)] . على أن الإمبراطور البيزنطي علم بخطة المسلمين وأنهم يريدون الاستيلاء على أنقرة . فجمع قواته عند نهر هاليس Halys حيث قدر أن المسلمين سوف يزحفون من طريق ساندوس — بارناسوس (Soandos — Parnassos) ، الذى يسير قرب ذلك النهر ، وبذلك يستطيع قطع الطريق على الجيوش الإسلامية . وعلم الخليفة بدوره حركات البيزنطيين وعمل على استجلاء كنة الموقف البيزنطى قبل التقدم صوب أنقرة . فأرسل إلى أشناس الذى كان يزحف بجيشه أمام قوات الخليفة يأمره بالوقوف وأن يحاول أسر بعض رجال العدو ليعرف منهم مكان معسكر الإمبراطور وجيشه . وكان آشناس إذ ذاك فى منطقة تسمى مرج الأسقف والخليفة فى إحدى جهات تلك المنطقة وتسمى المطامير . فبعث أشناس أحد رجاله ويسمى عمر الفرغانى فى قوة عددها مائتا فارس [(٢)] لاستطلاع تلك المنطقة . واتجه عمر إلى قلعة قُرَّة التى كانت مقراً لحاكم حدود إقليم قبادوقيا ، معتقداً أن ذلك الحاكم وجنده لا بد أن يكونوا على علم بموقع قوات الإمبراطور ، لما تتمتع به قلعتهم من مكانة إستراتيجية هامة .

وتمكن عمر من أسر أحد الفرسان البيزنطيين من منطقة قلعة قرة وقفل به راجعاً [(٣)] . وعلم آشناس باستجواب الأسير أن الإمبراطور عسكر وراء الهاليس مدة ثلاثين يوماً يرقب عبور المعتصم للوثوب عليه ، ولكنه عند ما وصلته الأنباء

---

(١) الطبرى ، نفس المرجع ، ج ١٠ ، ص ٣٣٥ ،
Bury, The Mutasim's March Through Cappadocia, 120.

(٢) الطبرى ، نفس المرجع ، ج ١٠ ، ص ٣٣٦

(٣) الطبرى ، نفس المرجع ، ج ١٠ ، ص ٣٣٦ ،
Bury , op cit , 121 , 123
Vasiliev, op cit, 149,150.

بدخول جند الأفشين أرض الدولة البيزنطية فى اتجاه منفرد اتجه للقضاء عليها . فأسرع آشناس بإرسال الأنباء إلى الخليفة ، ولكن لم يستطع إبلاغها إلى الأفشين الذى كان قد التقى بالإمبراطور وأوقع به هزيمة فتحت الطريق لأنقرة . وسرعان ما استولى المسلمون على هذه المدينة واتجهوا بعدها إلى عمورية (١) . ووصلت جيوش المسلمين إليها بعد مسيرة سبعة أيام ، واستطاعت اقتحام المدينة وأعملت فيها التخريب والتقتيل . وهناك شفى المعتصم غلة انتقامه من زبطره وأخذ منها كثيراً من الأسرى . ثم فكر فى متابعة انتصاراته بالزحف على القسطنطينية ، لكنه اضطر إلى العودة إلى بلاده ، إذ ترامت إليه أنباء مؤامرة تدبر لخلعه . ولم يلبث أن توفى سنة ٨٤٢م / ٢٢٧هـ ، حيث تبعه فى نفس السنة الإمبراطور ثيوفيل ، الذى قضى نحبه مهموماً لفشل سياسته الخارجية .

والخلاصة أن حروب الصوائف والشواتى لم تتمخض عن نتائج ذات قيمة كبيرة سواء للمسلمين أو البيزنطيين . فقد ظل خط الحدود بينهما فى أخذ ورد دون أن يستطيع أحد الفريقين السيطرة التامة على معاقله ودروبه ، كما أن نجاح إحدى الإغارات أو غيرها كان متوقفاً على الأحوال الداخلية عند الفريقين المتنازعين . ولكن إذا كانت الجبهة الشرقية من ميدان الصراع بين المسلمين والبيزنطيين لم تتغير تغيراً واضحاً نتيجة الحركات الحربية بينهما فإن أثر أحداث هذه الجبهة تردد صداه فى النشاط البحرى بين هذين الفريقين .

(١) الطبرى ، نفس المرجع ، ج ١٠ ، ص ٣٣٧ ، Bury, op cit, 125.

الإغارات البحرية

شهدت الأيام الأولى من تولى العباسيين الخلافة مطلع نشاط بحرى قوامه شن إغارات ضيقة النطاق لم تلبث أن تطورت إلى حركات بحرية منظمة اختلفت آثارها عن نتائج الإغارات البرية على أرض الدولة البيزنطيـة . فمن ذلك أن القائد المسلم ثمامة بن وقاص ، وهو بانا كيس (Banaces) فى تاريخ ثيوفانيز ، قام بحملة برية بحرية سنة ٧٧٣ م / ١٥٧ هـ على شواطىء إقليم إيسورة بآسيا الصغرى للاغارة على بعض المدن الساحلية . فأرسل الإمبراطور قنسطنطين الخامس (٧٤٠ — ٧٧٥ م) أوامره إلى الجيش والأسطول المقيم فى آسـيا الصغرى بالتوجه إلى إقليم إيسورة وقطع خط الرجعة على ثمامة . واستطاعت السفن البيزنطية احتلال المياه الأقليمية لشاطىء إيسورة عند مدينة سيس (Syce) وقطعت الاتصال بين ثمامة وبين سفن الشام التى أبحرت معه ، على حين ألقى الجيش البيزنطى الحصـار على قوات ثمامة البرية(١) . وإذا كان ثمامة اسـتطاع أن يفلت من حلقة الحصار البرى والبحرى التى فرضت حوله فإن الجدير بالملاحظة هنا هو ظهور نشاط الأساطيل الإسلامية والبيزنطية لشد أزر الحركات البرية .

على أن الإغارات البحرية أخذت تظهر بصورة جلية منذ عهد الخليفة هارون الرشيد ، فى الوقت الذى اشتدت فيه الإغارات الإسلامية البرية . وكانت خطط الفريقين البحرية تعتمد على مراقبة سواحلهما والانقضاض على أهدافهما فجأة .

---

(١) Theophanes, Chronographia, 375.

كان الأسطول البيزنطى ينقسم قسمين ، الأول الأسطول الإمبراطورى ومقره مياه القسطنطينية ويعهد إليه بالدفاع عن العاصمة ، والقسم الثانى هو أسطول الأقاليم . وكان الأخير يضم أسطول إقليم « كبيرا » (Kibyrrhaeot) فى غرب آسيا الصغرى ، وأسطول جزر بحر إيجه . وهذه الأساطيل الأخيرة هى التى وقفت بالمرصاد لنشاط السفن الإسلامية واشتبكت معها مراراً .

فمن ذلك أن الأسطول البيزنطى الذى كان يراقب شواطىء البحر الأبيض المتوسط الشرقى التابعة للخلافة العباسية ، أسر فى سنة ٧٩٠ م بضع سفن إسلامية وهى فى طريقها من مصر إلى الشام[(١)] . ولكن حدث فى تلك السنة نفسها أن أغار أسطول إسلامى على قبرص[(٢)] . وربما كان الأسطول البيزنطى الذى أسر السفن المصرية السالفة الذكر يراقب حملة إسلامية بحرية مزمعاً قيامها على قبرص . على أن انشغال السفن البيزنطية مكن الأسطول الإسلامى من إنزال قواته فى الجزيرة . ولما علمت الإمبراطورة أيرين بأنباء الحملة الإسلامية ، أرسلت قسماً من الأسطول البيزنطى وصل سريعاً إلى مياه قبرص . غير أن أمير البحر البيزنطى تعجل مهاجمة السفن الإسلامية ، فلقى هزيمة منكرة ووقع أسيراً فى قبضة المسلمين . وعاد المسلمون من إغاراتهم ومعهم أمير البحر البيزنطى ، الذى أمر الخليفة هارون بقتله لرفضه التعاون مع المسلمين[(٣)] .

وفى سنة ٨٠٦م / ١٩٠هـ ، بعث هارون حملة بحرية أخرى أغارت على قبرص وأعملت التخريب والتدمير فيها ، وعادت بأسرى وغنائم وفيرة[(٤)] . وفى السنة التالية كذلك (٨٠٧م / ١٩١هـ) قامت إغارة إسلامية أخرى على جزيرة رودس وعادت محملة بالغنائم والأسرى[(٥)] . على أن إغارات المسلمين البحرية توقفت مثل إغاراتهم البرية على الحدود الشرقية بين دولتهم والبيزنطيين إبان انشغال هارون الرشيد فى أواخر أيامه بالفتن والقلاقل ، وكذلك طوال فترة الخلف بين ولديه الأمين والمأمون .

---

(١) Brooks, The relation between Egypt and the Empire,385

(٢) Theophanes, op cit, 392.

(٣) Ibid, 392 ,

(٤) الطبرى ، نفس المرجع ، ج ١٠ ، ص ٩٨ ، ٩٩ ،

(٥) Cedrenus, Annals, 393.

غير أن مجرى الأحداث أبى إلا أن يجعل فترة الركود الأخيرة بداية لنشاط بحرى إسلامى حمل لواءه مهاجرون من بلاد الأندلس . ففى سنة (٨١٤م/١٩٩هـ) ثار أهل قرطبة على الخليفة الحكم الأموى . ولكن هذا الخليفة استطاع بدهائه أن يقضى على الثورة ، إذ أشعل النار فى الحى الذى كان يقطنه معظم الثوار مما حملهم على الإسراع لنجدة نسائهم وأطفالهم . ثم انتهز الخليفة هذه الفرصة وهاجم الثوار وأوقع بهم هزيمة نكراء . ولم يكتف الحكم بذلك ، وإنما قرر أن يدمر حي الثوار تدميراً تاماً ، وأمر من بقى من سكانه على قيد الحياة أن يغادر أسبانيا خلال ثلاثة أيام ، وأن يصلب من يوجد منهم بعد هذه المهلة . فجمع أولئك السكان نساءهم وأطفالهم وما استطاعوا حمله من المال والمتاع وأبحروا إلى شواطىء أفريقيا ، على حين قصد قسم منهم يبلغ خمسة عشر ألفاً أرض مصر[1]، واستقروا فى ضواحى الإسكندرية سنة ٨١٥/٨١٤م (١٩٩هـ) . ولكنهم سرعان ما احتلوا المدينة سنة ٨١٦ م / ٢٠٠ هـ منتهزين فرصة انشغال المصريين بثورتهم ضد العباسيين ، زمن الخليفة المأمون العباسى . ولما استتب الأمر للمأمون فى أقاليم الدولة الشرقية بعث قائده عبد الله بن طاهر بن الحسين سنة (٨٢٥م/٢٠٩هـ) إلى مصر حيث نجح فى إخماد القلاقل هناك . ثم اتجه إلى الإسكندرية وطلب من الأندلسيين مغادرتها ، على أن ينزلوا إقليماً بيزنطياً غير خاضع لحركات الدولة الإسلامية الحربية . فقبلوا مغادرة الإسكندرية (يونيو ٨٢٧ م/ربيع الأول ٢١٢هـ) إلى جزيرة كريت[2]، إحدى الجزر اليونانية الكبرى وأكثرها ثراء .

ولم يكن ذلك الاختيار إرتجالياً ، إذ أرسل الأندلسيون سنة ٨٢٦ م / ٢١١ هـ من الإسكندرية عدة سفن أغارت على كريت وعادت محملة بالأسرى والغنائم والكثير

---

(١) كندى ، تاريخ الولاة والقضاه ، ص ١٦٣

(٢) كندى ، نفس المرجع ، ١٨٠ ،

الطبري ، نفس المرجع ، ج ١٠ ، ص ٢٧٥ ، ٢٧٦ .

من المعلومات عن تلك الجزيرة . ولم يلق الأندلسيون أية مقاومة عندما نزلوا فى كريت نهائيـاً سنة ٨٢٧م ، إذ كانت الدولة البيزنطية فى شغل بالجبهة الشرقيـة والقلاقل هنـاك[1] . كذلك لم يبد سكان الجزيرة معارضة لأنهم كانوا حانقين على الإدارة البيزنطية لاستعمالها القسوة والبطش فى الحركة اللاإيقونية . واتضح عزم أولئك المهاجرين على اتخاذ كريت وطناً مستقراً لهم حين شيدوا حصناً منيعاً لهم ، حاطوه بخندق عميق واتخذوه عاصمـة لهم أو حاضرة لملكهم على نهج السياسة الإسلامية العامة ، التى سار عليها الفاتحون المسلمون فى الأقطار التى استولوا عليها . وسميت هذه العاصمة بالخنـدق نسبة إلى الخندق الذى أحاط بها[2] ، ولا يزال إسم هذه المدينة حتى أيامنا الحاضرة معروفاً بذلك (Candia) .

لـكن الدولة البيزنطية سرعان ما تنبهت إلى خطورة استقرار المسلمين فى جزيرة كريت ، وعول الإمبراطور ميخائيل الثـانى على انتزاعهـا من أيدى أولئك الأندلسيين . بيد أن الحوادث دلت على أن كريت غدت معقلا بحرياً إسلامياً منيعاً ضد إغارات البيزنطيين البحرية ، ثم بعث أساطيـله فيما بعد تنتقم من الأراضى البيزنطية وتعمل فيها السلب والتخريب . فى سنة ٨٢٨م وقف أمير البحر البيزنطى فوتيناس (Photinas) عاجزاً عن مهاجمة كريت . وعندما أمده الإمبراطور بجيش كبير تحت قيادة دميان (Damian) وهاجم الجزيرة منى بهزيمة ساحقة جرح فيها داميان ووقع أسيراً ، على حين لم ينج فوتيناس من الأسر إلا بصعوبة[3] . ولـكن ميخائيل لم يستسلم ، إذ أرسل إلى كريت حملة بحرية أخرى على جانب كبير من الأهبة وكمال العدة . وحارب البيزنطيون مسلمى كريت بشجاعة وبأس من مطلع الشمس إلى مغربها ، وانتهى الأمر بفرار المسلمين عند سدول الليل تاركين

(1) Vasiliev, op cit, 54.

(2) Cedrenus, op cit, 418

(3) Ibid. 418.

أسلحتهم . على أن البيزنطيين قنعوا بما نالوه من نصر ، وأجَّلوا متابعة الأعمال الحربية إلى الغد اعتماداً على انهيار مقاومة المسلمين . لكن غافل المسلمون الجند البيزنطيين وهاجموهم فى جنح الليل وأجهزوا على الكثير منهم ، وولى القائد البيزنطى هارباً ، لكن سفن كريت أدركته عند جزيرة كوس وقبضت عليه حيث قتل[1] . وهكذا توالى فشل الإمبراطور ميخائيل الثانى فى استرداد كريت ، وأقلع نهائياً عن القيام بأية محاولة أخرى فى هذا الصدد ، لاسيما بعد أن انتهت على غير جدوى إحدى حملاته الكبرى التى بعثها لاسترداد كريت فى عام ٨٢٩م تحت قيادة أمير البحر أوريفاس[2] (Oryphas) .

وبينما كانت الدولة البيزنطية تعانى متاعب جمة من جراء ضياع جزيرة كريت فى شرق البحر الأبيض المتوسط تعرض إقليم آخر من أقاليمها وهى جزيرة صقلية لغزوات مسلمى شمال إفريقية . ففى سنة (٨٢٧ م / ٢١٢ ﻫ) أرسل زيادة الله الأول الأغلبى (٨١٧ — ٨٣٨ م / ٢٠١ — ٢٢٣ ﻫ) سبعين سفينة أقلت نحواً من ١٠٫٠٠٠ فارس لغزو صقلية تحت ستار مساعدة أحد الثائرين فيها على الحكومة البيزنطية . وإذا كانت هذه الحملة تعتبر بداية الاستيلاء على أرض هذه الجزيرة وتثبيت أقدام المسلمين فيها فإن الدولة البيزنطية لم توجه جهوداً محسوسة للدفاع عن هذه الجزيرة إلا بمقدار ما سمحت به مشاكلها فى حوض البحر الأبيض المتوسط الشرقى ، وكذلك على حدودها الشرقية المتاخمة للدولة الإسلامية . ولذلك اعتبرت الدولة البيزنطية أحداث التوسع الإسلامى فى صقلية أمراً ثانوياً بالنسبة لأخطار الإغارات البحرية التى شنها مسلمو كريت على أراضيها الساحلية . ففى سنة ٨٦٢ م امتدت حركات مسلمى كريت إلى جزائر اليونان وبحر إيجه . وأزعج ذلك البيزنطيين ولا سيما أن الجرأة حملت المسلمين فى بعض الأحيان على الاقتراب من مياه

(1) Cedrenus, op cit, 420
(2) I bid. 420,

القسطنطينية . على أن مجهودات البيزنطيين لكسر شوكة هذه الإغارات البحرية باءت بالفشل بسبب اضطراب الإدارة البيزنطية ، وتفشى عوامل الدس والمؤامرات فى القصر الإمبراطورى . فى سنة ٨٦٦م أعدت حملة كبرى تحت قيادة برداس ، عم الإمبراطور ميخائيل الثالث (٨٤٢ — ٨٦٧ م) وأعظم شخصيات عصره . لكن أحد ندماء الإمبراطور ويدعى باسل — وهو مؤسس الأسرة المقدونية فيما بعد — رغب فى أن يخلو له الجو ويزيل من طريقه أى منافس خطر . فانتهز فرصة دخول برداس على الإمبراطور يستأذنه فى السفر إلى كريت ، وبيت له مؤامرة اشترك فيها الإمبراطور بنفسه انتهت بقتل برداس[١] . وهكذا ظل مسلمو كريت يتابعون إغاراتهم دون خوف أو وجل .

إغارة البيزنطيين على دمياط

يتصل بنشاط البيزنطيين لمحاولة تخليص كريت من براثن المسلمين قيامهم بإغارة كبرى مفاجئة على مدينة دمياط . فى سنة ٨٥٣م / ٢٣٨هـ أقلع أسطول بيزنطى إلى الشواطىء المصرية وصب جام انتقامه على دمياط . ويبدو أن تلك الإغاره كانت ترمى إلى قطع الاتصال بين مسلمى كريت ومصر التى غدت دار صناعة هامة[٢] ، تزود مسلمى كريت بالسفن والعتاد وأحياناً بالمقاتلة . وحدثت تلك الإغارة فى عهد الخليفة المتوكل العباسى (٨٤٧ ـ ٨٦١م / ٢٣٢ ـ ٢٤٧هـ) ، ووالى مصر حينئذ عنبسه بن إسحاق آخر والٍ عربى تقلد أزمة الحكم فى مصر .

وكانت عدة الأسطول البيزنطى ثلثمائة سفينة ، على كل مائة منها أمير بحر يتولى قيادتها . واضطلع أمير البحر البيزنطى الذى يسمى فى المراجع العربية بابن قطونة

---

(١) Cedrenus, op cit, 465, 466.
Vasiliev, op cit , 259, 260.

(٢) دار الصناعة اسم أطلق على مكان صناعة السفن فى البلاد الإسلاميه .

وقائد القسم الثانى من الأسطول ، بمهمة الإغارة على دمياط[١] . ويدل اليوم الذى حُدد للهجوم على دمياط وهو ٢٢ مايو سنة ٨٥٣م / ١٠ ذى الحجة ٢٣٨هـ على مهارة تدبير الإدارة البيزنطية . فقد صادف ذلك اليوم أول أيام عيد الأضحى ، ودمياط خلو من حاميتها التى استدعاها الوالى إلى الفسطاط للاشتراك فى عرض حربى رغب أن يجعله أكبر عرض حربى ممكن . ولا يقبل أن محض المصادفة أو اتفاق الأحداث هى التى جعلت الأسطول البيزنطى يهاجم دمياط وهى عارية من رباطها المدافع عنها . ومهما يكن من أمر ذلك فإن موقع دمياط سهل على البيزنطيين العبث والتخريب فيها على نحو كبير . فدمياط العصور الوسطى تختلف عن دمياط الحالية التى تقع على الضفة اليمنى لمصب فرع دمياط ، على بعد اثنى عشر كيلو متراً من البحر الأبيض المتوسط ، ويفصلها عن بحيرة المنزلة شريط أرضى اتساعه كيلو متر واحد . ولكن يستدل من أقوال الجغرافيين العرب فى العصور الوسطى أن دمياط كانت تقع على قطعة أرض مستطيلة تمتد بين مصب فرع دمياط والبحر الأبيض المتوسط[٢] . كما أن الشريط الأرضى الذى يفصلها عن بحيرة المنزلة كان من ضيق المسافة بدرجة جعلت مياه الفيضان تعلو عليه وتغمره حتى تبدو دمياط كأنها جزيرة منعزلة فى الماء[٣] . فاتخذ ابن قطونة بحيرة المنزلة ميداناً لبدء إغارته البحرية ، وهاجم دمياط بسفنه التى كانت تقل خمسة آلاف رجل تقريباً . ففزع أهل المدينة لهذا الهجوم المفاجىء ، وعول سكانها على الهرب عبر المخاضات التى كانت تفصل المدينة عن الأرض المحيطة بها . ولكن هلك كثير منهم فى تلك المحاولة ، على حين

---

(١) الطبرى ، نفس المرجع ، ج ١١ ، ص ٤٨ ؛ لا يعرف اسم هذا القائد من المراجع البيزنطية .

(٢) ياقوت ، معجم البلدان ، ج ٤ ، ص ٨٥ ، ٨٦ ؛
ابن حوقل ، كتاب المسالك ، ص ١٠١

(٣) The Itinerary of Bernard the wise, 6

أشعل البيزنطيون النار فى المدينة المهجورة وأعملوا فيها النهب والسلب[١] .

وىمما يدل على أن هذه الإغارة رمت إلى أهداف أكثر من السلب الذى جرت عليه الإغارات التقليدية حينئذ ، وأنها كانت جزءاً من سياسة الدولة البيزنطية إزاء مسلمى كريت ، أن الجند البيزنطيين استولوا على مؤن وذخيرة فى دمياط كانت معدة للشحن وإرسالها إلى والى كريت ، ثم أحرقوا أشرعة السفن المكدسة فى المخازن البحرية وقبضوا على ستين شخصاً حملوهم أسرى . ويلاحظ أن بعض المسلمين أظهروا ضروباً من الشجاعة فى صد البيزنطيين ، لكنها كانت بسالة فردية لم تؤثر كثيراً فى سير الحوادث . وبعد أن قضى الأسطول البيزنطى يومين فى حصار دمياط ونهبها ، أقلع فى ٢٤ مايو محملا بالغنائم متجهاً شرقا لمهاجمة تنيس : وهى جزيرة فى بحيرة المنزلة تقع بين الفرما ودمياط . ولكن التيار أفسد خطة البيزنطيين الذين تخلوا عن متابعة السير نحوها خشية أن تجنح سفنهم إلى الرمال . ومن ثم اتجهوا إلى أشتوم التى لا تبعد كثيراً عن تنيس وكانت مركزاً حصيناً له سور به أبواب حديدية أقامها الخليفة المعتصم . فاقتحم البيزنطيون ذلك الحصن وأحرقوا ما كان به من الآلات الحربية ، من المجانيق والعرادات ، ثم اقتلعوا الأبواب الحديدية ، وأبحروا عائدين إلى بلادهم قبل أن تصل الإمدادات الإسلامية من داخل البلاد[٢] .

ولم تذكر المراجع العربية شيئاً عن حركات القسمين الآخرين من الأسطول البيزنطى الذى هاجم قسمه الثانى ، تحت قيادة بن قطونه ، مدينة دمياط . على أنه يلاحظ أن نشاط الأسطول البيزنطى وقيامه بهذه الإغارة المخربة الواسعة النطاق جعلت السلطات المصرية تفيق إلى الاهتمام بسواحلها وتقوية أسطولها . ومن ثم

---

(١) الطبرى ، نفس المرجع ، ج ١١ ، ص ٤٨ .
(٢) الطبري ، نفس المرجع ، ج ١١ ، ص ٤٨ .

اتجهت عناية المصريين بالأسطول وأقبلوا على العمل به ، وغدا البحارة موضع التقدير والرعاية . فيروى المقريزى أنه « وقع الاهتمام من ذلك الوقت بأمر الأسطول وصار من أهم ما يعمل بمصر ، وأنشئت الشوانى[1] برسم الأسطول ، وجعلت الأرزاق لغزاة البحر كما هى لغزاة البر وانتدب الأمراء له الرماة . فاجتهد الناس بمصر فى تعليم أولادهم الرماية وجميع أنواع المحاربة ، وانتخب له القواد العارفون بمحاربة العدو. وكان لا ينزل فى رجال الأسطول غشيم ولا جاهل بأمور الحرب[2] » .

تبادل الأسرى (الفداء)

يرتبط بقصة الإغارات البرية والبحرية على الأراضى البيزنطية والإسلامية ظهور نظـــام للفداء أو تبادل الأسرى . ذلك أن تلك الإغارات اتسمت بطابع التخريب والمفاجأة وحمـل الغنائم ، والقبض على كثير من رعايا وجند الطرفين المتحاربين . فتطلب هذا المظهر الحربى وضع نظام خاص لمعاملة الأسرى ووسائل إطلاق سراحهم .

فكان الأسير يرسل إلى داخل البلد التى أسرته ، حيث وجدت أماكن خاصة أو ثكنات لإيواء الأسرى . وكانت معسكرات الاعتقـال هذه تنقسم قسمين : أحدهما خاص بكبار رجال الجيش ، والآخر بعـامة الجنود . ورسم لنا أحد الرحالة المسلمين ، الواسع الخبرة والاطلاع ويسمى المقدسى ، صورة عن حياة الأسرى المسلمين الذين أسرتهم الدولة البيزنطية . فيقول : إن مسلمة بن عبد الملك لما غزا أرض الدولة البيزنطية اشترط على الامبراطور أن يبنى بالقرب من قصره داراً ينزل فيها كبار أسرى المسلمين ، وذلك ليكونوا تحت رعايته وإشرافه . وهؤلاء العظماء

---

(١) الشوانى نوع من السفن الحربية .

(٢) المقريزى ، المواعظ ، ج ٢ ، ص ١٩٢ .

كانوا يعاملون معاملة حسنة ، ولم يكلفوا أداء أى عمل . أما عامة الأسرى من المسلمين فكانوا يستجوبون لمعرفة الصنعة التى يجيدها كل واحد منهم ويوزعون تباعاً على ذلك على مختلف المصانع للعمل بها . وكانت هناك دار خاصة يزاول فيها الأسرى سائر الصناعات تسمى دار البلاط ، تشتمل على غرف واسعة يقيم فيها الأسرى كذلك[1] .

وكانت الدولة البيزنطية ترعى مبادىء التعاليم الإسلامية فى معاملتها للأسرى المسلمين . فلم تكره أحداً منهم على تناول لحم الخنزير أو أى شىء يخالف السنن الإسلامية ، إلى جانب ذلك لم يتعرض الأسرى المسلمون لأنواع التعذيب التى امتلأت بذكرها مراجع العصور الوسطى ؛ فلم يثقب أنف ولا شق لسان ولا فقئت عين أسير ، إذ لجأت الدولة البيزنطية لهذه النماذج من التعذيب فى معاملة أسراها من أفراد القبائل وأقوام البلاد المتاخمة لحدودها الشمالية . ولعل هذه المعاملة الممتازة التى حظى بها الأسرى المسلمون ترجع إلى ما تمتعت به الدولة الإسلامية من مهابة وجلال ، وإلى حسن معاملتها للأسرى البيزنطيين . فمن ذلك أن الدولة البيزنطية سمحت للأسرى المسلمين بأن يزاولوا نوعاً من التجارة الداخلية درت عليهم بعض الأرباح .

ومن الطريف أن يروى فى هذا الصدد أن الأسرى مارسوا بعض الألعاب المرحة ، واتخذوا منها وسيلة للترفيه عن أنفسهم ، وتفاؤلا باقتراب تحسن مصيرهم . فيذكر المقدسى أنه كان بين قصر الملك ودار البلاط ميدان فى وسطه دكة لها درج يجتمع فيه الأسرى للعب ، وينقسمون فى ذلك قسمين : أحدهما يمثل حزب الملك ، والثانى يمثل حزب الوزير ، ثم يرسلون خيولا تجرى حول الدكة التى تتوسط الميدان . فإن سبقت خيل الملك صاحوا منادين أن الغلبة للمسلمين . وهنا يقبل البيزنطيون المشاهدون للمباراة على الأسرى المسلمين ، ويتلطفون معهم ويغدقون

---

(١) المقدسى ، أحسن التقاسيم ، س ١٤٨ ؛ أنظر ملحق ٥

عليهم الهدايا لأن الغلبة كانت لهم [١] .

ولم يحرم الأسرى الذين وقعوا فى أيدى المسلمين من هذا العطف والمعاملة الحسنة ، فكان لهم فى القاهرة مثلا مكان خاص يسمى «المناخ» ينزل فيه الأسرى من الرجال فقط ، أما النساء والأطفال فكانت السلطات تعطى جزءاً منهم للخليفة [٢] ، وجزء يوزع على كبار رجالات الدولة .

ولم يقض الأسرى كل أيام حياتهم فى الاعتقال ، وإنما كان هناك نظام دقيق للفداء بين المسلمين والبيزنطيين . ولم يظهر هذا النظام بصورة واضحة إلا فى عهد الدولة العباسية بسبب الأغارات السالفة الذكر . أما فى أيام الدولة الأموية فكان الفداء فرديا ، أى تبادل أسير واحد بأسير من الجانب الآخر [٣] . وحرصت كل من الدولة العباسية والبيزنطية كل الحرص على سلامة كبار رجال الدولة الذين وقعوا أسرى فى أيديهما ليبادلا بهم كبار رجال دولتيهما . وكان هناك مكان خاص على شاطىء آسيا الصغرى الجنوبى يسمى اللامس ، فى مقاطعة سلوقية على مسيرة يوم من طرسوس جرت فيه حركات تبادل الأسرى [٤] ، وأحيانا أخرى حدثت عمليات فداء على شواطىء فلسطين [٥] . وكانت تسبق حركة التبادل إيفاد سفارات يشترك فيها عمال الثغور لتقرر أسس الفداء . ويتضح من هذه المفاوضات أن تبادل الأسرى كان يجرى طبقاً لقواعد مرسومة ونظم خاصة . فإذا ما نجحت المفاوضات استعد الطرفان استعدادا عظيما للاحتفال بالتبادل . فتروى المراجع أن سفن البيزنطيين كانت تذهب إلى اللامس أو إلى شاطىء فلسطين وهى مزينة حاملة

---

(١) المقدسى ، نفس المرجع ، ص ١٤٨ ،
ابن رسته ، الأعلاق النفسية ، ص ١٢٢ ، ١٢٣ .

(٢) المقريزى ، المواعظ ، ج ١ ، ص ٤٤٤

(٣) المقريزى ، المواعظ ، ج ٢ ، ص١٩١

(٤) ياقوت ، معجم البلدان ، ج ٧ ، ص ٣١٥

(٥) المقدسى ، نفس المرجع ، ١٧٧

أسرى المسلمين الذين تقرر إطلاق سراحهم . وإذا ما اقتربت هذه السفن من الشواطىء الإسلامية ورآها الحراس الموكل إليهم مراقبة السواحل ، دقوا الطبول إيذاناً بحضور السفن . وهنا يخرج كبار الحكام فى أبهى زينة وعليهم اللباس الحربى لمقابلتها ، وكذلك كان أهالى القرى المجاورة للسواحل يخرجون زرافات ووحداناً مهرولين نحو الشاطىء لمشاهدة التبادل (١) . ويجدر أن نصف على سبيل المثال حادثة فداء سنة (٨٤٥ م / ٢٣١ هـ) لأن ذلك يلقى ضوءاً على إدراك الملاحظات السالفة .

حدث ذلك الفداء فى عهد الخليفة الواثق والإمبراطور البيزنطى وقتئذ ميخائيل الثالث . ففى سنة ٨٤٥ م وصل إلى بلاط الخليفة رسول بيزنطى مكلف باسم الإمبراطور أن يفاوض فى أمر الفداء . ولما كانت حالة الحروب والإغارات بين الدولتين قد سببت لهما كثيراً من المتاعب ، رضى الخليفة بإجراء فداء ، وأرسل أحد رسله إلى البلاط البيزنطى ليعرف معلومات دقيقة عن عدد الأسرى المسلمين فى الدولة البيزنطية ، ومدى استعداد الحكومة البيزنطية لتنفيذ هذا الفداء . ودلت تحريات الرسول الإسلامى على أن عدد الأسرى المسلمين ثلاثة آلاف رجل وخمسمائة امرأة وولد ، وتقرر إجراء عملية التبادل على ضفاف نهر اللامس . وحضر الفداء مسلم بن قتيبة الباهلى أمير الثغور والعواصم الإسلامية ومعه سبعة عشر فارساً ، كما حضرت قوة كبيرة من المسلمين بلغت أربعة آلاف رجل (٢) . وكان البيزنطيون فى مثل هذا العدد ولكنهم أظهروا قلقهم من كثرة جند المسلمين ، وعقدوا هدنة مداها أربعون يوما حتى يتم تبادل الأسرى وعودتهم إلى بلادهم .

واجتمع شمل الفريقين على ضفاف نهر اللامس فى ١٦ سبتمبر سنة ٨٤٥ م / ٢٠ محرم سنة ٢٣١ هـ ، ووقف المسلمون على الجانب الشرقى للنهر والبيزنطيون على

---

(١) المقدسى ، نفس المرجع ، ص ١٧٧
(٢) الطبرى ، نفس المرجع ، ج ١١ ص ١٩

الجانب الغربى . ولما بدأت عملية التبادل كادت أن تنتهى بالفشل لاختلاف رسل المسلمين مع البيزنطيين على الفداء ، إذ اشترط البيزنطيون ألا يأخذوا فى الفداء امرأة عجوزاً ولا شيخاً كبيراً ولا صبياً مقابل من فى أيديهم من الأسرى . ولكن تم الاتفاق أخيراً على فداء كل نفس بنفس . ويبدو أن عدد الأسرى المسلمين فاق الأسرى البيزنطيين ، إذ اضطر الخليفة إلى شراء من كان يباع فى بغداد من الرقيق البيزنطيين ، وأخرج من فى بلاطه كذلك من أولئك الرقيق حتى يتكافأ العددان . ثم أقام المسلمون على النهر جسراً لهم وكذلك اتخذ البيزنطيون لأنفسهم جسراً على النهر . فكان المسلمون يطلقون أسيراً ممن فى أيديهم ويطلق البيزنطيون بدورهم أسيراً ممن عندهم . فإذا اقترب المسلم من لداته قابلوه مهللين (الله أكبر) ، على حين يفعل البيزنطيون بأسراهم ما يشبه ذلك من عبارات التهليل . واستمر هذا الفداء أربعة أيام تم فيها إطلاق سراح نحو من أربعة آلاف أسير مسلم بين رجال ونساء .

ويشتهر هذا الفداء بالهيئة التى عقدها الخليفة لامتحان من يطلق سراحه من المسلمين فى القول بخلق القرآن . فمن قال بأن القرآن مخلوق قبل المسلمون أن يرسلوا الفداء عنه ، ومن رفض تركوه فى أيدى البيزنطيين (١) . كذلك تميز هذا الفداء بإطلاق سراح شخصية هامة فى التاريخ الإسلامى ، وهو مسلم بن أبى مسلم الجرمى ، «وكان ذا محل فى الثغور ومعرفة بأهل الروم وأرضها ، وله مصنفات فى أخبار الروم وملوكهم وذوى المراتب منهم ، وبلادهم وطرقها ومسالكها ، وأوقات الغزو إليها والغارات عليها ، ومن جاورهم من الممالك من برجان والأبر (Avars) والبرغز (Bulgars) والصقالبة (Slavs) وغيرهم (٢) » . واستمد الجغرافى ابن خرداذبه كثيراً من معلوماته عن آسيا الصغرى من الجرمى ، وغدت معلوماته الأسس التى بنى عليها باقى الجغرافيين العرب مادتهم فى العصور الوسطى .

(١) الطبرى ، نفس المرجع ، ج ١١ ، ص ٢٠ .
(٢) المسعودى ، التنبيه والإشراف ، ص ١٦٢ .

حركة الإفاقة البيزنطية وقيام الدولة الفاطمية

الأسرة المقدونية والدويلات الإسلامية

الظاهرة الرئيسية فى العلاقات الإسلامية البيزنطية من النصف الثانى من القرن التاسع إلى مدى قرنين تقريباً هى رجحان كفة البيزنطيين باطراد فى ميدان العمليات الحربية وتأرجح كفة المسلمين بين الزيادة والنقصان . فى سنة ٨٦٧ م أسس باسل الأول المقدونى أسرة ارتبط بركابها أبهى عصور الدولة البيزنطية ، وهوى بأفولها نجم البيزنطيين الزاهر وانهارت دعائم عظمتهم وهيبتهم . وظلت هذه الأسرة مدى قرنين تحمل لواء الدفاع عن بيزنطة ، وتعمل على توسيع رقعتها وتحسين مرافقها العامة . وساعدها على ذلك ما اشتهر به بعض أباطرة هذه الأسرة — ولا سيما مؤسسها الأمبراطور باسل الأول — من مقدرة فائقة على تحمل الأعباء والعمل دون كلل أو ملل مدى طويلا . ولذلك يقرن بعصر هذه الأسرة حركة الأفاقة البيزنطية واندفاعها للذود عن حياض الدولة دون وجل أو فتور . ومما جعل حركة الأفاقة البيزنطية تسير قدماً دون اضطراب أن الظروف هيأت للدولة البيزنطية فى الفترات التى تولى عرشها أباطرة ضعاف من الأسرة المقدونية سلسلة من القادة الحربيين الممتازين ، ظلوا يحملون لواء النصر إلى جهات عديدة حتى يسلموه إلى السليل المقدونى الجدير بالقبض على ناصية الموقف .

استهلت الدولة البيزنطية يقظتها بنجاح باسل المقدونى فى التخلص من الأمبراطور ميخائيل الثالث الذى يلقب بالسكير فى التاريخ البيزنطى ، واعتلائه العرش باسم الأمبراطور باسل الأول (٨٦٧ — ٨٨٦)(١) . فكان ذلك إيذاناً

(1) Cambridge Mediaeval History, iv, 48.

بأن الدولة البيزنطية خلعت عنها ثياب التعثر والفوضى والاضطراب ، واتشحت ثياب اليقظة والمهابة والفلاح . ونجح الأباطرة المقدونيون فى رسالتهم لأنهم ساروا وفق سياسة طيبة مرسومة واضحة المعالم ، هيأت لهم إدارة صالحة طوع مشيئتهم . فاهتموا أولا وقبل كل شىء بإعداد المال اللازم لمشروعات الدولة ، وخصصوا القسم الأكبر منه للدفاع عن الدولة ورعاية عملياتها الحربية ، ومن ناحية أخرى كرسوا جهودهم لحماية الطبقة الوسطى ، العمود الفقرى للدولة ، والممولة لها بالضرائب . فأصدروا سلسلة من التشريعات هدفت إلى شد أزر هذه الطبقة وحمايتها من جشع الأغنياء بالحد من شوكتهم وتضخم ثرائهم . وكثيراً ما صدرت هذه القوانين إبان الفترات التى اجتاحت الدولة فيها مجاعة أو وباء ، وجاءت بلسما شافياً وظهيراً للطبقة الوسطى ، التى تتحمل فى مثل هذه الكوارث أفدح الأعباء وتكتوى بما ينزل بها من آثار وأحداث .

وبينما كانت الدولة البيزنطية تسير فى طريق المجد فى الشئون الداخلية والخارجية ، أخذت الخلافة العباسية المهيمنة على الدولة الإسلامية تتعثر باضطرابات داخلية وتعانى انحلالاً أدى إلى انقسامها سياسياً إلى دويلات متعددة ، حتى أزال التتار سنة ١٢٥٨ م / ٦٥٦ هـ ما تبقى فى بغداد من سلطان العباسيين .

وكانت الدولتان البيزنطية والإسلامية تسيران فى معالجة شئونهما الداخلية فى طريقين متباينين ، فبينما الأولى قد اهتمت برعاية طبقتها الوسطى الغالب عليها الصفة اليونانية وتبعث فيها الحيوية والقوة ، إذ بالدولة الإسلامية تشاهد انقلاباً خطيراً فى الأداة الحربية قوامه التخلى عن العنصر العربى والاستعانة بالأتراك ، الذين كانوا حينئذ عنصراً جديداً فى جسم الدولة . وسرعان ما علا نجم العنصر التركى حتى طمس هيبة الخلافة العباسية ، ووقف الخلفاء عاجزين عن كبح جماحه ، وكل من حاول القيام بحركة جدية فى هذا المضمار لقى حتفه عاجلا أو آجلا . ولم يلبث أن جاء

ضعفاً على إيالة اضطراب جوف الخلافة العباسية بالفتن والاضطرابات ، مثل حركة الزنج[١] وما أحدثوه من هياج وفوضى استمرت أربع عشرة سنة (٨٧٠—٨٨٣ م) شلت نشاط العراق وذهب ضحيتها أكثر من نصف مليون نسمة .

وتفشى فى الدولة الإسلامية إبان هذه الفترة المضطربة ظاهرة قيام الدول المستقلة وانفصالها عن السلطة المركزية . فمن أمثلة ذلك ظهور الدولة الطولونية التى اتضح كيانها واستقلالها إبان ثورة الزنج ، إذ استطاع أحمد بن طولون الذى ولى مصر سنة ٨٦٨ م / ٢٥٤ ﻫ أن يؤسس لنفسه فى مصر والشام دولة مستقلة تجلت قوتها عندما رفض إمداد السلطة المركزية فى بغداد بالأموال المطلوبة لقمع ثورة الزنج . وتعتبر الدولة الطولونية نموذجاً نهج على منواله مؤسسو الدول التى قامت على أنقاض سلطان الخلافة ، وانفصلت نهائياً عن الحكومة المركزية أو ظلت تابعة اسمياً للخليفة فى بغداد .

على أن أشباه هـــذه الدول اتسمت بقصر أعمارها وعدم استقرار أحوالها الداخلية ، مما جعل نشاطها لا يقدم كثيراً أو يؤخر فى دفع الخطر البيزنطى الذى وضحت مطالعه على عهد المقدونيين . فسرعان ما انهارت الدولة الطولونية معمرة سبعاً وثلاثين سنة (٨٦٨ — ٩٠٥ م / ٢٥٤ — ٢٩٢ ﻫ) ، ثم قام على أنقاضها دولة

---

(١) كان الزنج من العبيد الذين استوردوا من أفريقية الشرقية ليعملوا فى مناجم الملح (ملح البارود) الواقعة فى نهر الفرات الأدنى . وكان زعيمهم أو صاحب الزنج ، كما لقب بذلك داهية ماكراً ، يدعى على بن محمد من أصل عربى ، وأراد أن يستفيد من اضطراب الحالة فى العاصمة (بغداد) ومن تذمر رجال المناجم البؤساء ، فادعى سنة ٨٦٩ م أنه علوى بعث لإنقاذ الناس . وسرعان ما انضوى الزنج تحت لوائه ، ولم تتمكن جيوش الخلافة التى أرسلت واحداً تلو الآخر من القضاء على ثورة الزنج ، إذ ساعدت بيئة المكان الذى قاموا به وما به من المستنقعات والترع على انتصارهم . وهجر الناس البصرة والأهواز والأبلة ، ولم تخمد ثورة الزنج إلا سنة ٨٨٣ م ، عندما تولى الموفق طلحة أخو الخليفة قيادة الجيوش بنفسه وهجم على حصن المختارة معقل الزنج واستولى عليه وقتل زعيمهم .

الأخشيديين فى مصر التى أسسها محمد بن طغج الأخشيد سنة ٩٣٥م/ ٣٢٣هـ . وعمل محمد بن طغج على ضم سوريا وفلسطين إلى مصر ، مما دفعه إلى الاحتكاك بالحمدانيين فى شمال الشام . وكان أولئك الحمدانيون قد اتخذوا لهم دولة فى شمال العراق أولا عاصمتها الموصل ، ثم انتقلوا سنة ٩٤٤م/٣٣٣هـ إلى الشام تحت قيادة سيف الدولة الحمدانى الذى استولى على حلب وحمص من نائب الأخشيديين فى الشام . وبذلك غدا الأمر سجالاً بين الأخشيديين ، لاسترداد نفوذهم ومكانتهم فى الشام ، وبين الحمدانيين الذين دعموا مركزهم فى شمال هذه البلاد[1] . وظلت الأحداث تجرى على هذا المنوال فى جسم الدول الإسلامية من حركات انفصال واصطدام بين القوى الإسلامية بعضها مع بعض ، والدولة البيزنطية استلت سيفها تسترد ما يعن لها من بلادها التى كانت فى قبضة المسلمين ، حتى تمكنت الخلافة الفاطمية من الاضطلاع بمهمة الدفاع عن العالم الإسلامى وأوقفت زحف البيزنطيين.

الصحوة البيزنطية

بدأت الصحوة البيزنطية باتجاه الأمبراطور باسل الأول صوب الحدود الإسلامية البيزنطية فى آسيا الصغرى ليضع حداً لأغارات المسلمين المتكررة . وكان هدفه الاستيلاء على معابر الجبال وانتزاع القلاع المتحكمة فى مداخلها من أيدى المسلمين . فاستهل نشاطه الحربى بانتصار باهر ، حيث استولى سنة ٨٧٦ م على قلعة اللؤلؤة ، الحصن المنيع الذى يسيطر على الطريق المؤدى من طرسوس إلى القسطنطينية . ثم تابع انتصاراته مستولياً على عدة حصون أخرى هامة كانت تسيطر على المعابر المؤدية إلى آسيا الصغرى[2] . وتوج انتصاراته فى هذا الميدان

---

(١) أبو المحاسن ، النجوم الزاهرة ، ج ٣ ، ص ٢٥٥ ، ٢٨٣

(٢) Anderson, The Road System, 34.

وقوع عبد الله بن كاوس والى الثغور الشامية أسيراً فى قبضته سنة ٨٧٧ م ٢٦٤ هـ[١] .

على أن هذه السلسلة المتصلة الحلقات من الانتصارات البيزنطية أزعجت الخليفة العباسى المعتمد (٨٧٠ — ٨٩٢ م / ٢٥٦ — ٢٧٩ هـ) الذى رأى أن جميع الممتلكات الإسلامية فى قليقية أصبحت مهددة بالخطر البيزنطى ، لضياع قلعة اللؤلؤة من أيدى المسلمين . ولذا طلب الخليفه من أحمد بن طولون والى مصر أن يتولى الدفاع عن الثغور الشامية . فآثر باسل الأول مهادنة ابن طولون القوى الشكيمة ، إذ أرسل إليه سنة ٨٨٧ م / ٢٦٥ هـ عبد الله بن كاوس الذى وقع فى الأسر ومعه بضعة أسرى من المسلمين وعدة مصاحف هدية منه[٢] . لكن قصر عمر الدولة الطولونية وحالة الضعف التى كانت تعانيها الخلافة حينئذ بسبب شغب الجند الترك المقيمين بسامرا ، وظهور حركات القرامطة فى شمال العراق وبادية الشام ، ساعدت باسل الأول على أن يدفع المسلمين شرقاً على طول خط الحدود بين الدولتين الإسلاميه والبيزنطية ، وأن يستولى تدريجياً فى الفترة ما بين ٨٧١ — ٨٨١ م ، على جميع المعابر التى كانت تنفذ منها الجيوش الإسلامية إلى آسيا الصغرى . كذلك استهل باسل الأول نشاط البيزنطيين البحرى باستيلائه على جزيرة قبرص التى ظلت تابعة للدولة البيزنطية من سنة ٨٧٤ إلى ٨٧٧ م[٣] .

وحاول المسلمون القيام بهجوم مضاد لإفساد هذا النشاط البيزنطى ، تجلى فى الحملات الإسلامية البحرية التى شنت بانتظام من جزيرة كريت على الجزر البيزنطية والسواحل المجاورة . ولذا كان على الإمبراطور ليو السادس (٨٧٠ — ٨٨٦ م) خليفة باسل الأول أن يناهض هـذه الإغارات البحرية التى اضطرت أهل الجزائر

(١) ابن الأثير ، نفس المرجع ، ج ٧ ، ص ١١٠
(٢) ابن الأثير ، نفس المرجع ، ج ٧ ، ص ١١٠ .
(٣) Runciman, Romnus Lecapenus, 123.

والمدن الساحلية إلى هجر بلادهم والاستقرار فى داخل البلاد فراراً من التخريب والانتقام . ونجحت سياسة ليو السادس ، إذ أنشأ أسطولاً قوياً ودعم القواعد البحرية فى دولته وترك لخلفائه سياسة بحرية ثابتة إلى جانب الجيش البرى المنظم الذى خلفه أبوه باسل الأول (١) . وبذلك امتلأ عهد الإمبراطور رومانوس الثانى (٩٥٩ — ٩٦٣ م) بانتصارات باهرة استرد بها من المسلمين ما حصلوا عليه من أملاك الدولة البيزنطية فى أوائل القرن التاسع الميلادى . وآية هذه الانتصارات اتجاه القائد نقفور فوقاس إلى جزيرة كريت ، ونجاحه فى الاستيلاء عليها وانتزاعها من أيدى المسلمين سنة ٩٦١ م / ٣٥٠ هـ رغم المحاولات والمجهودات الهائلة التى بذلها المسلمون للدفاع عنها . ويعتبر استرداد البيزنطيين لجزيرة كريت حدثاً هاماً فى القرن العاشر الميلادى ، إذ أبعد عن الأراضى البيزنطية شبح الأساطيل الإسلامية التى أذاقت البيزنطيين العذاب ، كما هيأ للبيزنطيين قاعدة تجارية هامة أضافت إلى مجدهم ونشاطهم التجارى (٢) .

وفى الفترة التى كان القائد نقفور يحارب فيها فى كريت كان أخوه ليون يقوم بمهمة مماثلة ضد الدولة الحمدانية بحلب . ذلك أن سيف الدولة الحمدانى بعد أن مكّن لنفسه فى شمال الشام ، بدأ فى سنة ٩٤٧ م حملاته السنوية على آسيا الصغرى ، وظل على ذلك نحواً من عشرين سنة حتى توفى . وكان الحظ حليف سيف الدولة فى بادئ الأمر ، حيث استولى على مرعش وكثير من المدن الأخرى الهامة على الحدود الإسلامية البيزنطية . وظلت الحرب سجالا بين سيف الدولة وليون حتى انتهى نقفور من حملاته فى كريت وانضم إلى أخيه فى آسيا الصغرى . وبذلك قويت الجبهة البيزنطية وأخذ البيزنطيون يدفعون الحمدانيين إلى الوراء حتى انتهى الأمر بحصار سيف الدولة نفسه فى حلب واضطراره إلى الجلاء عنها سنة ٩٦٢ م /

(1) Vasiliev, Hist. de L'Empire Byzantin, I, 407.
(2) Ibid ,407.

٣٥١هـ ، تاركا للبيزنطيين هذه المدينة الهامة فى ميدان النشاط الحربى والتجارى[١] .
وجعلت هذه الانتصارات من نقفور أعظم رجل فى الدولة حتى تمكن من اعتلاء العرش الإمبراطورى بعد وفاة رومانوس الثانى .

ولم يهمل الأمبراطور نقفور (٩٦٣ — ٩٧٩ م) بعد توليته العرش سياسته إزاء الدولة الإسلامية . فتابع حملاته الحربية براً وبحراً ، وظل النصر يسير فى ركابه من سنة ٩٦٤ إلى ٩٦٩ م حتى توج مجهوداته بالاستيلاء على أنطاكية التى ضارعت القسطنطينية فى شهرتها ؛ حيث كانت مدينة البطارقة والقديسين والمجامع الدينية .
وبعد احتلال أنطاكية بفترة قصيرة دخل أحد قواد نقفور مدينة حلب مرة أخرى وأكره ابن سيف الدولة وخليفته سعد الدولة (٩٦٧—٩٩١م / ٣٥٦—٣٨٠هـ) على إبرام معاهدة أهدرت فيها كرامة الحمدانيين[٢] .

على أن السنوات الأخيرة من عهد الأمبراطور نقفور شاهدت دخول دولة إسلامية جديدة ، وهى خلافة الفاطميين بشمالى أفريقيا ، حلبة النزاع مع البيزنطيين ، إذ بسطت هذه الدولة نفوذها على مصر (٦٩٨ م / ٣٥٨ هـ) ثم لم تلبث أن نقلت مقر حكمها إلى القاهرة (٩٧٣ م / ٣٦٢ هـ) ، وغدت حاملة لواء الحرب ضد الدولة البيزنطية . وكانت سياسة الدولة الفاطمية إزاء البيزنطيين تقوم على أسس وقواعد مقررة . فهدفت إلى استعادة البلاد التى ضاعت من المسلمين فى شمال الشام ، وهى حلب وأنطاكية ، تمكيناً لنفسها ، ورغبة فى أن تظهر بمظهر حامية الإسلام والمصالح الإسلامية من دون الخلافة العباسية .

وبدأت الدولة الفاطمية فى تنفيذ سياستها حين أرسل الخليفة المعز أحد قواده لاسترداد أنطاكية سنة ٩٧١ م / ٣٦٠ هـ من البيزنطيين ، وكان يدبر شئون الدولة البيزنطية إذ ذاك إمبراطور من الرجال الحربيين الممتازين يسمى حنا تزمسكيس

---

(1) Vasiliev, op cit, 407,408.
(2) Vasiliev op cit 408,409.

(٩٦٩ — ٩٧٧ م) . وكاد القائد الفاطمى ينجح فى مهمته لولا مهاجمة القرامطة[١] للجيوش الفاطمية وحملها على التقهقر إلى مصر .

وتلا هجمات القرامطة نشاط الحملات البيزنطية على الأراضى الإسلامية . فقاد حنا تزمسكيس حملة بنفسه ، وتوغل داخل الأراضى الإسلامية حتى بلغ كثيراً من المدن مثل نصيبين وميافارقين والرها وملطية . وكانت هذه الحملة من الشدة بحيث أن ثورة قامت فى بغداد تطلب من الخليفة العباسى إعلان الجهاد ، على حين تابع حنا تزمسكيس زحفه سنة ٩٧٤ م وبرأسه مشروع جرىء ، وهو استرجاع بيت المقدس من المسلمين . ويعتبر حنا تزمسكيس بذلك أول من فكر فى مشروع الحروب الصليبية المعروفة فى غربى أوربا بنحو مائة سنة تقريباً[٢] . ولتنفيذ مشروعه تقدم حنا تزمسكيس فى أوائل سنة ٩٧٥ م من أنطاكية إلى حمص ، ومنها إلى بعلبك ، وسلمت له دمشق ، ووعده أهلها بدفع جزية سنوية . ثم سار بعد ذلك إلى شمالى فلسطين وسلمت له طبرية والناصرة وقيصرية ، وأرسلت إليه مدينة بيت المقدس نفسها تطلب الأمان . على أن الأمبراطور لم يكن متأكداً من مقدرة قواته على متابعة مشروعه الحربى والتقدم جنوبا للاستيلاء على بيت المقدس . ذلك أن الدولة الفاطمية رغم هجمات القرامطة وتعثرها بنشاطهم ، كانت من القوة بحيث

---

(١) عندما فشل الشيعة فى نقل الخلافة إلى العلويين بعد سقوط الدولة الأموية ، ثاروا ضد العباسيين . وحوالى منتصف القرن التاسع الميلادى استطاع عبد الله بن ميمون القداح أن ينشر دعوة الشيعة فى شمال أفريقيا . ثم نجح خلفاؤه فى تأسيس دولة لهم هناك عرفت باسم الخلافة الفاطمية ، وبسطت سلطانها على مصر فى القرن العاشر الميلادى . وكان القرامطة فرعاً آخر من الشيعة ، غدا ذا بطش وسلطان فى إقليم البحرين وبين القبائل العربية الضاربة على الحدود الشامية . وعلى الرغم مما كان منتظراً من تعاون هذين الفرعين الشيعيين دب الخلاف بينهما عندما بسط الفاطميون سلطانهم على دمشق ومنعوا الأتاوة التى كانت ترسل إلى القرامطة ، وكان ذلك السبب الذى حمل القرامطة على مهاجمة الجيوش الفاطمية وإفساد خططها فى مهاجمة البيزنطيين .

(٢) أبو المحاسن ، نفس المرجع ، ج ٤ ، ص ٩٥ ، Vasiliev, op cit, 410.

يجب على الأمبراطور أن يعمل لها حسابا . ولذا تحول الأمبراطور شمالا ، واستولى على عدة مدن ساحلية بالشام ، مثل بيروت وصيدا . ولكن عند طرابلس صدقت مخاوف حنا تزمسكيس من قوة الفاطميين ، إذ نالته هزيمة عند هذه المدينة التى كان يشد أزرها أسطول فاطمى ، فقفل الأمبراطور راجعاً إلى القسطنطينية وتوفى فجأة سنة ٩٧٦ م[١] .

وبدأت الدولة الفاطمية من جديد (٩٩٥ م / ٣٨٥ ﻫ) سياسة استرداد الأراضى الإسلامية التى استولى عليها البيزنطيون حديثا . فاستولت جيوشها على حلب وحمص وشيزر ، ولكن جاء الأمبراطور باسل الثانى سنة ٩٩٩م / ٣٩٠ ﻫ إلى الشام لامتداد العمليات الحربية الفاطمية إلى أنطاكيه ، واستطاع أن يوقف زحفهم . ثم جاشت بنفسه المطامع ، فتقدم لينتزع من الفاطميين مدينة طرابلس ولكنه لم يستطع الاستيلاء عليها[٢] أو أن يتقدم خطوة أخرى إلى ما بعدها . ولذا عقدت معاهدة بين الأمبراطور باسل الثانى والخليفة الحاكم بأمر الله كفلت حسن العلاقات بينهما حتى أواخر عهد هذا الأمبراطور[٣] . ولما ولى الخليفة الظاهر الفاطمى (١٠٢٠ — ١٠٣٥ م / ٤١١ — ٤٢٧ ﻫ) استمرت العلاقات ودية بين الدولتين ، وعقدت بينهما اتفاقية سنة (١٠٢٧ م / ٤١٨ ﻫ) نصت على أن يخطب باسم الخليفة الفاطمي فى مسجد القسطنطينية ويعاد بناؤه مقابل إعادة بناء كنيسة القيامة ببيت المقدس التى هدمها الخليفة الحاكم الفاطمى فى ثورته النفسية الجامحة .

وبذلك كانت الدولة الفاطمية التى ينظر إليها دائماً أنها دولة شيعية آذت

---

(١) Vasiliev, op cit, 410,411
Brehier, vie et Mort de Byzance, 206.

(٢) أبو المحاسن ، ج ٤ ، ص ١٢٠ ، ١٢١ .

(٣) Brehier, op cit, 228,229.

الوحدة الأسلامية هى صاحبة الفضل فى منع التقدم البيزنطى إلى البلاد الإسلامية فى القرن العاشر الميلادى ، فى وقت لم يكن فى استطاعة الدولة العباسية أن تقاوم الجيوش البيزنطية مقاومة جدية . كذلك اتسمت سياسة خلفائها بتفضيل السلم على الحرب مع أباطرة الدولة البيزنطية ، والعمل على أن يعيشا جنباً إلى جنب على قاعدة الإخاء والمحبة والاحترام المتبادل .

على أن هذه السياسة لم تدم طويلا ، إذ لاح فى الأفق الشرقى من الدولة الإسلامية خطر السلاجقة وبسط سلطانهم على الخلافة العباسية ، وامتداد هذا الخطر إلى كل من الفاطميين والبيزنطيين[١] . ولاح فى نفس الوقت فى الأفق الغربى من الإمبراطورية البيزنطية خطر النورمان[٢] وزحفه على أراضى الدولتين الفاطمية والبيزنطية أيضا .

---

(١) ظهر السلاجقة على مسرح التاريخ فى عصر سادة العداء بين الخلافة العباسية السنية والخلافة الفاطمية الشيعية ولعبوا دوراً هاماً فى هذا الصراع . فكان لنشأتهم أثر فى توجيه نشاطهم ، ففى ٩٥٦ م تزعم شخص يدعى سلجوق قبيلة من الأتراك الغز من برارى القرغيز فى تركستان ، وأقام مع قبيلته فى بخارى حيث اعتنقوا الإسلام على المذهب السنى . واستطاع أحفاد سلجوق أن يرفعوا من شأن قبيلتهم ويوسعوا نفوذها حتى تمكن أحد أولئك الأحفاد ويدعى طغرل من دخول بغداد سنة ١٠٥٥ م . وهناك استقبله الخليفة بالترحاب باعتباره منقذا ومدافعاً عن السنة . وفى عهد خليفة طغرل المسمى ألب أرسلان (١٠٦٣ — ١٠٧٢ م) بدأ السلاجقة ضرباتهم ضد الفاطميين والبيزنطيين . ففى سنة ١٠٧٠ استطاع أحد قادة ألب أرسلان الاستيلاء على بيت المقدس من الفاطميين ، وظل يتابع نشاطه حتى توجه بعد خمس سنوات أخرى بالسيطرة على دمشق . وفى تلك الأثناء كان ألب أرسلان نفسه يتابع جهاد المسلمين ضد البيزنطيين ، وكسب أول نصر مظفر فى معركة منزكرت ١٠٧١ م التى وقع فيها الإمبراطور البيزنطى رومانوس ديوجين أسيراً . وكان لهذه الوقعة صدى كبير فى الدولة البيزنطية إذ ضاعت آسيا الصغرى نهائياً من أيدى البيزنطيين وفقدوا أهم ركن فى صرح إمبراطوريتهم . وتعتبر هذه المعركة بداية نهاية الدولة البيزنطية التى ساهم فيها النورمان كذلك .

(٢) النورمان اسم يطلق على مجموعة الشعوب التى سكنت شبه جزيرة اسكنديناوة وحوض البحر البلطى . وتدفقت هذه الجموع على غرب أوروبا فى القرن التاسع الميلادى من =

وهكذا ظهرت مطرقتان كالتا لكل من الدولتين الإسلامية والبيزنطية ضربات قاصمة ، وغدا عالم العصور الوسطى مقبلا على عهد جديد ، قوامه السلاجقة فى الدولة الإسلامية ، والنورمان فى الدولة البيزنطية . فودع المسرح العالمى الوسيط نجمين وشاهد بزوغ آخرين اصطدما فى ذلك الصراع المعروف بالحروب الصليبية بين الشرق والغرب (١) . وانزوت الدولة البيزنطية تدريجياً فى هذا الصراع حتى تلاشت ، مما يجعل الحروب الصليبية خاتمة العلاقات بين المسلمين والبيزنطيين ، وبالتالى نقطة تحول جديدة فى مجرى تاريخ العصور الوسطى العام .

= أراضيها فى الشمال ، مما جعل الناس يطلقون عليهم إذ ذاك إسم الشماليين (Northmen) وحرف الإسم إلى النورمان . وامتد فرع من النورمان إلى جنوب أوربا وظهر فى إيطاليا أوائل القرن الحادى عشر إبان اشتداد حركات السلاجقة فى الشرق . ونجح النورمان فى الاستيلاء على صقلية من العمال الفاطميين ، ثم بدءوا فى سنة ١٠٨١ م حملاتهم ضد الأراضى البيزنطية حيث هاجموا شاطىء دلماشيا . ودفع هذا الخطر النورمانى الإمبراطور البيزنطى الكسيوس الأول (١٠٨١ — ١١١٨م) على الاستعانة بالبنادقة فى صد الزحف النورمانى مقابل منح البندقية امتيازات تجارية ضرت الدولة البيزنطية وعجلت بزوالها فيما بعد .

(١) هزت حركات السلاجقة وهزيمة منزكرت دول غرب أوربا لتلبية استغاثة الإمبراطور البيزنطى الكسيوس الأول دفاعاً عن المسيحية . وإذا كانت هناك أسباب أخرى أكثر أهمية من ذلك فى تعليل هذا الصراع ، فالهام هنا ما تفرع على أعمال السلاجقة من آثار فى الدولة الإسلامية لعبت دورها فى الحروب الصليبية ، وما قام به النورمان فى ذلك الصدد أيضاً من مجهودات . وتمخضت أحداث الحملات الصليبية عن ازدياد شعور الكراهية فى أوربا الغربية نحو الدولة البيزنطية التى وجدت من الصليبيين أداة تعمل على غير ما كانت تبغيه منهم . وانتهى الأمر بأن تحولت الحملة الصليبية المعروفة بالرابعة عن مقصدها الأصلى ، وهو الاتجاه إلى الأراضى المقدسة واستولت على القسطنطينية سنة ١٢٠٤ م .

الفصل الرابع

مظاهر التبادل الاقتصادى
بين الدول الإسلامية والإمبراطورية البيزنطية

مناطق النفوذ التجارى

الميدان الإسلامى

بظهور الإسلام استقرت الأوضاع التجارية فى العالم الوسيط ، وغدا التيار التجارى يجرى بين عميلين رئيسيين هما : الدولة الإسلامية والإمبراطورية البيزنطية يصرف كل منهما فى أسواق الآخر ما تفيض به ينابيعه التجارية ، ويحصل منها على ما يحتاج إليه من مقومات الحياة ، سواء الضرورية منها أو الكمالية ، وفق ما تمليه نواميس الاقتصاد وقواعد التبادل التجارى . فالناظر إلى خريطة العالم التجارية فى العصور الوسطى الأولى ، يرى أن هذين العميلين اقتسما مناطق النفوذ بينهما قسمة طبعية ، أملتها الظروف الجغرافية وهيأت لكل فريق ميدانه الخاص يجول فيه ويصول حسبما يكفل له اليد العليا أو الكفة الراجحة فى الميزان التجارى . وكانت الأحداث السياسية وتطور الأوضاع الزمنية العامل الأساسى أو المحور الذى دارت عليه العلاقات التجارية بين المسلمين والبيزنطيين ، وأقنعت الطرفين طواعية أو كرهاً بأن يولى كل منهما وجهه شطر أموره التى تعنيه ، والأخذ من الطرف الآخر عن رضاً وقنوع .

فالدولة الإسلامية غدت باستيلائها على فارس وريثة نشاط الفرس التجارى فى ميدان الشرق الأقصى ، كما غدت بفتح الشام ومصر المسيطر على حوض البحر الأبيض المتوسط الشرقى ، وهو الحلم الذى عجز الفرس عن تحقيقه المرة بعد الأخرى. على أن هذا الوضع الجديد لم يحمل فى طياته انقلاباً فى أحوال هذه المنطقة التجارية، أو تغييراً فى طرقها الرئيسية ، غير أن السيد المهيمن عليها قد تبدل ، وأن الأسس التجارية هناك استقرت على قواعد منظمة وأساليب جديدة . فقد ترتب على استيلاء المسلمين على فارس ، القضاء على هذا العدو اللدود الذى ضايق الدولة البيزنطية زمناً طويلاً ، وانتهاء عهد التنافس التجارى القديم المتأصل الأوتاد بين الفرس والبيزنطيين . وقام دور تجارى جديد بنت فيه الدولتان الإسلامية والبيزنطية علاقتهما على أسس المصلحة المشتركة والتبادل التجارى الطبعى ، بما يكفل لهما تصريف منتجاتهما دون احتكار أو تنافس غير مشروع .

فقد أدركت الدولة الإسلامية سريعاً وضعها الجديد ، وكذلك الأسس الحقيقية فى صرح كيانها الاقتصادى ، إذ تطلعت إليها الدولة البيزنطية لاستيراد المتاجر الشرقية التى كانت العمود الفقرى لاقتصادياتها ومورد الجزء الأكبر من ماليتها . ولذلك أقبلت الدولة الإسلامية على تراث الفرس التجارى فى الشرق الأقصى تنظمه وتنميه حتى تستطيع القبض على ناصية الميزان التجارى فى العالم الوسيط . وتطلب ذلك من المسلمين تثبيت أقدامهم فى الجهات التى تفيض بالمنتجات الشرقية ، وتنظيم الشرايين التى تحملها إلى أراضى الدولة البيزنطية . وكان أمام الدولة الإسلامية الطريقان الرئيسيان اللذان احتكرهما الفرس قبل زوال دولتهم ، أحدهما الطريق البحرى إلى الهند والصين والآخر الطريق البرى إلى هذين البلدين . ودب النشاط التجارى الجديد فى ظل الإسلام فى هذين الطريقين دبيباً منظما وبخطوات ثابتة حثيثة . ذلك أن أنفة العرب — دعائم الدولة الإسلامية الجديدة — من الاشتغال بأعمال

الزراعة والتجارة وما إلى ذلك جعلتهم يتركون أهالى الأقاليم المفتوحة يتابعون رسالتهم العامة فى الحياة الاقتصادية دون حد من نشاطهم أو جهودهم(١) .

وفضلا عن ذلك شجعوا الفرس على متابعة رحلاتهم التجارية إلى سيلان والصين ، إذ يذكر رحالة صينى فى سنة ٧١٧ م / ٩٨ هـ أن سفن الفرس كانت تتردد على سيلان لتتاجر فى البضائع الشرقية(٢) . وتحدث رحالة صينى آخر يدعى (Hwi cao) عن أهل فارس سنة ٧٢٧ م / ١٠٨هـ ، قائلا : « إن السكان يميلون بفطرتهم إلى الاشتغال بالأعمال التجارية ، ومن عادتهم الابحار فى مراكب كبيرة يسيرون بها فى البحر الغربى ، وأنهم يتابعون مسيرهم حتى يدخلوا البحر الجنوبى إلى بلاد الأسود (سيلان) حيث يجمعون الأحجار الثمينة . . . وإنهم يتجهون بسفنهم الكبيرة أيضاً إلى الصين مباشرة حيث مدينة (كانتون) للحصول على الحرير وغيره من البضائع(٣) » .

كذلك قام المسلمون بمجهود إيجابى لتشجيع التجارة الشرقية ، فأسسوا ميناء البصرة (٦٣٥ / ٦٣٦م) على الضفة اليسرى لشط العرب(٤) . وكانت هناك تجاه مصب النهر جزيرة صغيرة بها مدينة ذات حصن صغير ، هى مدينة عبادان أقامت بها حامية لمكافحة القراصنة الذين هددوا سير السفن التجارية . وعلى نحو ستة أميال من المدينة تجاه البحر وجد موضع يعرف بالخشبات ، فيه عمد من الخشب منصوبة فى الماء بنى عليها مرقب أطلق عليه الناظور ، ويوقد المرقب ليلا لتهتدى به السفن وتستدل به على مدخل نهر دجلة(٥) .

---

(١) Heyd, Histoire du Commerce du Levant au Moyen Ages 1, 25.

(٢) G. Ferrand, Relation De Voyages et Textes Geographiques, 637.

(٣) F. Hirth, The mistery of Fu-lin, 205.

(٤) Heyd, op cit , 48, 49.

(٥) الاصطخرى : المسالك (ليدن ١٩٢٧) ص ٣٢ .

ويوجد وصف متأخر لأحد الرحالة فى القرن الخامس الهجرى ، الحادى عشر الميلادى ، وهو « ناصرى خسرو » تحدث فيه عن الخشبات ، قائلا : إنها عمد مصنوعة من خشب الساج منصوبة ، قاعدتها واسعة مربعة الشكل ، ثم تضيق إلى أعلى فوق سطح البحر فى ارتفاع يبلغ خمسين متراً ، وفى أعلاها حجرة مربعة الشكل للناظور (١) .

ولم يلبث المسلمون من العرب أن دخلوا ميدان التجارة منذ قيام الدولة العباسية ، مما أضاف إلى أهمية ونشاط الطريق البحرى المؤدى إلى الصين . وأجاد العرب فنون الملاحة فى هذا الطريق ، ولا سيما استخدام الرياح الموسمية فى دفع السفن (٢) ، مما يدل على أنهم بنوا نشاطهم على هدى التراث الباقى من مجهودات التجار والرحالة الأقدمين ، من أمثال المغامر هيبالوس (٣) . ويتضح من رحلات السندباد البحرى المذكورة فى كتاب — ألف ليلة وليلة — والتى تنسب إلى عهد الرشيد ، أن التجار العرب قاموا برحلات بحرية من بغداد إلى شبه جزيرة ملقا (الملايو) والصين ، وأن ازدياد ثروة العباسيين ولا سيما الخلفاء شجع هذ النوع من الرحلات للحصول على العطور والتوابل والحرير (٤) .

وكان الدين الإسلامى عاملا هاماً فى صبغ هذا النشاط التجارى بلون جديد ، إذ امتلأ التجار المسلمون حماسة لنشر دينهم على طول الطريق التجارى ، مما أكسب جالياتهم فى المراكز التجارية الهامة امتيازات خاصة ، وجعل لهم لدى سادة البلاد منزلة سامية . فقد تمتع التجار المسلمون المقيمون فى مدينة خانفو جنوب شنغهاى الحالية بحق اتخاذ قاض مسلم لهم يحكم بينهم وفق الشريعة الإسلامية ،

---

(١) Nassiri Khosrau, Safar Nameh, 246,247.

(٢) آدم متز : الحضارة الإسلامية فى القرن الرابع الهجرى ، ج ٢ ، ص ٣٧٧

(٣) انظر الكتاب ، ص ١٢

(٤) Heyd, op cit, 26.

كما منحوا جوازات تسمح لهم بالتنقل داخل البلاد وتبادل التجارة مع أهلها(١) .
وكانت الأحوال التجاريه فى « خانفو » تقوم على قواعد منظمة تكشف عن مدى النظام الذى ساد هذا الطريق البحرى . فأسماء ربان السفن كانت تدون فى ديوان « الجمارك » بتلك المدينة ، وخضعت سفنهم بدورها لنظام التفتيش الدقيق ، قبل السماح لها بإنزال حمولتها . وكانت تحصل الضرائب المقررة على السلع قبل توزيعها على التجار ، وكل من كان يحاول التهريب يعاقب بالحبس(٢) .

ولم تقتصر هذه الامتيازات التى تمتع بها التجار المسلمون على بلاد الصين ، بل شمل أمراء المدن الهندية الساحلية كذلك أولئك التجار بعطفهم وبسطوا رعايتهم على جالياتهم بها(٣) . وساعد ذلك العطف التجار المسلمين على متابعة نشاطهم ، دون تأثر بالأحداث التى قد تنزل ببعض المدن التجارية ، وتؤثر فى أهميتها ومكانتها . فمن ذلك أنه حينما اضطربت الأحوال التجارية فى مدينة خانفو سنة ٧٥٨ م / ١٤١ هـ نتيجة قيام بعض الثورات بها ، انتقل التجار المسلمون إلى « كَلَه » فى شبه جزيرة ملقا ، فى الوضع الذى يعرف الآن بسنغافورة . وفتحت هذه المدينة أمام تجار المسلمين سوقاً جديدة للاتجار فى سلع الهند الصينية وهى الكافور والقرنفل وخشب العود وجوز الهند(٤) . ثم توج هذا النشاط التجارى ظهور كتب المسالك(٥) التى تصف للتجار المسلمين طرق ارتياد مناطق المنتجات

---

(١) Heyd, op cit, 30-23 .

(٢) آدم متز ، نفس المرجع ، ج ٢ ، ص ٣٧٤ .

(٣) Arnold, The Preaching of Islam, 264.

(٤) سلسلة التواريخ ، ص ١٣ ، ١٥
Hadi Hassan, Persian Navigation, 98,99.

(٥) شجع اتساع نطاق التجارة فى العصر العباسى الأول وإصلاح الطرق التى سادها الأمن ، الرحالة والمسافرين على ارتياد كثير من الأقطار . ووصف أولئك ما شاهدوه من البلدان والطرق المؤدية إليها وصفاً دقيقاً ، ودونوه فى كتب وأسفار هى خلاصة تجاربهم وتجوالهم . وهذه الكتب هى التى تعرف باسم مسالك الممالك .

الشرقية . ففى القرن التاسع الميلادى ، الثالث الهجرى ، وضع أبو القاسم بن خرداذبه دليلا للمسافرين تناول فيه وصف الطريق البحرى الذى يبدأ من الأبلة عند مصب دجلة حتى بلاد الهند والصين .

وكانت أهم مراكز تجمع التجارة الشرقية فى القرن العاشر الميلادى ميناء سيراف (مدينة تاهيرا الحالية) على ساحل الخليج الفارسى . ويستدل من رحلة أبى زيد حوالى ذلك القرن أن البضائع كانت تنقل من ذلك الميناء إلى عدن على البحر الأحمر (١) حيث تتابع طريقها إلى البحر الأبيض والأسواق البيزنطية .

أما الطريق البرى إلى الهند والصين فقد أصبح أكثر استقراراً وأمناً فى ظل الإسلام، مما كان عليه أيام دولة الفرس الساسانيين . فى ذلك الوقت الذى شجع العرب فيه تجار فارس على ارتياد الطريق البحرى الجنوبى كانت الجيوش الإسلامية قد استولت على بلاد السند منذ أوائل القرن الثامن الميلادى . وكان ذلك بداية لازدياد النشاط التجارى عبر أواسط آسيا على نحو لم يعرف من قبل ، حيث غدا الطريق عامراً بالمحطات التجارية الهامة والمراكز التى خضع معظمها لإدارة المسلمين . ففى عهد الوليد بن عبد الملك (٧٠٥ — ٧١٥م / ٨٦ — ٩٦هـ) نجد القائد قتيبة بن مسلم ، الذى ولاه الخليفة على خراسان ، يعبر نهر سيحون ويشرع فى سلسلة من الحملات الناجحة ، أخضع فيها على التوالى بخارى وسمرقند ومدناً أخرى ، ثم مضى قدماً فى فتوحاته حتى وصل إلى الحدود الغربية للامبراطورية الصينية . وأرسل قتيبة

---

(١) سلسلة التواريخ ، ص ١٣ ، ١٥

زار رحالة عربى اسمه سليمان الهند والصين عدة مرات ، وكتب وصفاً لسياحته سنة ٨٥١ م / ٢٣٧ هـ . ووضع رحالة آخر من سيراف ، اسمه أبو زيد حسن ، فى القرن العاشر الميلادى ، الرابع الهجرى ذيلا أكمل به وصف رحلة سليمان .

وتمتاز تقارير سليمان وأبى زيد بما فيها من وصف لطرق التجارية والمنتجات فى الهند وسيلان وجاوه والصين . انظر :

زكى حسن ، الرحالة المسلمون فى العصور الوسطى ، ص ٢٣ ، ٢٤

فى سنة ٧١٣ م / ٩٤ هـ رسلا إلى إمبراطور الصين وعادوا من عنده محملين بهدايا ثمينة . وهكذا كان امتداد نفوذ المسلمين إلى نهر سيحون من أكبر العوامل التى شجعت التجار على ارتياد الطريق البرى إلى الصين . دون أن يواجهوا عقبات من السلطات الرسمية أو يتعرضوا لمتاعب فى الطريق [١] .

وكان هذا الطريق متصلا بدروب الهند وقوافلها التجارية . فكانت قوافل البنجاب تنقل مقادير كبيرة من البضائع عبر هضاب أفغانستان إلى كابل وغزنة ، ثم تسير إلى خراسان غربا ، وبخارى شمالا ، وعند البلدة الأخيرة تتلاق مع قوافل الصين الآتية عبر آسيا الوسطى . وكان التجار يسلكون دربين فى هذا الطريق التجارى المؤدى إلى الصين ، أحدهما طويل يستغرق أربعة أسابيع والآخر قصير جدا ، ولكنه متشعب ومجهد [٢] . وازدادت قيمة هذا الطريق وأهميته نتيجة جهود بعض الحكام الذين دخلوا حلبة السياسة الاسلامية فى أوائل القرن العاشر الميلادى ، الرابع الهجرى .

فقد استطاع أولئك الحكام من آل سامان [٣] نشر الأمن فى خراسان وبلاد ما وراء النهر حتى غدت قوافل التجار تضرب فى طريقها إلى الصين آمنة مطمئنة . بالاضافة إلى ذلك شاهد عهد هذه الأسرة رواجا فى التجارة الشرقية لقيام علاقة مصاهرة بين السامانيين وإمبراطور الصين ، إذ تزوج ولد نصر بن أحمد السامانى من ابنة هذا الأمبراطور [٤] .

(١) Arnold, op cit, 213,214.

(٢) Heyd, op cit, 36,37.

(٣) تلقب أولئك الحكام بهذا الإسم نسبه إلى سامان ، أحد أشراف مدينة بلخ . واستطاع أحد أحفاد سامان ويدعى إسماعيل (٨٩٢ — ٩٠٧ م) أن يدعم سلطان أسرته فى بلاد ما دراء النهر ، وكانت عاصمتهم بخارى وأشهر مدنهم سمرقند .

(٤) آدم متز ، نفس المرجع ، ج ٢ ، ص ٣١٤ ، ٣١٥

وبذلك كان ظهور الإسلام وانتشاره فى أواسط آسيا حدثاً هاما فى قصة استيراد الإمبراطورية البيزنطيـة للمتاجر الشرقيـة ، إذ أضحت الطمأنينة ووسائل الراحة التى تمتع بها هذا الطريق عاملا قرب هذه المتاجر إلى بلاد الدولة البيزنطية ، وأزال من طريق البيزنطيين كذلك العقبات التى أثارها من قبل الفرس ، والقبائل التى أقامت على جانبى هذا الطريق . ومن ناحية أخرى أضاف نشاط هذا الطريق التجارى مدداً جديداً إلى عظمـة الدولة البيزنطية ورواجها التجـارى ، إذ غدت الأراضى الشرقية للدولة البيزنطية خاتمة المطاف لهذا الطريق ومحط قوافله ومتجاره والوسيط المهيـن على تصديرها إلى دول أوربا .

الميدان البيزنطى

إنعكست آثار هذا النشاط الإسلامى التجارى فى الدولة البيزنطية . فتدفقت عليها المنتجات الشرقية وتولت تصريفها بقدر للمالك التابعة لها فى أوربا وغيرها ، مستوحية فى ذلك الدفاع عن كيانها التجارى وعدم إتاحة أى منافس لها يشاركها فى هذا الميدان . فكانت الواردات التى تصل إلى القسطنطينية(١) تجـد طريقها إلى أوربا فى سفن التجار البيزنطيين وغيرهم من الشعوب الموالية لهم . وغدا هذا الطريق البحرى أهم المسالك التجارية التى اعتمدت عليها الدولة البيزنطية فى تحصيل مكوسها على المتاجر الصادرة منها والواردة إليهـا . فكانت تجبى فى القسطنطينية نفسهـا الضرائب على الصادرات ، على حين جمعت المـكوس على السلع الواردة إلى الدولة

---

(١) تعتبر القسطنطينية وريثة مجد مدينة بيزنطة القديمة على البوسفور . فهذه المدينة الأخيرة كانت ذات مكانة تجارية ملحوظة إبان الدولة الرومانية الـكبرى ، وقام بها قوة من الجند لساعدة حكامها المحليين على حفظ النظام : انظر :

Charlesworth, Trade Routes and Commerce of the Roman Empire, 118,119.

من الغرب فى مدينة أبيدوس (Abydos) على الدردنيل أو فى مدينة هيرون (Hieron) على البسفور(١) .

ووجهت الدولة البيزنطية عنايتها إلى إكمال سيطرتها التجارية على دول غرب أوربا باحتكار الصناعات التى يمكن أن تقوم على الواردات الشرقية . فكان من أهم هذه الصناعات التى حملت إسم بيزنطة عالياً لدى الدول الغربية صناعة الحرير والجوهرات والنقش على العاج والأحجار الثمينة . وبلغ من اهتمام بيزنطة بالمنسوجات الحريرية أن جعلت مصانعها خاضعة لإشراف الإمبراطور ، واعتبر إنتاجها من الأمور التى تتكفل بها الدولة نفسها . فكانت المصنوعات الحريرية جزءاً من سياسة الدولة العامة فى حفظ ولاء الممالك الغربية لها ، إذ تهافتت هذه الدول على شراء المنسوجات الحريرية الموشاة وتلمست الحصول على أنواعها الغالية ، ولاسيما تلك التى لم تطلقها الدولة البيزنطية حرّة فى الأسواق ، وآثرت أن تبعث بها هدايا لرؤساء الدول الأجنبية(٢) . فكان لذلك المظهر الأخير معنى أوسع من مجرد الهدايا عند الأمراء والحكام فى غرب أوربا ، إذ حملت هذه الهدايا معنى الإعتراف بهم أو تقدير الدولة البيزنطية لهم ، وهو أمر جهد قادة الممالك الأوربية فى الحصول عليه لدعم سلطانهم وكيانهم . ومن ثم راقبت الدولة هذا النوع الأخير من الصادرات مراقبة شديدة ، ولم يسلم من هذه المراقبة سفراء أولئك الملوك الغربيين بصفة خاصة مهما كانت درجاتهم .

ففى سنة ٩٦٨م فتشت حقائب السفير ليود براند الألمانى فى القسطنطينية عندما قفل عائداً إلى بلاده ، ووجدت بها بعض قطع من المنسوجات الحريرية . فصادر عمال « الجمارك » هذه المنسوجات دون رعاية للسفير الذى انتهك قوانين البلاد محاولا

(1) Runciman, Byzantine civilization, 170.

(2) Baynes, op cit, 217.

استغلال مكانته فى التهريب[١]. على أن هذه الحادثة تدل من ناحية أخرى على مبلغ الغيرة التجارية التى تملكت السلطات البيزنطية، فالمعروف أن الدولة وضعت احتياطات محكمة لمراقبة المتاجر الغالية، وبذلت الأموال عن سعة لقلم المخابرات السرية الذى وكل إليه كشف حركات التهريب.

وازداد دخل الدولة كثيراً نتيجة نظامها التجارى المحكم. فكانت القوانين تنص على أن تفرض مكوس حوالى ١٠٪ من قيمة الصادرات أو الواردات، كما حددت أنواع المواد التى تأخذ عليها هذه المكوس، مثل التوابل والقطن الغفل والجلود الثمينة والعاج والأحجار الكريمة والأصبغة والأصواف[٢] الشرقية.

وكان الطريق البحرى يبدأ من القسطنطينية ويطوف بالجزر اليونانية الهامة وينتهى غالباً عند مدينة بارى بإيطاليا، أهم الموانى فى الغرب حتى القرن العاشر[٣] الميلادى. على أن هذا الطريق شاهد ظهور عناصر جديدة شاركت البيزنطيين نقل المتاجر. ففى القرن العاشر الميلادى غدت سفن أمالفى ونابلى تمخر عباب الماء بين إيطاليا والقسطنطينية، وأضحى لتجار أمالفى فندق مستقر فى القسطنطينية. ولكن البندقية كانت أهم المدن الإيطالية التى لعبت دوراً كبيراً فى هذا الطريق التجارى. فكانت سفن البنادقة تحمل المتاجر البيزنطية إلى إيطاليا وتعود إلى القسطنطينية محملة بمتاجر الدول الجرمانية، التى كان أهمها الأسلحة والأخشاب[٤]. وفى نهاية القرن العاشر الميلادى غدا البحر الأدرياتى فى أيدى البنادقة الذين أغدقت عليهم الدولة البيزنطية كافة أنواع التشجيع ومنحهم الإمبراطور باسل الثانى (٩٧٦ — ١٠٢٥ م) عدة مميزات هامة. فكان التجار البنادقة يدفعون ضرائب جمركية

(1) Runciman, op cit, 168.
(2) Runciman, The Widow Danelis,
Runciman, Byzantine Civilization, 168.
(3) Ibid, 170.
(4) Ibid, 168.

مخفضة عندما يغادرون القسطنطينية ، وعهد إلى سفنهم حمل البريد ونقل السفراء بين القسطنطينية وإيطاليا[١] .

على أن الدولة البيزنطية انفردت بتصريف بعض منتجاتها المحليـة وأشهرها النبيذ إلى سكان الأراضى المتاخمة لحدودها الشمالية ، واستوردت منها منتجاتهـا الطبيعية التى ساعدتها على اتصالاتها التجارية بالدولة الإسلامية .

وترجع الأسس الأولى التى استندت إليها بيزنطة فى نشر نفوذها فى هذا الطريق البرى إلى المدن البيزنطية القائمة على الساحل الشمالى للبحر الأسود . فـكان الفراء والسمك الجاف يأتى من مناطق الاستبس إلى مدينة خرسون حيث ينقل إلى القسطنطينية ، ويعود التجار إلى تلك المناطق محملين بما يحتاجون إليه من منتجات الدولة البيزنطية[٢] ، ولم يلبث هذا الميدان الجديد أن ازدهر وغدا ركناً هاماً فى التبادل التجارى بين بيزنطة والإسلام عندما اتجه الطرفان إلى توسيع مناطق نفوذهما والبحث عن عملاء جدد لتصريف منتجاتهما .

التبادل التجارى

كان أول شىء وضعه المسلمون والبيزنطيون نصب أعينهم المحافظة على الأوضاع الاقتصادية فى مناطق الشرق الأدنى المطلة على حوض البحر الأبيض الشرقى ، لمـا تقوم به تلك المنطقة من دور فعال فى حركة التبادل التجارى بينهما . فـكانت هذه المنطقة تتحكم فى أطراف الطرق التجارية الآتيـة من بلاد الشرق الأقصى سواء البحرية منها أو البرية ، واتجهت إليها بيزنطة لاستيراد المتاجر الشرقية . والمتتبع لانتشار الإسلام فى هذه البقعة التجارية الهامة يرى أن المسلمين جهدوا منذ أيامهم

(1) Runciman op cit, 168.
(2) Ibid, 167.

الأولى على تقوية أركان حياتها التجارية وبعث حياة جديدة فيها ، لا أن يهدموا أسسها ويقوضوا أركانها على نحو ما توهم كثير من أصحاب النظريات السطحية فى دراسة التاريخ الإسلامى .

فالشريان التجارى القديم المتدفق إلى بلاد الشام وآسيا الصغرى لم يمس بأى تغيير ، إذ أدرك أهالى البلاد المفتوحة فى سرعة وإعجاب أن العرب الفاتحين ليسوا شعباً متبربراً أو متغطرساً يضع العقبات فى سبيل الحياة الاقتصادية فى البلاد ، أو يعمل على التقليل من شأنها . ولكن على النقيض من ذلك رأوا من العرب أناساً يتركون الحياة الاقتصادية تسير فى مجراها الطبيعى ، ويحوطونها بتشجيعهم ورعايتهم (١) . ودل ذلك على أن العرب أدركوا ببصائرهم النافذة ما للتجارة من أهمية فى حياة هذه البلاد التى ارتادتها قوافلهم مراراً وتكراراً قبل ظهور الإسلام . ولذلك كان اهتمام العرب بالتجارة بعد أن بسطوا سلطانهم فى ظل الإسلام على هذه البلاد يقوم على أسس متينة راسخة ، وعن يقين بأن هذه التجارة التى كانت أهم عنصر فى حضارتهم أيام الجاهلية ، لا زالت الجوهر الذى لابد منه لبناء حضارة جديدة لهم . ويمكن تلمس عناية العرب الفاتحين بالتجارة منذ الأيام الأولى للاسلام . ففى غزوة تبوك التى قادها النبى سنة ٦٣٠ م / ٩ هـ اهتم الرسول بتأمين أهالى أيلة (العقبة) ، الميناء المطل على البحر الأحمر ، على أموالهم ، ومنحهم عهداً بألا يتعرض بأى أذى لسفنهم التجارية أو سفن الموالين لهم (٢) .

وتبين المسلمون بجلاء أهمية الاتصال بالدولة البيزنطية بعد أن دانت لهم بلاد الشام ومصر . ويدل على ذلك أنهم تركوا أهالى هذه البلاد يواصلون جهودهم الاقتصادية بمعونة عمال بيزنطيين ، سواء من الذين كانوا قبلا فى تلك البلاد أو أولئك

---

(١) Heyd, op cit, 25.

(٢) ابن هشام ، السيرة ، ج ٤ ص ، ١٨٠ ، ١٨١

الذين جلبوهم من بيزنطة . فحركة المصانع وبناء السفن ظلت زاهرة ، والمتاجر تنقل من البلاد الاسلامية المفتوحة إلى الدولة البيزنطية . وخلف لنا رحالة مسيحى يدعى أركولف (Arculf) جاء إلى مصر فى طريقه إلى بيت المقدس سنة ٦٧٠ م ، أى بعد نحو من ثلاثين سنة من استيلاء المسلمين عليها ، وصفاً لميناء الاسكندرية يبين مبلغ النشاط التجارى الذى امتلأ به هذا الميناء ، وأنه لم يتعرض لأى إهمال من الحكام المسلمين . فشاهد منارة الاسكندرية تؤدى عملها ليلا لهداية السفن التجارية ، وأن الميناء ما زال على صلاحيته لاستقبال السفن وحمايتها من العواصف[١] .

وجنت بيزنطة فائدة عظيمة من الرواج الذى أصاب البلاد الاسلامية المطلة على حوض البحر الأبيض المتوسط الشرق . فأوراق البردى أصابها كثير من التحسن وغدت من أهم الواردات التى حصلت عليها بيزنطة من مصر . فأصبح طول الورقة منها المعدة للتصدير نحواً من ثلاثين ذراعا . وحليت بطرز عليها عبارات التثليث ، إذ لم يعد يلائم الوضع الجديد كتابة اسم الإمبراطور البيزنطي على هذه الطرز بعد أن دخلت مصر فى حوزة المسلمين . ولكن فى عهد الخليفة الأموى عبد الملك استبدل بالعبارات الأخيرة عبارات إسلامية . ورغماً عن أن ذلك كان عاملا فى إثارة النزاع بينه وبين الإمبراطور البيزنطى جستنيان الثانى (٦٨٥ — ٦٩٥ م) فإن الدولة البيزنطية ظلت تستورد أوراق البردى من مصر التى كانت تحتكر هذه الصناعة فى العصر الاسلامى كذلك[٢] . وظلت قراطيس مصر تحتل الصدارة فى قائمة الصادرات إلى بيزنطة حتى القرن العاشر الميلادى حين ظهرت صناعة الورق فى سمرقند . فظلت الدولة الإسلامية كذلك الموطن الرئيسى لتصدير الورق الذى انتشرت صناعته فى دمشق وطبرية وطرابلس الشام .

(1) The Pilgrimage of Arculf in the Holy Land, 49,50.
(2) S. Lopez, Mohamed and Chatlemagne, 24.

وتنهض العملة التى تداولتها البلاد الاسـلامية دليلا على اتصالها التجارى بالدولة البيزنطية واحترامها للأوضاع التجارية التى كانت سائدة فيها من قبل زمن السيادة البيزنطية . فقد ظلت العملة المحترمة الدينـار البيزنطى حتى أيام الخليفة عبد الملك ، إذ ترتب على اتساع دائرة النشاط التجارى للدولة الاسـلامية عدم استقرار قيمة النقد وما استتبع ذلك من تلاعب فى الأسـعار . فأمر عبد الملك بسحب النقد المتداول على جميع أنواعه من السوق ، واستعاض عنه نقداً جديداً . ولـكنه لم يتخل عن النقد البيزنطى مما يدل على التأثير التجارى المتبادل بين الطرفين . فقد اتخذ الدينار البيزنطى أساساً للعملة الذهبية فى الدولة الاسلامية ، وكان يسـاوى فى القرنين التاسع والعاشر الميلادى نحواً من خمسين قرشاً أو أقل قليلا [١] . كذلك ظلت الموازين البيزنطية مستعملة فى البلاد الإسلامية ولا سيما فى سوريا ومصر ، أهم مناطق تصدير المنتجات الشرقية إلى بيزنطة . فالأوقية كانت الوزن البيزنطى (Ouggia) ، والرطل هو تحريف للاسم البيزنطى (Litra)[٢] أى لتر .

على أن التبادل التجارى بين بيزنطة والدولة الإسلامية أدى إلى ازدياد النشاط التجارى فى حوض البحر الأبيض الشرق بشكل جعل تجارة القسم الغربى من ذلك الحوض تبدو قليلة أو فى حكم الخاملة إذا ما قُرنت بتجارة القسم الشرقى . وكان ذلك صحيحاً إلى حد كبير ، ولـكن حاول بعض المؤرخين أمثال بيرن (Pirenne) أن ينسب قلة التجارة وكسادها فى غرب البحر الأبيض إلى ظهور الإسلام وامتداده على ضفاف ذلك البحر . فيذكر أن إغارات المسـلمين البحرية من شمال أفريقيا وامتداد الإسلام إلى أسبانيا ، كان كل ذلك كالشبح المخيف الذى أنزل الرعب فى قلوب دول أوربا الغربية وصرفها عن أمورها التجارية [٣] . على أن هذا

(١) G. Le Strange, Palestine under The Moslems, 43,44.

(٢) Ibid 48,49.

(٣) أسهب بيرن فى شرح نظريته الخاصة بتأثير انتشار الإسلام فى فصم وحدة حوض =

الاضمحلال التجارى لغرب أوربا لم يكن منشؤه الإسلام ، وإنما صادفت فترة امتداد الفتوحات الإسلامية إلى حوض البحر الأبيض المتوسط الغربى استمرار الاضطراب الذى ساد من قبل أحوال الممالك المطلة عليه وتزعزع كيانها التجارى . فالحروب الأهلية التى استمر أوارها فى غرب أوربا منذ نهاية القرن السادس الميلادى وحالة القلق التى سادت الدولة الميروفنجية (١) منذ نهاية القرن السابع ومطلع القرن الثامن الميلادى ، كل ذلك أدى إلى تدهور الأحوال التجارية فى حوض البحر الأبيض المتوسط الغربى ، وعجز دوله عن استيراد المتاجر الشرقية (٢) فى كثرة تضاهى الدولة البيزنطية . ومن ثم اعتمدت ممالك غرب أوربا على بيزنطة فى استيراد ما يلزمها من المتاجر الشرقية بقدر ما سمحت به مواردها المالية ، مما أدى إلى بقاء القسم الغربى من البحر الأبيض المتوسط على اتصال غير مباشر بالقسم الشرقى . ولعبت جزيرة صقلية ، التى ظلت تابعة للدولة البيزنطية حتى سنة ٨٢٧ م ، دوراً هاماً فى حركة نقل هذه المتاجر بين بيزنطة وغرب أوربا (٣) .

= البحر الأبيض المتوسط فى كتابه « محمد وشرلمان » Pirenne, Mahomet et Charlemagne كما كررها فى مؤلفاته الأخرى حيث تناول الحياة الاقتصادية فى أوربا فى العصور الوسطى . ولكن الأبحاث العديدة التى قام بها كثير من العلماء الذين كتبوا فى تاريخ غرب أوربا فى العصور الوسطى أثبتوا خطأ بيرن . وقد ذكرت بعضاً من هذه المراجع التى تصدت للرد على بيرن فى عرض هذا الباب ليمسها القارىء فى سهولة ويسر .

(١) أسس هذه الدولة بعض عناصر من القبائل الجرمانية تعرف باسم الفرنجه . فقد استقرت هذه القبائل فى غالة (فرنسا) فى القرن الخامس الميلادى ، إبان حركة الإغارات الجرمانية العامة على غرب أوربا ، وكونت لأنفسها دولة هناك بفضل زعيمهم كلوفس (Clovis) . وأطلق على هذه الدولة اسم الميروفنجية نسبة إلى جد للملك كلوفس عرف بهذا الاسم .

(٢) Cambridge Economic History, 186,
Ganshof, Notes Sur Les Ports de Provence, 29.

(٣) Gay, Note Sur L'hellenisme Sicilien, 218.

ولم يكن استيلاء الأغالبة[١] على صقلية (٨٢٧م) وظهورهم فى جنوب إيطاليا (٨٤٢م) سبباً فى اضمحلال نشاط غرب أوربا التجارى، إذ دأب عمال الأغالبة هناك على جعل الطريق مفتوحاً لاتصال دول غرب أوربا بحوض البحر الأبيض المتوسط الشرقى. فمن ذلك أن مدينة بارى الإيطالية بعد أن سقطت فى أيدى الأغالبة (٨٤٢م) غدت الميناء الرئيسى الذى أبحرت منه السفن إلى مصر والشام، تنقل إليهما الصادرات الغربية وتعود منهما محملة بالمتاجر الشرقية. وحفظ لنا الحجاج المسيحيون صورة عن نشاط هذا الطريق التجارى وعن تسهيل المسلمين لهم مهمة السفر إلى الأراضى المقدسة بفلسطين. وتعتبر رحلة برنارد الرشيد الذى أبحر من بارى سنة ٨٦٧ م قاصداً الأراضى المقدسة مصدراً هاما لمعرفة أحوال هذا الطريق ووسائل الإنتقال عبره[٢].

ويوجد نص مشهور لابن خرداذبة، أحد الجغرافيين العرب فى القرن التاسع الميلادى، الثالث الهجرى، يتضح منه أن البقية الباقية من تجارة غرب أوربا كانت فى أيدى اليهود، الذين كانوا بحكم مركزهم الاجتماعى خير وسيط لنقل هذه المتاجر إلى شرق أوربا وإلى القسطنطينية[٣]. وأطلق المسلمون على أولئك اليهود إسم «تجار البحر»[٤]، إذ كانو يخرجون من مقاطعة بروفانس بفرنسا (أوفرنجة) ومعهم الجوارى والغلمان والديباج وجلود الخز والفراء والسمور والسيوف. ثم

---

(١) تنسب دولة الأغالبة التى قامت بشمال إفريقيا إلى مؤسسها إبراهيم بن الأغلب الذى ولى هذه الجهات من قبل الخليفة هارون الرشيد سنة ٨٠٠م/١٨٤هـ. وفى عهد هذه الأسرة فتح المسلمون صقلية، وغدت دولة الأغالبة ذات هيبة وسلطان حتى أزالها الفاطميون سنة ٩٠٩م/٢٩٦هـ.

(٢) The itinerary of Bernard the wise 5,6.

(٣) Mann, The Responsa of Babylon, 477,
Galante, Les Juifs de Constantinple, 51. Note,5.

(٤) ابن الفقيه، ص ٢٧٠

يسافرون بحراً إلى الفرما ، حيث ينقلون متاجرهم على ظهور الدواب إلى القلزم ، ومن هناك يستأنفون رحلتهم بحـراً إلى جدة وإلى السند والهند والصـين [١] ، «فيحملون من الصين المسك والعود والـكافور والدارصيني وغير ذلك مما يحمل من تلك النواحى حتى يرجعوا إلى القلزم ثم يحملونه إلى الفرما ثم يركبون فى البحر الغربى (أى البحر الأبيض المتوسط) فربما عدلوا بتجارتهم إلى القسطنطينية فباعوها للروم[٢] » .

وبلغ النشاط التجارى بين الدولتين الإسلامية والبيزنطية أوجه أبان القرن العاشر الميلادى ، وغدا مألوفاً ارتياد التجار المسلمين والبيزنطين أراضى الدولتين والاقامة فى المدن الهامة بهما . ومن تلك المدن التى ازدهرت وأضحت نموذجاً لمراكز التبادل التجارى مدينة طرابيزون ، فكانت هذه المدينة من أهم الأسواق التى وفد إليها التجار المسلمون منذ العصر العباسى الأول وعادوا منها محملين بالمتاجر البيزنطية مخترقين الممرات الجبلية فى طريقهم إلى ملطية وغيرها من المدن الواقعة على الفرات الأعلى . وضمت طرابيزون كذلك أكبر جالية إسلامية أقامت فى أرض البيزنطيين . وكانت حركة التبادل فيها قائمة على قدم وسـاق ، فترد إليها من القسطنطينية المنسوجات الصوفية والـكتانية التى استوردها المسلمون بكثرة ، فضلا عن الثياب والأكسية البيزنطية ولا سيما الديباج البيزنطى الذى اشتهر بجودته وتفوقه على غيره من المنسوجات ، وحمل إليهـا التجار المسلمون ، مقابل ذلك ، المتاجر الشرقية ومنتجات بلادهم[٣] .

ويدل تنظيم الأسواق الإسلامية والبيزنطية ، والإشراف على نشاط التجار بها

---

(١) ابن خرداذبة ، س ١٥٣

(٢) نفس المرجع ، س ١٥٤

(٣) المسعودى ، مروج الذهب ، ج ١ ، س ١٤٠ ، آدم متز ، نفس المرجع ، ج ٢ ، س ٣٠١

والقوانين التى وضعت لها ، على ازدهار التبادل التجارى ، ومحاولة كل دولة أن ترعى مصالحها الاقتصادية . فكانت الدولة الإسلامية تحصل العشر من قيمة بضائع البيزنطيين ، على أن ذلك خضع لحاجات البلاد والمحافظة على مصالح التجار . ففى بعض الأحيان فرضت الدولة الخمس على البضائع البيزنطية ولم تسمح للتجار بالإقامة طويلا فى البلاد ، وإذا عادوا فى نفس السنة مرة أخرى بسلع يرغبون فى تصريفها فرضت عليهم مكوس إضافية . على أن الدولة الإسلامية ، أحياناً أخرى ، خفضت قيمة المكوس عند ما أحست حاجتها إلى بعض المتاجر البيزنطية ، كما أعفت التجار من الضرائب الإضافية إذا عادوا مرة ثانية فى نفس السنة (١) . ويحتمل أن الدولة الإسلامية قصدت من وراء ذلك إلى خدمة مصالح رعاياها من التجار الذين تكونت لهم فى العصر العباسى نقابة كان لها شأن كبير . وكان المحتسب (٢) — وهو من كبار موظفى الدولة الإسلامية — يشرف على الأسواق وحركة البيع والتبادل فيها.

وكان ذلك هو شأن الأوضاع التجارية فى الدولة البيزنطية ، فلم تسمح للتجار المسلمين بالإقامة داخل بلادها أكثر من ثلاثة أشهر ، وإذا تبقى شىء من متاجرهم يترك فى عهدة ورعاية حاكم المدينة الذى يتولى تصريفها ويحفظ ثمنها لديه حتى يعود أولئك التجار فى العام التالى (٣) . كذلك عرف البيزنطيون وظيفة المحتسب ، التى أضحت من الدقة والصرامة بحيث خشى بأسها التجار . فكان من العسير على التجار تهريب أى سلع أو إحداث تلاعب فى الأسعار .

---

(١) القلقشندى ، صبح الأعشى ، ج ٣ ، ص ٤٦٣

(٢) المحتسب هو رئيس الشرطة ، وهى وظيفة أنشأها المهدى : وكانت مهمة المحتسب مراقبة الأسواق ، وحمل الناس على المحافظة على الآداب كما يطوف مع رجاله فى الشوارع ليلا ونهاراً ليتأكد من تعليمات الشرطة ، ومعاقبة من يحاول الغش فى المقاييس والمكاييل والموازين . وكانت هذه الوظيفة تعتبر فى درجات إدارة الدولة الإسلامية مرحلة وسط بين القضاء والهيئة التنفيذية .

(٣) Runciman, Byzantine Civilization, 174.

وكانت كل طائفة من التجار تقيم فى قسم معين من سوق المدينة الإسلامية أو البيزنطية ، وتعيش فى ظل نظام خاص اختلف أحيانا من بلدة إلى أخرى . على أن النظام السائد هو أن يقيم التجار فى فنادق ، وهذه الكلمة مشتقة من الكلمة اليونانية Pandakeion ، مما يشير إلى التشابه بين الأحوال التجارية لدى المسلمين والبيزنطيين . وكان الفندق يتكون من مبنى تعرض فى طابقه الأرضى السلع وفى أعلاه غرف لمبيت التجار . واستخدم المسلمون الأقفال البيزنطية بصفة خاصة لإغلاق أبواب فنادقهم (١) . ويلاحظ فى هذا الصدد أنه كان للتجار البيزنطيين ورعاياهم من تجار الدول الأخرى حىّ فى القاهرة عرف بحارة الروم وآخر فى بغداد أطلق عليه دار الروم .

وبلغ من كبر عدد الجالية البيزنطية فى القاهرة أن أضحى لها تأثير على مجريات الحوادث التى حدثت فى هذه المدينة والتى استهدفت من ورائها خدمة مصالح دولتها . فمن ذلك ما حدث فى عهد الدولة الفاطمية صاحبة السيادة على مصر والشام عندما جهدت أن تضم فى دائرة نفوذها مدينة حلب التى تمتعت بمركز تجارى ممتاز . فلم تترك الدولة البيزنطية الفاطميين يدعمون سيادتهم التجارية فى الشام بالاستيلاء على هذه المدينة ، وساعدت صاحب حلب على مقاومة الحملة الفاطمية التى أرسلت ضده سنة ٩٩٢ م / ٣٨٢ هـ . فحضر الإمبراطور البيزنطى باسل الثانى بنفسه إلى الشام سنة ٩٩٤ — ٩٩٥ م عندما تحرجت الأحوال ، وحمل الفاطميين على الإرتداد عن حلب . على أن الفاطميين لم يقفوا مكتوفى الأيدى ، إذ أمر الخليفة العزيز ببناء أسطول فى دار الصناعة بالمقس (٢) لشد أزر الحركات البرية ضد البيزنطيين وانتزاع

---

(١) آدم متز ، نفس المرجع ، ج ٢ ، ص ٣٢٧

(٢) اهتم الفاطميون بعد استيلائهم على مصر بالأسطول ودور الصناعة التى كانت تبنى فيها السفن . فمن ذلك أن الخليفة المعز لدين الله الفاطمى أسس دار صناعة فى المقس التى غدت ميناء القاهرة . وكان موضع المقس قرية تسمى أم دنين . وكانت المقس فى العهد الفاطمى كذلك سوقاً عامة للغلال .

حلب منهم . وأظهر الوزير الفاطمي عيسى بن نسطورس همة ونشاطاً كبيراً فى إعداد السفن الحربية وتزويدها بالآلات والعدد . ولكن حدث فى يوم الجمعة ٤ مايو سنة ٩٩٦م/١٢ ربيع الثانى سنة ٣٨٦ هـ — وهو اليوم المزمع فيه إبحار الأسطول — أن شب حريق فى السفن دمر منها ست عشرة سفينة ، على حين أتلفت النيران العدد الحربية فى باقى السفن الأخرى . ونسب ذلك الحريق إلى التجار البيزنطيين الذين كانت غالبيتهم من تجار مدينة أمالفى بإيطاليا والتابعة إسمياً للدولة البيزنطية . وكان أولئك التجار قد وصلوا إلى الأراضى المصرية قبل ذلك الحادث بقليل ، وأقاموا فى فندق يسمى بيت مالك ، ويقع قرب دار صناعة المقس . وعلى الرغم من انفجار العامة بالسخط فإن السلطات الفاطمية حافظت على متاجر البيزنطيين وردت عنهم عدوان الأهالى ، كما أنزلت العقاب الصارم بكل من ثبتت علية تهمة السلب والنهب[١] . ولا شك أن هذه السياسة الرشيدة التى انتهجتها الحكومة الفاطمية أزاء التجار البيزنطيين تدل على مبلغ حرصها على بقاء الاتصال التجارى قائماً مع بيزنطة .

ويمتاز العصر الفاطمى كذلك بقلة الحروب مع البيزنطيين وكثرة فترات السلم التى ازدهرت فيها التجارة ولا سيما تجارة المنسوجات . فيروى ناصرى خسرو ، ذلك الرحالة الفارسى الذى زار مصر زمن الخليفة الفاطمى المستنصر ، قصة يبدو عليها طابع المغالاة ولكنها تدل على رواج تجارة المنسوجات ، إذ ذكر أن الإمبراطور البيزنطى عرض على الخليفة الفاطمى مائة مدينة بيزنطية مقابل تنازل الخليفة عن مدينة تنيس وصناعة المنسوجات بها ، ولم يلق هذا العرض قبولا من السلطات الفاطمية[٢] . وكانت مدينة تنيس وكذلك دمياط ودبيق من أكبر مراكز صناعة

(١) المقريزى ، خطط ، ج ٢ ، ص ١٩٥ ، ١٩٦ ؛ يحيى بن سعيد ، صلة كتاب سعيد بن بطريق ، ٤٤٣ ، ٤٤٧

(٢) Sefer Nameh, 111.

النسيج فى العصر الفاطمى . وكان الثوب الذى نبغ فى صناعته أهل تنيس يعرف بالبدنه ، وكان يصنع للخليفة ولا يدخل فيه من الغزل سدى ولحمة غير أوقيتين وينسج باقيه بالذهب نسجاً محكماً .

ولم يقتصر هذا الرواج التجارى على مصر وإنما ساد سائر البلاد الإسلامية كذلك . وغدت الإسكندرية وبغداد فى القرن العاشر الميلادى تقرران الأسعار للعالم ولا سيما أسعار السلع الكمالية[١] . وكان التجار المسلمون يمدون الدولة البيزنطية بما تحتاج إليه من المواد الغفل (الخام) اللازمة لبعض الصناعات بها ، مثل صناعة العاج الذى كان يجلب من إفريقية الشرقية . كذلك أدى التبادل التجارى إلى تأثر الصناعات الإسلامية بالصناعة البيزنطية ، إذ يتضح من الفرش المعروفة « بالطنافس » التى اشتهرت بها الحيرة فى العراق على أثر الفن البيزنطى ، فهذه الكلمة العربية ترادف الكلمة البيزنطية Tapetes[٢] .

تنافس المسلمين والبيزنطيين فى الميادين التجارية الجديدة

لم يقتصر المسلمون والبيزنطيون على التبادل التجارى بينهما فحسب ، وإنما تسابقوا كذلك إلى إدخال أسواق جديدة فى دوائر نفوذهم يصرفون فيها متاجرهم ويجلبون منها ما بها من منتجات طبيعية . ففى القرن العاشر الميلادى ، الرابع الهجرى ، اشتد التنافس بين المسلمين والبيزنطيين على السيطرة على أسواق بلاد الروس (الصقالبة) . وكان المسلمون على اتصال سابق بهؤلاء الأقوام قبل ذلك بقرن تقريباً ، إذ وصف لنا الجغرافى العربى ابن خرداذبة فى القرن الثالث الهجرى الطريق الذى سلكه التجار الروس من بلادهم إلى الدولة الإسلامية . وذكر أنهم

---

(١) آدم متز ، نفس المرجع ، ج ٢ ، ص ٣١٢
(٢) نفس المرجع ، ج ٢ ، ص ٣٠٤

جنس من الصقالبة يحملون جلود الثعالب السود والسيوف من أقصى بلاد الروسيا إلى العراق ويمرون ببلاد الخزر حيث يجبى صاحبها منهم المكوس . ثم يتابعون سيرهم إلى بحر جرجان ومنه يحملون متاجرهم على ظهور الإبل إلى بغداد . وهناك كان الخدم الصقالبة المشتغلون فى بغداد يتولون الترجمة بينهم وبين المسلمين . وكان أولئك التجار يدعون أنهم مسيحيون كى تطبق عليهم القوانين الخاصة بأهل الذمة[١] . وفى سنة ٩٢١ م / ٣٠٩ هـ ، خطا المسلمون خطوة إلى الأمام فى هذا الميدان التجارى ، إذ قام اتصال سياسى بين البلغار المقيمين على ضفاف نهر إتل (الفلجا) والخليفة المقتدر العباسى[٢] . فقد أرسل إليهم الخليفة رسولا ينشر بينهم تعاليم الإسلام ويلقنهم مبادئه . على أن الفضل الأكبر فى انتشار الإسلام بين أهالى الفلجا يرجع إلى التجار المسلمين الذين كانوا يتاجرون فى الفراء وسائر السلع الأخرى التى جلبوها من بلاد الروسيا الشمالية[٣] .

على أن المسلمين لم يستطيعوا مزاحمة البيزنطيين فى روسيا التى اعتنق أهلها

---

(١) ابن خرداذبة ، نفس المرجع ، ١٥٤

(٢) كان للبلغار فى أوائل العصور الوسطى دولتان ، أقدمهما فى حوض الفلجا الأوسط ، والأخرى فى حوض نهر الطونة . وتطلق كلمة بلغار على البلاد التى كانت تقع شرقى نهر الفلجا وسكانها كذلك . وأرسل الخليفة المقتدر العباسى سفيراً يدعى ابن فضلان إلى دولة البلغار فى حوض الفلجا ، إجابة لطلب ملك البلغار الذى كان قد اعتنق الإسلام منذ زمن يسير ، وبعث يطلب فقيهاً يعلمه أصول الدين الإسلامى . كذلك هدف ملك البلغار من وراء هذا الاتصال السياسى أن تساعده الدولة الإسلامية فى بناء حصون تدفع عنه غائلة أعدائه ، وبصفة خاصة من الخزر . وكان ملوك الخزر من أصل يشبه البلغار ، ومملكتهم تقع عند مصب نهر الفلجا ، وديانتهم اليهودية ، وكانوا يعدون البلغار تابعين لهم .

وأمدنا ابن فضلان بصورة جلية عن البلغار ولا سيما تجارتهم ، وكذلك وصف بعض الروس القدماء الذين رآهم على نهر الفلجا ، حيث قدموا للتجارة مع البلغار . ولكن لم يذكر ابن فضلان شيئاً عما تمخضت عنه سفارته من الوجهتين السياسية والحربية . انظر :

زكى حسن ، الرحالة المسلمون فى العصور الوسطى ، ص ٢٦ ، ٢٧ .

(٣) آدم متز ، نفس المرجع ، ص ٣١٤ ،

Arnold, op cit, 242.

المسيحية على مذهب كنيسة القسطنطينية ، إذ فشل البلغار المسلمون فى تحويل ڤلاديمير أمير كييف الروسي — وكان على الوثنية — إلى الدين الإسلامى . فقدحدث أن رغب هذا الأمير فى اعتناق دين سماوى ، وعقد فى بلاطه مناظرة بين دعاة يمثلون الأديان السماوية المعروفة ، وقام كل داع بالدفاع عن دينه وشرح تعاليمه . فحال بين ڤلاديمير وقبول الإسلام تحريم المسلمين للخمر ، حيث أجاب ڤلاديمير الداعى المسلم قائلا : « إن الشراب متعة الروس ولا حياة لهم بدونه » . كذلك أخفق اليهود الذين جاءوا من بلاد الخزر فى استمالته إلى ديانتهم . فبعد أن أصغى ڤلاديمير إلى حججهم سألهم : « أين بلدكم ؟ » فأجابوا : « بيت المقدس ، ولكن الله شتت شملنا فى كافة أنحاء العالم غضباً منه علينا » فقال ڤلاديمير : « إذا كان الله قد قطعكم من رحمته فهل تريدون منا اعتناق دينكم فنلقى نفس المصير ؟ » ، على أن الصورة التى رسمها قسيس بيزنطى عن تعاليم المسيحية لقيت هوى فى نفس ڤلاديمير .

ورغماً عن ذلك لم يندفع ڤلاديمير فى اختيار دين من بين هذه الأديان يحل محل دينه الوثنى . فاختار عشرة من بين رجال دولته المشهور لهم بالحكمة وسداد الرأى ووجههم إلى البلاد المختلفة ليدرسوا أمور دياناتها . ودونت هذه السفارة ملاحظاتها عن الأديان ومعتنقيها ، فكتبوا عن البلغار المسلمين أن أماكنهم حقيرة تنبعث منها روائح كريهة وأن وقوفهم للصلاة بوجوههم الواجمة يبعث على الكآبة ، فالمسلم يقف ثم يركع ثم يسجد ثم يجلس ويلتفت ذات اليمين وذات الشمال كأنه شخص مأخوذ[1] .

(١) كان بلغار الفلجا أقل فى مستوى حضارتهم ومعيشتهم من سائر المسلمين مما حمل السفارة على السخرية من منازلهم . أما وصف السفارة للمسلمين فى الصلاة ، فهو وصف بدائي لشعب بدائى لا يستطيع فهمه أو إدراكه أن يجعله يقف على كنه الدين الإسلامى . فالصلاة تجعل المرء يتصل مباشرة بربه ، يقف أمامه خاشعاً يرجو منه الهداية والمعونة . فلم تقدر السفارة هذا المعنى السامى ولم تدرك ما تنطوى عليه شعائر الصلاة من هيبة وجلال . فضلا عن ذلك دل أفراد السفارة على عقليتهم البدائية حين استهوتهم مظاهر كنيسة القسطنطينية وأبهة ثياب القسس وما إلى ذلك . وإن هذا التقرير ينهض دليلا على أن الدين الإسلامى يحق خاتم الأديان السماوية ، وكان لابد لليهودية والمسيحية أن تمهدا له السبيل ، وتهيئا الأذهان لقبول تعاليمه السامية

ووجدوا بين المسيحيين الكاثوليك طقوساً دينية خالية من الأبهة والجلال . وأخيراً بلغوا القسطنطينية حيث زاروا كنيسة أيا صوفيا ، وهناك أخذتهم وأدهشتهم عظمة القداس وفخامة البناء . فكان البطريق يرتدى ملابسه الرسمية الزاهية يحيط به القسس فى ثيابهم الدينية الجميلة ، وزخارف الكنيسة هنا وهناك ، وتتدلى من سقفها المباخر ترسل رائحة ذكية ، فملأ كل ذلك قلوب الروس دهشة وعجباً ، حتى أنهم عندما عادوا إلى بلادهم زينوا لبنى جلدتهم اتباع عقيدة الكنيسة البيزنطية . ولذا جهر ڤلاديمير سنة ٩٨٨ م بالمسيحية وأمر بأن يذعن كافة الروس أغنياء وفقراء لطقوس تلك الديانة(١) .

وبفضل هذا التحول الدينى فى روسيا وجد البيزنطيون منفذاً لمنتجاتهم مزاحمين بذلك المسلمين الذين أقصوا عن الميدان وقل نشاطهم . فتولى أمير كييف حراسة التجار البيزنطيين أثناء مسيرهم فى نهر الدنيبر الجنوبى ، إذ كان يتحتم عليهم نقل بضائعهم إلى البر والسير بها تفادياً للشلالات التى تعترض مجرى ذلك الجزء من النهر ، ومن ثم كانت القبائل المعادية تنتهز هذه الفرصة وتغير على القوافل . وفضلاً عن ذلك اضطلع الروس بمهمة صد خطر بلغار القرم عن اجتياح منطقة خرسون(٢) . وفى مقابل ذلك منحت الدولة البيزنطية سفن الروس عند وصولها المياه الإقليمية للدولة البيزنطية فى البحر الأسود كافة التسهيلات ، كما سمحت للتجار الروس دخول القسطنطينية على شريطة ألا يكونوا مسلحين ، وألا يدخل المدينة أكثر من خمسين شخصاً دفعة واحدة . وفى القسطنطينية يقضى التجار الروس فصل الصيف ، وتهيىء لهم الحكومة المسكن والطعام والحمامات طوال فترة إقامتهم دون مقابل . ومُنِح تجار أمير كييف تسهيلات وامتيازات خاصة وأعفوا من دفع الضرائب

(1) Fisher, A history of Europe, 376,376,. Arnold, op cit, 243,244.

(2) Baynes, op cit, 215.

الجمركية . وعندما يقفل التجار عائدين إلى بلادهم كانت تزودهم السلطات البيزنطية بالمؤن اللازمة وبأدوات السفن الضرورية مثل المراسى والحبال وغيرها (١) .

ولم يلبث الجو أن خلا للروس والبيزنطيين تماماً عندما ظهر فرع من النورمان فى بلاد الروسيا وركبوا نهر الفلجا وخربوا عاصمة الخزر سنة ٩٦٩ م / ٣٥٨ ه . فغدا الروس هم الذين يتوجهون إلى بلاد الخزر وأراضى المسلمين مباشرة حاملين متاجرهم بأنفسهم (٢) . واتبع أولئك التجار الروس وسائل المقايضة فى التجارة فاستبدلوا مثلا بالفراء والشمع الخمور اليونانية والفواكه والمنسوجات (٣) .

تغير الأوضاع التجارية فى البحر الأبيض المتوسط

فى الوقت الذى راجت فيه المتاجر البيزنطية والإسلامية فى بلاد الروس ظهرت قوى جديدة على المسرح التجارى، وأخذت تعمل عملها حتى أودت فى النهاية بالوضع التجارى الذى كان سائداً بين المسلمين والبيزنطيين . وبدأت هذه القوى نشاطها فى ميدان الدولة البيزنطية التجارى ثم انعكس صداه فى الميدان الإسلامى . فكانت المدن الإيطالية ولا سيما البندقية ، التى اعتبرت تابعة إسمياً للدولة البيزنطية حتى القرن التاسع الميلادى ، تسعى حثيثاً فى تثبيت أقدامها وتقوية مركزها والاستقلال بشئونها التجارية عن بيزنطة . وغدا ذلك أمراً ملموساً عند ما أسست البندقية أسطولا مستقلا واتصلت مباشرة بالدولة الإسلامية وتبادلت معها المتاجر . ولم يلبث أن اتضح ضعف هيبة الدولة البيزنطية وإحساسها بهذا المنافس التجارى الجديد

---

(١) Baynes, op cit, 215.

(٢) متز ، نفس المرجع ، ج ٢ ، ص ٣١٥

(٣) Baynes, op cit, 215.

عند ما لم تستطع قوانينها منع تجار البندقية إبان القرن التاسع الميلادى من الاتجار فى الأخشاب والمواد الحربية مع حكام مصر المسلمين [١] . ولم يقتصر الأمر على ذلك ، إذ اضطرت الدولة البيزنطية إلى عقد معاهدة تجارية مع البندقية سنة ٩٩١ م كانت بمثابة اعتراف صريح باستقلال البندقية التجارى [٢]. ولم تلبث الخطوة النهائية فى تلك السبيل أن تمت حينما أبرم الإمبراطور الكسيوس الأول مع البندقية معاهدة سنة ١٠٨٢ م منح فيها تجار البنادقة مطلق الحرية فى التنقل بين أنحاء الدولة دون دفع مكوس (جمارك) ، وذلك فى مقابل مساعدة البندقية للدولة فى حروبها مع النورمان [٣] .

وهكذا كانت الأوضاع فى غرب أوربا آخذة فى التطور منذ القرن الحادى عشر الميلادى ، ولم تعد دولها تنظر إلى الدولة البيزنطية نظرة الإحترام والهيبة التى كانت تبديها نحوها من قبل . وكان العامل الهام الذى حول الشعور الأوربى عن البيزنطيين هو نشوب الحرب الصليبية ، التى دوت أصداؤها بين الشرق والغرب . فقد تنقل الدعاة المسيحيون لهذه الحرب بين دول أوربا يستثيرون الناس بأنباء العقبات التى تضعها الدولة البيزنطية فى سبيل الجيوش الصليبية . ذلك أن الدولة البيزنطية التى رحبت بالجيوش الصليبية بادئ الأمر ألفت الصليبيين الذين اجتازوا أراضيها جموعاً تبغى الفساد فى الأراضى البيزنطية ، فضلا عن أنها لم تعد أداة تستطيع أن تستغلها

---

(١) Heyd, op cit I, 109,110.

أصدر الإمبراطور البيزنطى ليو الخامس (٨١٤ — ٨٢٠ م) قراراً يحظر فيه الاتجار مع المسلمين ، وأذعنت البندقية لتلك القرار مؤقتاً ، إذ استأنفت فى سنة ٨٢٨ م اتصالها التجارى بمصر ، دون رعاية للقرار السابق .

(٢) Runciman, op cit, 168.

(٣) Baynes, op cit, 213.

لاستعادة ما استولى عليه السلاجقة من أراضيها . على أن العوامل الحقيقية التى دفعت القوى الإيطالية على التحمس لهـذه الحروب ومشاركة الصليبيين سخطهم على البيزنطيين ، هى المنافع المادية التى هدفت إلى الحصول عليها من وراء نقل الجيوش الصليبية والرغبة فى القضاء على سيطرة البيزنطيين التجارية . وليس أدل على ذلك من أن البندقية نجحت بفضـل سياستها ونفوذها فى تحويل الحملة الصليبية — المعروفة بالرابعة — عن مقصدها الحقيق ، وهو أنقاذ الأراضى المقدسة ، وحملها على مهاجمة القسطنطينية عروس التجارة البيزنطية (1) . وبسقوط العاصمة البيزنطية فى أيدى الصليبيين سنة ١٢٠٤ م فقدت الدولة البيزنطية مكانتها التجارية ودب الانحلال فى كيانها ، وزالت هيبتها إلى الأبد .

وانعكست آثار هذه الحادثة فى العلاقات التجارية بين المسلمين والبيزنطيين ، إذ لم تستطع بيزنطة أن تنهض من كبوتها ، كما أن الأوضاع الزمنية لم تهيء لها فرصة تقال فيها من عثرتها بعد زوال سيطرة الصليبيين عن القسطنطينية . ذلك أن الصراع بين الدولة البيزنطية والبندقية كان صراعاً بين أرستقراطية بيزنطية متداعية متواكلة وأرستقرطية من التجار البنادقة ، وتمخض عن انتصار الطبقة الأخيرة المغامرة . غير أن دعائم الاقتصاد العالمى الوسيط لم تهتز بزوال عظمة الدولة البيزنطية التجارى ، إذ فتحت الحروب الصليبية أمام أوربا طرقا للاتصال المباشر مع أراضى الدول الإسلامية والحصول على المنتجات الشرقية . فحفلت الإمارات الصليبية فى فلسطين والشام بالتجار الإيطاليين وغيرهم ، الذين اضطلعوا بمهمة النقل التجارى بين الشرق والغرب .

وهكذا ظلت الدولة الإسلامية مقصد طلاب المتاجر الشرقية على حين اضمحل

---

(1) Baynes, op cit, 218,
Runciman, op cit, 169.

عميلها الأول القديم . فأعلنت الدولة البيزنطية إفلاسها ، وانتقلت الأبهة والثراء اللذان تمتعت بهما القسطنطينية قروناً طويلة إلى مدن البحر الإدرياتي ، ودبت روح الحياة نشيطة من جديد بين حوض البحر الأبيض الشرقي والغربي . وغدت هذه المدن الإيطالية الوسيط في نقل المتاجر الشرقية بين الدول الإسلامية وبين أوربا ، وظلت تحتكر هذه المتاجر وطرقها حتى أدى التنازع عليها إلى البحث عن طرق جديدة كانت إيذاناً بعهد الكشوف الجغرافية [1] وفجر العصر الحديث .

---

(١) ذلك أن احتكار البنادقة ودولة المماليك في مصر للمتاجر الشرقية شجع على كشف البرتغاليين طريق رأس الرجاء الصالح .

الفصل الخامس

مقارنات بين المجتمع الإسلامى والمجتمع البيزنطى
فى العصور الوسطى

التبادل الثقـــافى

مراكز الاتصال الثقافى

عاشت الدولتان الاسلامية والبيزنطية عيشة جارين ، تخاصما حينا ، وجنحا إلى السلم أحيانا ، تحمل العلاقات بينهما جميع معانى الحياة بما فيها من أخذ ورد ، وضر ونفع . فلم تقم الدولتان بينهما سداً منيعاً يجعل كلا منهما تحيا فى واديها الخاص بها ، وأنما كانت المسالك بينهما مطروقة تزخر بالركبان التى حملت ما يمكن حمله من نتاج الدولتين العلمى والثقافى ، وجهدت على حفز الدولتين على التمسك بأهداب حسن الجوار رغم ما ينشب بينهما من خصام ونزاع . وكان الميدان الثقافى أول حلبة دربت فيها أفكار الدولتين على التعاون معاً فى بناء صرح مدنياتهما ، والتفاهم على ما فيه النفع العام . فكان أمامهما مورد واحد نهلا منه ، وتآزرا على الأفادة منه بما يهيىء لهما حياة هنية . وكان ذلك الينبوع الذى استقى منه المسلمون والبيزنطيون وألف بين عقلياتهماوقرب بينهما ، هوتراث الثقافة الهلينية «اليونانية» .

التقى المسلمون بهذه الثقافة فى الولايات البيزنطية وبعض الأراضى الفارسية التى بسطوا سلطانهم عليها . فما أن دخلت أرض الجزيرة والشام ومصر فى رحاب الدولة الاسلامية ، حتى أقبل العرب الغزاة يرتشفون من مناهل حضارتها

الهلينستية[١] التى كانت تشع من مراكزها الثقافية الزاهرة ، مثل أنطاكية فى الشام ، وقيصرية وغزة فى فلسطين ، والاسكندرية بصفة خاصة فى مصر . وأضحت هـذه المدن بعلمائها ومدارسها ومتاحفها وجوها المشبع بالحياة الفكرية والحياة الهلينستية ركناً هاماً فى صرح الدولة الإسلامية .

وإذا كان المسلمون قد وضعوا أيديهم على شطر ثمين من الثقافة اليونانية ، فإن الدولة البيزنطية احتفظت بنصيب الأسد منها فى بلادها . ذلك أن أراضى الدولة البيزنطية المطلة على حوض البحر الأبيض المتوسط الشرقى كانت — قبل ظهور الإسلام — الوطن الأصلى للثقافة اليونانية ، وحامية ذمارها من تأثير حضارة الغرب[٢] . غير أن المسلمين لم يلبثوا أن عملوا على تنمية نصيبهم من هذا التراث الثقافى معتمدين على جهودهم الخاصة ، ثم استعانوا بالدولة البيزنطية فيما تراءى لهم بعد ذلك من نواحى المعرفة .

أقبل المسلمون بحماسة على نقل التراث اليونانى إلى اللغة العربية ، إذ كان على هذا التراث أن يصبح عربياً إسلامياً أولا وقبل كل شىء . ومن ثم بدأت حركة

---

(١) تطلق هذه الكلمة على طابع الفكر والحضارة القديمة فى العصر الذى بدأ بفتح الإسكندر للشرق (٣٣٦ ق) . ويمتاز هذا العصر بامتزاج الفكر اليونانى بالروح الشرقية ، مما جعل هذه الحضارة تختلف بعض الشىء عن حضارة اليونان القديمة . ثم أخذت هـذه الحضارة تنمو وتمتد حتى ضمت بلاد الشرق الأدنى من قلب فارس إلى الإسكندرية ، وأدت إلى ظهور المدارس الفلسفية فى مدن بلاد الشرق ، انظر :

حسين مؤنس ، الشرق الإسلامى فى العصر الحديث ، ص ٦

(٢) حاولت روما بعد أن بسطت سلطانها على البلاد المطلة على حوض البحر الأبيض الشرقى أن تفرض عليها حضارتها اللاتينية . لكن ثقافة هذه البلاد الهلينستية كانت ثابتة الأركان لا تستطيع الحضارة اللاتينية مزاحمتها . كذلك ظلت اللغة اليونانية تغلب على هذه البلاد على الرغم من محاولات بعض أباطرة الرومان تشجيع اللغة اللاتينية . ولذا عندما ظهرت القسطنطينية وغدت عاصمة للامبراطورية البيزنطية كانت رقعة هذه الإمبراطورية تضم حضارة هلينستية بعيدة عن مؤثرات الغرب ، وتابعت بيزنطة حماية هذا التراث .

الترجمة لتعريب الكتب اليونانية ، كما عربت من قبل النظم الإدارية وسجلاتها فى البلاد المفتوحة . واضطلع بهذه المهمة أولئك الذين حملوا مشعل الحضارة الهلينستية قبل ظهور الإسلام . على أن الغموض يكتنف نشاط هذه الطبقة المستنيرة وجهودها فى بعض الولايات ، على حين توجد معلومات كثيرة عنها فى أقاليم أخرى[١] . فمدرسة الاسكندرية مثلا كانت لا تزال قائمة زمن الفتح العربى ، وكانت المدرسة اليونانية الوحيدة إذ ذاك ، ولكن الأخبار عن مجهوداتها ناقصة وغير دقيقة[٢] . أما من ناحية أخرى فإن المراجع تفيض بذكر جهود علماء المراكز الثقافية فى كل من الشام والعراق .

فقد ازدادت عناية المسلمين بالثقافة اليونانية فى الشام ، ولا سيما بعد انتقال مدرسة الاسكندرية إلى مدينة أنطاكية فى عهد الخليفة الأموى عمر بن عبد العزيز . ولا يعرف تماما السبب فى اضمحلال مدرسة الاسكندرية بهذه السرعة ، ولكن يمكن أن يعزى ذلك إلى أن الاسكندرية فقدت أهميتها بعد أن اتخذ العرب عاصمتهم فى الفسطاط ، وأضحت المدينة فى عزلة تامة عن مركز السيطرة والسلطان[٣] . فكان قيام الدولة الأموية فى الشام وعلو نجم الأمويين وعاصمتهم دمشق حافزاً على انتقال مركز العلم والعرفان إلى موطن حكمهم . وأخذ بعض الخلفاء والأمراء الأمويين يشجعون رعاياهم الضليعين فى العلوم الإغريقية على متابعة جهودهم . وقربوا إلى بلاطهم من يمكن الاستفادة بهم كالأطباء ، حتى أضحت الشام تربة صالحة تنقل إليها معارف مدرسة الاسكندرية . فينسب إلى خالد بن يزيد بن معاوية اهتمامه بعلم الكيمياء ، واستدعاؤه بعض العلماء من الإسكندرية وتكليفهم ترجمة

---

(١) عبد الرحمن بدوي ، التراث اليونانى ، ص ٦

(٢) نفس المرجع ، ص ٣٨

(٣) نفس المرجع ، ٦٨

الكتب اليونانية التى تناولت هذا الموضوع[١] .

وفى عهد مروان بن الحكم ترجم طبيب فارسى الأصل يدعى « ماسارجويه » سنة ٦٨٣ م كتابا فى الطب من السريانة إلى العربية ، ولكن هذا الكتاب كان موضوعا فى الأصل باللغة اليونانية وينسب إلى أحد علماء الاسكندرية ويدعى أهرون[٢] . وأخيرا نقل عمر بن عبد العزيز مدارس الطب من الاسكندرية إلى أنطاكية[٣] .

وهكذا كانت الرعاية المبكرة التى أولاها بعض خلفاء بنى أمية للعلوم الإغريقية سبباً فى إنعاش المراكز الثقافية لتلك العلوم فى الشام وتجديد نشاطها القديم . فكانت أنطاكية مركزاً لثقافة يونانية زاهرة ، أشرف عليها اليعاقبة قبل ظهور الإسلام . ولكن أصابها الإضمحلال قبل استيلاء العرب عليها (سنة ٦٣٨م ١٧ هـ) . فقد خربها الفرس أثناء غزوهم للشام قبل ظهور الإسلام ، ثم أكملت الزلازل ما أحدثه الفرس بهذه المدينة . غير أن نقل مدرسة الأسكندرية إليها بعث فيها ماء الحياة من جديد ، وظلت تزهو وتزدهر زمن الأمويين رغم وقوعها فى منطقة الأطراف القلقة الأوضاع بين الدولتين الإسلامية والبيزنطية . ذلك أن موقع أنطاكية سهل جلب المخطوطات من آسيا الصغرى والإشراف على حركة تبادل المراجع التى كانت ناشطة فى فترات السلام التى تخللت الحروب ، والتى دفع عليها الرغبة فى تكوين مكتبات جديدة أو دعم أخرى قائمة من قبل[٤] . وظلت مدرسة أنطاكية زاهرة نحواً من ١٣٠ أو ١٤٠ سنة ، حيث انتقلت بعد ذلك إلى مدينة حران بالعراق الأعلى فى عهد الخليفة المتوكل (٨٤٧ — ٨٦١م / ٢٣٢ — ٢٤٧هـ).

---

(١) Hitti, op cit, 255.

(٢) Hitti, op cit, 255.

(٣) ابن أبى أصيبعة ، طبقات الأطباء ، ج ١ ، ص ١١٦

(٤) بدوى ، نفس المرجع ، ص ٦٩

وتم نقل هذه المدرسة إلى حران على يد تلميذين لا يعرف إسمهما تتلمذا على أستاذ كان فى أنطاكية لا يعرف إسمه كذلك ، وحمل هذان التلميذان معهما مكتبة أنطاكية إلى حران (١) .

ولم يكن مستغرباً أن تخلف حران مدينة أنطاكية ، إذ كانت مركزاً هاماً للثقافة اليونانية فى المنطقة التى تتكلم أهلها اللغة السريانية (الأرامية الشرقية) ، كما كانت كذلك مركزاً للتبادل والإتصال الثقافى . ومما يدل على ما لها من أهمية قديمة أن آخر الخلفاء الأمويين ، وهو مروان الثانى ، نقل مقر خلافته حيناً إلى هذه المدينة . وكان أهلها وثنيين يعبدون الكواكب ، حتى غدوا نتيجة تأملاتهم وملاحظة السماء أساطين الدراسات الفلكية . وفى عهد المأمون فى أوائل القرن التاسع الميلادي (الثالث الهجرى) ، نجوا من الحكم الذى صدر بالقضاء عليهم حين أعلنوا أنهم ذرية الصابئة من العرب القدماء ، وعرفوا منذئذ بذلك الأسم (الصابئة) .

وكانت مدينة حران تسمى « هلينوبوليس » أى مدينة اليونانيين لتقدم العلوم اليونانية بها ، وإن كان هذا الاسم أطلق على أهلها بدافع السخرية والاحتقار (٢) . وأشهر علماء هذه المدرسة ثابت بن قرة ، الذى ترجم إلى العربية عدداً من الكتب الفلكية والرياضية التى وضعها إقليدس وثيودوسيوس وبطلميوس . وظلت مدرسة حران زاهرة نحواً من أربعين سنة حيث ارتحل الفلاسفة والعلماء منها إلى بغداد فى خلافة المعتضد (٨٩٢ — ٩٠٢ م / ٢٧٩ — ٢٨٩ هـ) ، ومن هؤلاء العلماء ثابت بن قرة الحرانى الذى رحل إلى بغداد لخلاف قام بينه وبين أبناء دينه . وفى بغداد لفت الأنظار إليه بنشاطه العظيم فى الترجمة ، واتخذه الأمير المعتضد ، قبل أن

---

(١) بدوى ، نفس المرجع ، ص ٦٩ — ٧١

(٢) بدوى ، نفس المرجع ، ص ٧٠

يصبح خليفة ، صديقاً له . وبقى ثابت دائماً عالماً منكباً على البحث والإستقصاء والاشتغال بالترجمة (١) .

تبادل العلوم والعلماء

وإذا كان الخلفاء المسلمون بذلوا جهداً عظيما فى إحياء التراث اليونانى فى بلادهم فإنهم أدركوا تفوق الحضارة البيزنطية ، وأن ليس فى استطاعتهم سد الفراغ فى التراث اليونانى الذى غدا فى متناولهم دون الاستعانة بالدولة البيزنطية والإستفادة من نشاطها الثقافى . فبيزنطة ورثت القسط الأوفر من مؤلفات الأساتذة اليونان القدامى ، وأبدت القسطنطينية عناية وغيرة شديدة فى الإحتفاظ بهذا الكنز الذى لا يقدر بثمن . وبلغ تقديس البيزنطيين لمؤلفات أسلافهم حداً دفعهم إلى دراستها عن طريق التعليقات والشرح وتجنب أى تغيير فيها قد يؤدى إليه البحث والإستقصاء . وتجلت هذه النزعة البيزنطية بصفة خاصة فى ميدان الأدب حيث غلب طابع المحاكاة والتقليد للنماذج القديمة على كل من حاول الاندفاع فى التأليف أو نحا نحو التجديد (٢) .

ويمكن أن نلمس بشكل واضح بداية الاتصال الثقافى بين المسلمين والبيزنطيين منذ قيام الدولة العباسية ، ونشاط حركة الترجمة فى عهدها . فعلى الرغم من قيام هذه الدولة على أكتاف الفرس وازدياد التأثيرات الفارسية فى نظمها الاجتماعية فإن خلفاءها لم يغفلوا أهمية بيزنطية ومركزها فى الميدان الثقافى . ومن ثم كان الخلفاء العباسيون يرسلون فى طلب بعض الكتب النادرة من بيزنطة التى لم تضن بها ما دام ذلك فى نطاق التعاون الثقافى أو تبادل المعرفة . فمن ذلك أن الخليفة أبا

---

(١) بدوى ، نفس المرجع ، ص ٧١ ، ٧٢

(٢) Baynes, op cit, 164-166.

جعفر المنصور بعث إلى إمبراطور الدولة البيزنطية يطلب كتباً يونانية ، وأن الإمبراطور أجابه إلى طلبه وأرسل إليه كتباً من بينها كتاب إقليدس[١] .

ويرجع إلى عهد المنصور أولى المحاولات للترجمة من اليونانية ، وممن اضطلع بذلك أبو يحيى بن البطريق الذى ترجم الكتب الكبيرة لجالينوس وأبقراط . على أن كثيراً من الكتب التى ترجمت فى ذلك الوقت أعيد ترجمتها أو مراجعتها فيما بعد زمن الرشيد والمأمون[٢] .

واستحوذ المسلمون كذلك على كثير من الكتب اليونانية الهامة إبان إغاراتهم المتكررة على الدولة البيزنطية . فكانت إغارات هارون الرشيد على آسيا الصغرى لا تهدف إلى السلب والنهب والعودة محملة بالغنائم فحسب ، وإنما رمت كذلك إلى الإستيلاء على كنوز البيزنطيين الأدبية والعلمية ، وإفادة الدولة الإسلامية منها. وقام بمهمة ترجمة هذه الكتب التى جلبها الرشيد من حملاته على أنقرة وعمورية يحيى بن ما سويه الذى ترجم بعضها مما كان يبحث فى الأمور الطبية[٣] .

وبلغت حركة الاتصال الثقافى بالبيزنطيين أقصاها فى عهد الخليفة المأمون ، الذى كان من أنصار حرية الرأى ، ومشايعاً لمذهب المعتزلة[٤] ، الذين نادوا بأن النصوص الدينية يجب أن توافق أحكام العقل . فحدا ذلك المأمون إلى دراسة المراجع الإغريقية الفلسفية باحثاً فيها عما يمكن أن يؤيد آراءه . وأسس فى بغداد سنة ٨٣٠م بيت الحكمة المشهور للأشراف على حركة ترجمة الكتب اليونانية . وكان هذا

---

(١) ابن خلدون ، المقدمة ، ص ٤٠١

(٢) Hitti, op cit, 311.

(٣) Hitti, op cit, 310,311.

(٤) المعتزلة فرقة اسلامية فلسفية ترى أن الايمان هو العلم، وأن النظر العقلى من الواجبات المفروضة على المسلمين - وقد نال هذا المذهب تأييد الخلفاء العباسيين من أيام المأمون إلى عهد المتوكل .

المعهد يضم مكتبة ومجمعاً علمياً ولجنة للترجمة . ويعتبر هذا العمل خطوة جليلة ورعاية عظيمة من المأمون لتغذية العلوم الإسلامية بشتى معارف اليونان (١) . فقد كانت حركة الترجمة حتى زمن ذلك الخليفة حرة يقوم بها أفراد من المسيحيين ، وممن اعتنقوا الإسلام حديثاً كذلك ، تحت إشراف بعض كبار رجال الدولة من محبي العلوم والفنون . ومن أمثال هذه الحركة الأخيرة الجهود الذى قام بها أبناء شاكر الثلاثة ، إذ شملوا بعنايتهم المترجمين وشجعوا كثيراً من البحوث العلمية الخاصة . ومما يشهد لهم بالذكر الحسن فى هذا المضمار أنهم احتضنوا حنين بن أسحق الذى غدا شيخ المترجمين فيما بعد . وكانوا أصحاب الفضل فى إظهار مواهبه ، إذ أوفدوه على نفقتهم إلى بعض البلاد التى تتكلم اليونانية ليجيد هذه اللغة وليحصل على المخطوطات القيمة المدونة بها . وكانوا يجزلون العطاء لحنين بن أسحق ، الذى كان يتناول منهم ٥٠٠ دينار شهرياً (نحواً من ٢٥٠ جنيهاً(٢)) .

ولم يغفل المأمون أهمية الاتصال الثقافى بالدولة البيزنطية وجلب المراجع الإغريقية منها . فراسل الإمبراطور ليو الأرمنى (٨١٣ ـ ٨٢٠م) يطلب منه السماح للسفارات الإسلامية بالحصول على المصنفات اليونانية القديمة فى الفلسفة والهندسة والطب . وقبل الإمبراطور طلب المأمون الذى أوفد إذ ذاك جماعة من أشهر علماء عصره ، منهم الحجاج بن مطر وابن البطريق وصاحب بيت الحكمة إلى القسطنطينية . فاختار هؤلاء المبعوثون ما راق لهم من المراجع وقفلوا عائدين بهذه الكنوز الثمينة إلى بغداد ، وهناك كان قسطا بن لوقا يشرف على ترجمة هذه المراجع الإغريقية(٣) . ومما يجدر بالملاحظة فى هذا الصدد أن معظم الذين اضطلعوا بترجمة

(١) Hitti, op cit, 310.

(٢) Hitti, op cit, 312,313.

(٣) ابن النديم ، الفهرست ، ص ٣٣٩ ، ٣٤٠ ، حسن إبراهيم حسن ، تاريخ الإسلام السياسى ، ج ٢ ، ص ٢٧٣

الكتب اليونانية كانوا من السريان ، أى المتكلمين باللغة الآرامية الشرقية [١] . ومن ثم كانوا يعمدون إلى ترجمة المراجع اليونانية إلى السريانية أولا ومنها إلى العربية ، فكتاب الهرمنطيقا (Hermeneutica) لأرسطو ترجم أولا من اليونانية إلى السريانية على يد حنين ، ثم ترجمه أسحق بن حنين من السريانية إلى العربية [٢] .

ولم يكن مستغرباً أن تكون القسطنطينية قبلة أنظار الخلفاء العباسيين ، إذ شاهدت الدولة البيزنطية فى القرن التاسع الميلادى وهو عصر المأمون نهضة ثقافية فى الآداب والعلوم . فأحيا برادس أعظم رجال الدولة البيزنطية إذ ذاك ، والمتصرف الحقيق فى شئون الدولة ، جامعة القسطنطينية القديمة ، وعين لها أساتذة فى الهندسة والفلك وفقه اللغة [٣] . على أن أعظم شخصية بيزنطية فى القرن التاسع الميلادى ، هو الإمبراطور ثيوفيل . وقد عاصر الخليفة المأمون ، وكانت القسطنطينية فى عهده تنافس بغداد فى الأبهة وفى حلبة الثقافة ، وكانت مدارسها وجامعتها القبلة التى جذبت أنظار العلماء المسلمين إليها . وجهدت بغداد فى استدعاء مشاهير العلماء البيزنطيين إليها ، فمن ذلك أنه عاش فى القسطنطينية فى عهد الإمبراطور ثيوفيل عالم مشهور فى الرياضيات اسمه ليو ، وذاع صيت هذا العالم فى الخارج ووصل إلى الدولة الإسلامية عن طريق تلاميذه . فلما ترامى إلى المأمون نبأ هذا العالم البيزنطى

---

(١) دى بور ، تاريخ الفلسفة فى الإسلام ، (ترجمة أبو ريدة) ص ٢١
كان السريان الوسطاء فى نقل الثقافة اليونانية من الإسكندرية وأنطاكية ونشرها فى الشرق ، فى مدارس الرها ونصيبين وحران وجنديسابور . وعصر ترجمتهم للكتب اليونانية يمتد من القرن الرابع إلى القرن الثامن الميلادى تقريباً . واشتهر النساطرة بالدقة والأمانة فى النقل ، حتى أن العرب الذين حملوا لواء الإسلام اعتبروا اللغة السريانية أقدم اللغات وأكثرها صحة . ولذلك كان معظم الذين اشتغلوا بنقل كتب اليونان إلى العربية فيما بين القرنين الثامن والعاشر الميلادى من السريان .

(٢) Hitti, op cit, 312,313.

(٣) Baynes, op cit, 162.

أرسل إليه يستدعيه إلى بلاطه وأغراه بأجزال العطاء له . لكن الإمبراطور ثيوفيل علم بهذه الدعوة ، فمنح ليو وظيفة معلم فى إحدى كنائس القسطنطينية ، وقرر له راتباً شهرياً . على أن حرص المأمون على هذا العالم البيزنطى دعاه إلى إيفاد رسالة شخصية إلى الإمبراطور يطلب فيها السماح بإيفاد ليو إلى بغداد لمدة قصيرة ، وذكر فى رسالته أنه يعد قبول الإمبراطور هذا الطلب عملا ودياً ، وأنه يعرض لذلك ألف قطعة من الذهب وعقد صلح دائم . غير أن ثيوفيل رفض إجابة طلب المأمون ، ولا سيما أن الدولة البيزنطية اعتبرت علم ليو واختراعاته التى كان يقوم بها من الأسرار التى ينبغى ألا يطلع عليها المسلمون[١] .

وتبادل العلماء المسلمون والبيزنطيون كذلك الزيارات لمشاهدة الآثار ذات القيمة التاريخية فى بلديهما ، ومنحت السلطات فى كل من الدولتين أولئك العلماء جميع التسهيلات لأداء مهمتهم . فأرسل الخليفة الواثق سنة (٧٤٢ — ٨٤٧ م / ٢٢٧ — ٢٣٢ هـ) أحد العلماء المسلمين إلى مدينة إفيسوس لمشاهدة الكهوف التى كان محفوظاً فيها جثث الشبان السبعة الذين استشهدوا أيام دقلديانوس ، وأذن الإمبراطور ميخائيل الثالث للعالم الإسلامى بالقيام بهذه الزيارة كما أوفد معه رجلا يؤدى مهمة الدليل[٢] . ولم ينقطع الاتصال الثقافى بين المسلمين والبيزنطيين حتى القرون الأخيرة من حياة الإمبراطورية البيزنطية . فيذكر بسلوس (Psellus) أحد المؤرخين البيزنطيين ، ومن مشاهير فلاسفة الدولة ، وأعظم رجال السياسة فى البلاط فى القرن الحادى عشر الميلادى ، أن طلاباً من المسلمين تعلموا على يديه وكان من بينهم طالب من العراق نفسها[٣] .

---

(1) Bury, The Eastern Empire, 336-438.

(2) Byzantium, 319,

انظر الملحق ٤ .

(3) Runciman, opcit, 292.

صدى الأحداث السياسية فى آداب الدولتين

إذا كانت الاتصالات الثقافية بددت سحب الأوهام المخيمة على عقول المسلمين والبيزنطيين وجعلت كلا منهما ينظر إلى صاحبه بمنظار صادق جلى ، فإن أحداث حروبهما وكذلك دوى حركاتهما المحلية تردد صداها فى آداب الدولتين وفلسفتيهما فى الحياة . فأدت الاصطدامات المسلحة بين الطرفين إلى امتلاء آدابهما بالقصص والأشعار التى تمجد البطولة والبسالة وتشيد بالأقدام والمغامرة ، وأضحى كثير من الرجال الذين تناولتهم هذه الآداب شخصيات أسطورية ، لها قوة خارقة للعادة ، ومقدرة على أداء أعمال مدهشة . فالمراجع العربية تشيد بمحارب مسلم اسمه عبد الله البطال وتمجد مغامراته فى حروبه ضد البيزنطيين . وكان هذا المغامر المسلم كبير حراس مسلمه بن عبد الملك الذى حاصر القسطنطينية سنة ٧١٧ م . فقد أبدى عبد الله البطال من ضروب الأقدام والشجاعة ما أكسبه لقب بطل الإسلام . وظل على جهاده حتى استشهد فى معركة اكرونيون بآسيا الصغرى ، سنة ٧٤٠ م[1] .

وكذلك خلدت الأشعار البيزنطية أعمال أبطالها الذين لقوا حتفهم فى الحروب ضد المسلمين . فوضعت ملحمة تشيد ببطولة أحد الأشخاص ويدعى ديجينيس اكريتاس (Digenis Akritas) . وكان والد هذا المغامر مسلماً تحول إلى المسيحية ودخل خدمة الدولة البيزنطية . وقام ديجينيس نفسه بغارات سلب ونهب على أطراف الحدود الإسلامية فى القرن الثامن الميلادى خارج نطاق الجيوش البيزنطية النظامية ، وإن كان قد سهم فى بعض الأحيان فى العمليات الحربية لهذه الجيوش . وتصور هذه الملحمة كثيراً من الوقائع وحياة المحاربين على الحدود الإسلامية البيزنطية .

---

(1) Byzantium, 319,320.

ومن الطريف أنه حدث خلال تلك الإغارات المتكررة زواج بين أفراد الدولتين ، وأن الاتصال بينهما لم ينقطع رغم نشوب العداء . على أن ديجينيس لقى حتفه فى آسيا الصغرى سنة ٧٨٨ م ، ودفن هناك حيث يوجد قبره بالقرب من مدينة سميساط (١) .

وتعتبر ملحمة ديجينيس اكريتاس وغيرها من ملاحم البطولة البيزنطية مصدراً غنياً عن العلاقات الثقافية بين بيزنطة والإسلام . وفوق ذلك تردد صدى أحداث إغارات المسلمين على بيزنطة فى القرن التاسع الميلادى فى الأغانى الشعبية التى دارت حول أحداث مناطق الحدود . ففيها تصوير لانتصارات المسلمين ولا سيما غارة عمورية وتخريبها على يد المعتصم سنة ٨٣٨ م / ٢٢٣ هـ (٢) .

وسجل الشعراء المسلمون أيضاً أنباء حروبهم وانتصاراتهم على البيزنطيين . ففى عهد الرشيد نرى الشعراء يمجدون انتصاراته ويشيدون ببطشه وشدة انتقامه من الأعداء (٣) . كذلك صور الشعراء المهم من إغارة الإمبراطور ثيوفيل على زبطرة سنة ٨٣٧ م ، وألهبوا ببيانهم الهمم للأخذ بالثأر (٤) . فخرج المعتصم للانتقام وخرب عمورية ، التى خلد ذكر حملتها الشاعر المشهور أبو تمام فى إحدى قصائده

---

(١) Runciman, op cit, 182,292.

(٢) Byzantium, 320.

(٣) ومن ذلك قول أبي العتاهية حين خرب هارون الرشيد مدينة هرقلة انتقاماً من الإمبراطور نقفور الأول :

ألا نادت هرقلة بالخراب … من الملك الموفق للصواب
غدا هارون يرعد بالمنايا … ويبرق بالمذكرة القضاب
ورايات يحل النصر فيها … تمر كأنها قطع السحاب

(٤) فقد دخل إبراهيم بن المهدى على المعتصم وأنشده قصيدة يذكر فيها ما حل بزبطرة من نكبات :

يا غارة الله قد عاينت فانتهكى … هتك النساء وما منهن يرتكب
هب الرجال على إجرامها قتلت … ما بال أطفالها بالذبح تنتهب ؟

الرائعة (١) . على أن عصر الحمدانيين فى شمال الشام يمدنا بالأدلة الواضحة على أثر الحروب الإسلامية البيزنطية فى الأدب الإسلامى ، إذ اشتهر سيف الدولة الحمدانى بإغاراته المتكررة على أرض البيزنطيين ، كما اشتهر بمجالس الأدب التى عقدها ، والتى أنشدت فيها قصائد المتنبى (٢) وأبى فراس الحمدانى (٣) تمجيداً لبطولته وبسالته فى الحروب . وضمت هذه المجالس الأدبية كذلك ابن نباته (المتوفى سنة ٩٨٤م) ذلك الخطيب البليغ . فكان لعظاته ذات الفقرات التى صيغت فى قالب من السجع أثر كبير فى إثارة حماس مستمعيها وحثهم على الاشتراك فى الجهاد ضد البيزنطيين .

ويلاحظ فى استعراض آداب الدولتين أن كثيراً من الكلمات العربية انتقلت إلى اليونانية . وكذلك دخلت كلمات يونانية اللغة العربية نتيجة الاتصال المتبادل . ولكن هذه الكلمات المنقولة سواء العربية منها أو اليونانية أخذت صوراً محرفة بدرجة يصعب معها معرفة الأصل الحقيقى للكلمة . على أننا يمكن أن نتلمس أثراً لمثل هذه الكلمات المنقولة وتعريبها فى التراجم الأولى التى قام بها المسلمون . فعندما اعترضت المترجمين قطعة صعبة ، عمدوا إلى ترجمتها حرفياً ، فإذا لم يجدوا مرادفاً عربياً نقلوا اللفظ اليونانى بحروفه مع إدخال شىء من التغيير عليه (٤) . ومن ذلك

---

(١) فى هذه القصيدة يقول أبو تمام :

السيف أصدق إنباء من الكتب ... فى حده الحد بين الجد واللعب

يا يوم وقعة عمورية انصرفت ... عنك المنى حفلا معسولة الحلب

(٢) قال المتنبى يصف انتصار سيف الدولة فى إحدى إغاراته وقتله الأعداء :

بناها فأعلى والقنا تقرع القنا ... وموج المنايا حولها متلاطم

وكان بها مثل الجنون فأصبحت ... ومن جثث القتلى عليها تمائم

(٣) قال أبو فراس الحمدانى يصف حملة لسيف الدولة أسر فيها شخصية بيزنطية كبيرة :

وآب بقسطنطين وهو مكبل ... تحف بطاريق به وزرازر

وولى على الرسم الدمستق هاربا ... وفى وجهه عذر من السيف عاذر

(٤) De Lacy O'Leary, How Greek Science Passed to the Arabs, 160.

كلمات « أرثماطيق » حساب ، و « جومطريق » هندسة . . . الخ ، التى ترى فى التراجم العربية الأولى .

وليس أدل على ترديد الحركات الداخلية فى الدولتين مما كان صدى لآثار الاتصال الثقافى بينهما من المشكلة اللاإيقونية ، التى ظهرت فى الدولة البيزنطية فى القرن الثامن الميلادى . فيتجلى فى هـذه الحركة مبلغ التأثير الإسلامى فى تفكير الإمبراطور ليو الثالث ، الذى أشعل فتيلتها الأولى . فإلى جانب الأسباب الساسية التى دفعت ذلك الإمبراطور إلى تحريم عبادة الصور والإيقونات ، وإصداره المرسوم المشهور سـنة ٧٢٦ م ، كان للديانة الإسلامية وجالياتها العديدة فى أرض الدولة البيزنطية أثر كبير على هذه الحركة . فالمسلمون يحرمون تقديس الصور وأشباهها من مخلفات القديسين ، ونشأ الإمبراطور ليو وقضى حياته الأولى فى بيئة إسلامية يسودها هذا الاعتقاد .

ويبدو أن مسألة تقديس الصور كانت شائعة كذلك عند المسيحيين التابعين للدولة الإسلامية . ذلك أن الخليفة الأموى يزيد بن عبد الملك أمر فى سنة ٧٢٣م/ ١٠٤ هـ بكسر الصلبان وإزالة الصور والتماثيل من كنائس المسيحيين فى الدولة الإسلامية . ويلاحظ أن هذا القرار صـدر قبل منشور الإمبراطور ليو بثلاث سنوات [١] . على أن الدولة الأموية لم تكم بذلك العمل حرية رعاياها المسيحيين فى الاعتقاد بأهمية الصـور . ففى عهد الخليفة يزيد نفسه قام حنا الدمشقى ، أعظم رجال الـكنيسة الشامية التابعة للدولة الإسلامية بالرد على سياسة الإمبراطور « ليو » اللاإيقونية . وكتب ثلاث مقالات مشهورة ردّ فيهـا على الذين يحطون من شأن الصور المقدسة ، وغدت هذه المقالات سلاحاً ماضياً فى أيدى البيزنطيين الذين دافعوا

---

(1) Byzantium, 316.

عن الإيقونات [١] .

أثر النظم البيزنطية فى تكوين الدولة الإسلامية

لم يقتصر المسلمون على التزود من معين الثقافة اليونانية والإفادة منها فحسب ، وإنما أخذوا عن البيزنطيين كذلك ثمار تجاربهم الطويلة فى ميدان النظم الإدارية والحربية . ويلاحظ أن موقف الدولة الإسلامية فى هذا الصدد كان سلبياً ، إذ حافظت على النظم الإدارية فى ولاياتها التى كانت خاضعة من قبل للبيزنطيين ، وأبقت فى المرحلة الأولى من الفتوح على هيئة العمال التى خدمت البيزنطيين [٢] . ولم يجد الحكام المسلمون غضاضة فى الاستعانة بخبرة عمال يجلبونهم من بيزنطة نفسها ؛ حتى إنه يمكن القول أن الدولة البيزنطية ساهمت بنصيب كبير فى بناء الحضارة الإسلامية . وهذه الروح الإسلامية الواسعة الأفق هيأت للمسلمين إمبراطورية زاهرة يسود رقعتها الهدوء والنظام ، وتحلى جنباتها العمائر والمنشآت .

وتتجلى فى مصر والشام عناية المسلمين فى الاحتفاظ بالأوضاع البيزنطية واتخاذها أساساً لإدارتهم . فظلت الوظائف الإدارية فى مصر تسير على النهج البيزنطى ،

---

(١) حنا الدمشقى أحد العلماء المسيحيين البارزين فى ميدان الثقافة اليونانية . ورغماً عن أنه لم يكن يونانياً ، وإنما كان سورياً يتكلم الآرامية ، فإنه كان يجيد اللغتين اليونانية والعربية ، وكتب بهما . وكانت أسرة حنا من المخلصين للدولة الإسلامية ، فكان منصور بن سرجيون جد حنا ممن سهل للمسلمين فتح مدينة دمشق ، وتولى إدارة الشئون المالية لهذه المدينة زمن الفتح العربى . وتولى والد حنا هذا المنصب كذلك ، وكان حنا نفسه نديماً ليزيد بن معاوية . ووضع حنا كتباً فى العقيدة المسيحية والجدل القائم حولها ، وكذلك فى التاريخ والفلسفة ، وفى الخطابة والشعر . ويعتبر حنا بفضل هذه المؤلفات أشهر رجال الكنيسة المسيحية التابعة للدولة الإسلامية .

(٢) De Lacy O'Leary, How Greek science passed to the Arabs, 135, Hitti, op cit, 246.

DO NOT TRIM

ذلك أن مهام الحاكم البيزنطى العام الذى أطلق عليه سيمبولوس (Symboulos) غدت فى أيدى عامل إسلامى لقب بالأمير ، وكان يشرف على شئون الوجهين البحرى والقبلى كما فعل سميه أيام السيادة البيزنطيه . وساعد هذا الأمير فى أعماله كاتب عن كل قسم من قسمى الدولة عرف باسم «صاحب» وهو مرادف Chartularius فى اللغة اليونانية . كذلك قسم الوجهان إلى « كور » كانت هى الأقاليم التى عرفت فى العهد البيزنطى باسم Pagarchies . وكان المهيمن على شئون الكورة يدعى «صاحب الكورة» وهو مرادف للكلمة Pagarchos . وظل دولاب العمل يسير على نسق الأداة الحكومية البيزنطية ، فكل قرية من قرى الكور احتفظت بسجل فيه أسماء دافعى الضرائب وممتلكاتهم ، وكذلك أرباب المهن والحرف . وكانت هذه السجلات تعد بمساعدة كبار رجالات القرى الذين عرفوا فى العهد البيزنطى باسم موزايت (Mezones) ، وبعد أن تنتهى السلطات المحلية من إعداد السجلات كانت ترسلها إلى العاصمة حيث تعتمدها السلطات العليا هناك [١].

أما فى الشام فقد احتفظ المسلمون بالتقسيم الإدارى الذى كان سائداً من قبل زمن البيزنطيين ، وكان هذا النظام ذا طابع خاص يجمع فيه حاكم الإقليم إلى جانب مهامه المدنية سلطات حربية . فأبقى المسلمون على هذا الوضع وأطلقوا على الأقسام إسم الأجناد (جمع لكلمة جند) ، وهى تسمية مشتقة من كلمة جند أو فرق الجيش التى كانت تحت تصرف حاكم الإقليم . وبذلك أضحت الأقسام الإدارية بالشام كما يلى :

١ — فلسطين الأولى « Palestina Prima » ، التى كانت تشمل الهضبة اليهودية ، أطلق عليها جند فلسطين وصارت عاصمته « الرملة » .

---

(١) Bell, Greek Papyri in the British Museum, iv, 17,18,
Nabia Abbott, The Kurrah papyri, 99,100.
سيده إسماعيل كاشف ، مصر فى فجر الإسلام ، ص ٢٨ ، ٢٩

٢ — فلسطين الثانيـــة « Palestina Secunda » ، التى كانت تضم الجليلى والجزء الغربى من البتراء صارت جند الأردن وعاصمته « طبرية »

٣ — فلسطين الثالثة «Palestina Tertia» ، التى كانت تضم البتراء العربية دخل جزء منها فى جند دمشق وجزء آخر فى جند فلسطين .

٤ — فينيقيا الأولى « Phoenicia Prima » وفينيقيـا الثـانية أو لبنان « Ad Libanum » أصبحت تـكون جميعاً جند دمشق الـكبير .

٥ — سوريا الثانية « Syria Secunda »، وهى الجهات الواقعة شمالى جند دمشق قسمت بين جند حماه وجند حمص .

٦ — سوريا الأولى « Syria Prima » ، أصبحت جنـــد حلب أو جند قنسرين[١] .

على أن المسلمين أثروا بدورهم فى نظم الدولة البيزنطية الإدارية ، كما تجلى أيام أسرة الإمبراطور « هرقل » . فقد أدى قيـام الدولة الإسلامية إلى جـوار الإمبراطورية البيزنطية ، وهجومها المتواصل على أراضيها إلى تدعيم النظم الجديدة التى وضع أسسها هرقل للاحتفاظ بمـا تبقى من إمبراطوريته . فبعد سقوط الشام فى أيدى المسلمين وتراجع جيش هرقل إلى آسيا الصغرى ، غدا هذا الأقليم محط عناية الأباطرة لمواجهته للحملات الإسـلامية المتـكررة ، ولأنه أصبح أهم مورد للدولة تجند منه جيوشها ، وتجبى منه ثروتها . ولذلك اقتضى الدفاع عن آسيا الصغرى أن تـكون بلادها على تمام الأهبـة فى أى وقت لصد الإغارات الإسلامية . فوزع الأباطرة فيالق (Themata) من الجيش[٢] على جهات من آسيا الصغرى تعسكر

(١) Le Strange, Palestine under the Muslims, 26.

(٢) Bury, History of the later Roman Empire II, 248.
أنظر ص ٣٩ حاشية ٣ من هذا الـكتاب لمعرفة أصل هذا النظام الذى اكتمل على عهد أسرة هرقل والأسرة الإيسورية .

فيها بصفة دائمة . ولترغيب الجند فى الاستقرار بأماكنهم منحتهم الإمبراطورية قطعاً من الأرض يستغلونها ويتمتعون بخيراتها . كذلك منح قائد الفيلق فى الإقليم سلطات مدنية واسعة . وبذلك أضحت آسيا الصغرى مقسمة إلى أقاليم حربية يقيم بكل منها فيلق من الجيش (Thema) ، ويجمع قائد ذلك الفيلق فى يده أعباء الحاكم المدنى فضلاً عن مهام الأشراف على الفيلق نفسه . وبالتدريج أعطت الفرق الحربية أسماءها للأقاليم التى أقامت فيها(١) . ويطلق « المسعودى » على هذه الأقاليم البيزنطية اسم « البُنُود » . وربما جاءت تلك التسمية من الرايات أو البنود التى اتخذتها الفيالق فى الأقاليم شعاراً لها .

وقد عقد المسعودى مقارنة بين بنود الدولة البيزنطية وأجناد الشام قائلا : « أرض الروم واسعة فى الطول والعرض آخذة فى الشمال بين المشرق والمغرب ، مقسومة فى قديم الزمن على أربعة عشر قسما : أعمال مفردة تسمى البنود كما يقال : أجناد الشام ، كجند فلسطين ، وجند الأردن ، وجند دمشق ، وجند حمص ، وجند قنسرين ، غير أن بنود الروم أوسع من هذه الأجناد وأطول(٢) » .

النظام الحربى

منذ أن اشتبكت القوات الإسلامية بالجيوش البيزنطية فى الشام وقادة المسلمين يعملون على اقتباس أساليب البيزنطيين فى القتال وفى تعبئة جندهم . ولم يبدأ العصر الأموى إلا وقد كانت جيوش الدولة الإسلامية تسير وفق القواعد الحربية البيزنطية فقسمت وحدات الجيش خمسة أقسام : قلب وجناحان ومقدمة ومؤخرة ، وتشابه جند المسلمين والبيزنطيين فى الزى والدروع . وكانت نفس السروج التى يضعها

---

(١) Runciman, op cit, 88.

(٢) المسعودي ، التنبيه والإشراف ، ص ١٥٠

المسلمون على جيادهم بسيطة مدورة على نسق السروج البيزنطية . كذلك استخدم كل منهما من آلات الحرب الثقيلة العرادة والمنجنيق والدبابة أو الكبش .

واتبع العباسيون الأساليب البيزنطية كذلك فى تقسيم فرق الجيش ولا سيما فى عهد المأمون والمستعين . فكل عشرة جنود كانت تحت قيادة « عريف » وهو « الديكريون » (decurion) فى الجيش البيزنطى ، وكل خمسين عريفاً تحت قيادة خليفة ، وكل مائة خليفة تحت إشراف قائد وهو « السكنتريون » (Centurion) فى النظام البيزنطى . وكانت كل عشر فرق — وتعدداها عشرة آلاف — تحت إمرة أمير (جنرال) ، وقد سميت هذه الفرق المجتمعة باسم « كردوس[١] » .

وكانت مقدرة الجيوش الإسلامية على التحرك سريعاً وتعبئة قواتها فى وقت قصير من الأمور التى كفلت لهم التفوق على البيزنطيين . وأثنى أباطرة الدولة البيزنطية على حسن نظام الجيوش الإسلامية ودقة خططها وإحكامها . فوصف الإمبراطور قسطنطين بورفيروجنيتوس (Constantine Porphyrogennetus) (٩١٣ — ٩٥٩م) شجاعة المسلمين قائلا : إنهم مغامرون ميالون إلى الحرب بحيث لو أن ألفاً منهم احتل موضعاً غداً من المستحيل إخراجهم منه ، وأنهم يحبون ركوب الإبل ويفضلونها على الخيول[٢] . وكان البيزنطيون كذلك يدونون ملاحظاتهم على سلوك الجند الإسلامى والأحوال التى تعرقل حركاتهم . فكان المحارب المسلم يمقت الجو الممطر البارد ، وإذا كسرت خطوطه الدفاعية فقد التعاون وساده الاضطراب[٣] . ولكن رغماً عن ذلك تفيض الكتب التى دونها البيزنطيون عن حروبهم مع المسلمين بتمجيد المحارب المسلم وعلو روحه المعنوية .

أما عن الأسطول الإسلامى فكان مشابهاً تماماً للأسطول البيزنطي . وأوضحت

(1) Hitti, op cit, 226,328.
(2) Ibid, 329.
(3) Ibid, 329.

لنا أوراق البردى التى كشفت فى السنوات الأخيرة مدى استعانة المسلمين بخبرة أهالى البلاد المفتوحة فى بناء الأساطيل . وكانت مصر هى العمود الفقرى للأسطول الإسلامى ولا سيما فى عهد الأمويين . فقد زودت الدولة الإسلامية بالسفن والعتاد والرجال والمؤن ، كما تجلت مواهب المصريين البحرية التى وضعوها فى خدمة المسلمين فى نيل الانتصارات الباهرة المبكرة التى أضيفت إلى قائمة الفتوحات الإسلامية . ولا غرابة أن يكون المصريون وأهل الشام عصب الأسطول الإسلامى ، وقادته الذين ساروا به إلى الفوز والفلاح ؛ فقد مرنوا على أساليب حياة البحار وفنون القتال فيه منذ تبعيتهم للدولة البيزنطية ، وللدولة الرومانية الكبرى كذلك من قبل .

وبنيت السفن الإسلامية على الطراز البيزنطى ، وكانت غالباً ذات طابقين : الأسفل مخصص للجدافين ، والأعلى للمقاتلة . وكان على ظهر كل سفينة عدد من المراسى يقال لكل منها أنجور ، وهو نفس اللفظ اليونانى . ولاحظ البيزنطيون أن المسلمين يميلون إلى الضخامة فى بناء سفنهم ، ولكن شهدوا ببراعتها فى القتال . وكانت المعارك البحرية نادرة الوقوع فى عرض البحر ، وإنما جرت بين الطرفين قرب الموانى والجزر . وغدا البحر الأبيض المتوسط فى القرن العاشر الميلادى ميداناً اصطدمت فيه سفن المسلمين بالبيزنطيين ؛ ووصف الأصطخرى حالة البحر الأبيض المتوسط إذ ذاك قائلا : « وليس فى البحار أحسن حاشية من هذا البحر فإن العمارات فى الجانبين ممتدة غير متقطعة . . . وتتردد فيه سفن المسلمين والروم ، يعبر كل فريق إلى جانب الآخر سواء فيغنمون ، وربما اجتمع فيه الجيوش من المسلمين والروم فى السفن فيجتمع لكل فريق مائة سفينة حربية وأكثر من ذلك ، فيكون حربهم فى الماء ، وهذه صفة هذا البحر وما يكون فيه [1] » .

---

(١) الإصطخرى ، المسالك ، ص ٧١

تبـــادل الزيارات

ساعد المسلمين على تنظيم أحوالهم الإدارية تلك الخبرات والتقارير التى كان يدلى بها رجالهم الذين شاهدوا بلاد الدولة البيزنطية . ويلاحظ فى هذا الصدد تفوق المسلمين على البيزنطيين فى ميدان الرحلات وتدوين تقارير عن مشاهداتهم . فلم يكن البيزنطيون مولعين بالرحلات ، وتفتقر كتبهم إلى أوصاف المدن الإسلامية وأحوالها . ولكن على النقيض من ذلك تفيض كتب المسالك التى وضعها الجغرافيون المسلمون فى العصور الوسطى بشرح الطرق المؤدية إلى بلاد الدولة البيزنطية وإلى عاصمتها ، والمحطات الممتدة على هذه الطرق . واستمد أولئك الجغرافيون معلوماتهم من المسلمين الذين شاهدوا بلاد الدولة البيزنطية وكانوا موضع ثقة وأهل خبرة ودراية . ومعظم المسلمين الذين دونوا أوصافاً لأحوال الدولة البيزنطية من كبار الأسرى ، الذين حملتهم السلطات البيزنطية إلى العاصمة . فمن ذلك أمدنا « مسلم بن أبى مسلم الجرمى » أحد الأسرى المسلمين الذين أطلق سراحهم فى فداء سنة (٢٣١ هـ / ٨٤٥ م) بقائمة عن التقسيمات الإدارية للدولة البيزنطية التى تسمى « البنود » ، كانت المادة الأساسية التى بنى عليها جغرافيو المسلمين معلوماتهم فى هذا الصدد (١) .

كذلك كان أول رحالة مسلم وصف القسطنطينية هو « هارون بن يحيى » أحد الأسرى الذين نقلوا إلى القسطنطينية ، فى عهد الإمبراطور باسل الأول (٨٦٧ — ٨٨٦ م) ، أو الإمبراطور إسكندر (٩١٢ — ٩١٣ م) . فوصف طريق البحر الذى حمل فيه إلى القسطنطينية ، كما وصف ما رآه بعينيه فيها من الأبواب والملعب والقصر الإمبراطورى . ووصف أيضاً موكب الإمبراطور

---

(١) انظر ص ٩٨ من الكتاب

إلى الكنيسة وما بالعاصمة من أديرة . ويمدنا وصف « هارون » بمعلومات جليلة عن طبوغرافية القسطنطينية مما أفاد منه المسلمون كثيراً [١] .

وتتجلى أوضح مظاهر تبادل الطرفين الزيارات فى السفارات التى كان يوفدها كل فريق لعقد هدنة أو صلح أو إجراء مفاوضات لإطلاق سراح الأسرى . وكان يتولى مهمة الإشراف على هذه السفارات ديوان الإنشاء فى الدولتين ، وهو أشبه بوزارة الخارجيه فى المصطلح الحديث . وكان صاحب ديوان الإنشاء (أو وزير الخارجية) يزود السفير بتعليماته ويلقنه ما يجب عليه مراعاته فى أثناء زيارته للبلد المتوجه إليها ؛ كل ذلك وفق قواعد مقررة ونظم مرعية لاستقبال السفراء . ودونت هذه التعاليم فى مرجع بيزنطى هام لا يماثله أى مؤلف عربى ، ويسمى كتاب المراسيم « De Ceremoniis » ؛ وينسب هذا الكتاب إلى الإمبراطور « قسطنطين السابع » الملقب « بورفيروجينيتوس » ، وشرح فيه لابنه التقاليد (أو البروتوكول) الواجب اتباعها فى البلاط البيزنطى .

على أنه لم يكن للدولتين ممثلون دائمون أو دور سفارات فى الخارج على نحو ماهو معروف فى العصر الحديث [٢] ، وإنما أوفدت الدولتان عمالا مخصوصين يؤدون مهمة السفراء عندما تقتضى الظروف ، ويختارون من الضليعين فى اللغتين اليونانية والعربية . وكان أولئك السفراء يضعون تقارير تحفظ فى ديوان الإنشاء وعلى هديها تحدد الدولة سياستها الخارجية [٣] . والعادة المتبعة فى هذه السفارات سواء الإسلامية أو البيزنطية أن تخرج على رأس قوافل محملة بالهدايا الثمينة والجوهرات لولى البلاد وبعض كبار رجال دولته [٤] . وحالما يصل السفير إلى العاصمة سواء

(١) انظر الملاحق ١

(٢) Runciman, op cit, 156.

(٣) Baynes, op cit, 74.

(٤) Runciman, op cit, 158.

بغداد أو القسطنطينية يلقن آداب مقابلة ولى البلاد وأساليب التحية التقليدية ، ويحدد له يوم للتشرف بمقابلته .

وكان موظفو ديوان الإنشاء يجتهدون فى منع السفير من الاتصال بأى شخص أومقابلة أحد من رجال الدولة لا ترغب السلطات فى اجتماعه بالسفير. ويوضع السفير كذلك ، دون أن يشعر ، تحت رقابة شديدة حتى يعود إلى بلاده دون أن يرى شيئاً أو يطلع على أمر لا تود السلطات كشفه له[1] . على أن السفير كان يحاول فى فترة الاستعداد للمقابلة اكتساب صداقة أصحاب النفوذ والحظوة فى البلاد . فمن ذلك أن السفير البيزنطى « نقفور أورانيوس (Nicephorus Uranius) عندما أوفد إلى بغداد سنة ٩٨٠م زود بتعليمات تنصحه بخطب ود عضد الدولة أعظم شخصية فى الدولة الإسلامية حينئذ[2] . وعندما يحين يوم المقابلة يجلس الخليفة أو الإمبراطور فى أبهى حلة فى قاعة الاحتفالات مستقبلا السفير الذى يخصص له غالباً مكان ممتاز عن سائر سفراء الوفود الأخرى . ذلك أن سفراء الدولتين الإسلامية والبيزنطية كانوا يعاملون طبقاً للمراسيم معاملة ممتازة ويقدمون على سفراء الدول الأخرى . ويوضع للسفير برنامج خاص يقف به على مظاهر العظمة والأبهة فى الدولة ؛ فأحيانا يقام له عرض عسكرى شامل تعرض فيه الدولة قوتها الحربية ، أو يقوم السفير بمشاهدة معالم العاصمة ووسائل الترفيه فيها . ويظل السفير طوال إقامته ضيفاً على البلاط .

فمن أمثلة البرامج التى أعدتها الدولة الإسلامية لسفراء بيزنطة ما حدث فى سنة ٩١٧م / ٣٠٥هـ حين استقبل الخليفة المقتدر فى قصره سفير الإمبراطور قنسطنطين السابع . فقد أمر الخليفة بعرض الجند على جانبى الطريق الذى يسير

---

(1) Runciman, op cit, 157.

(2) Ibid, 158.

فيه السفير ، وبلغ عدد من اشترك فى هذا العرض نحو من مائة وستين ألف فارس. ثم أخذ السفير يطوف بالقصر ويشاهد ما به من خزائن الثياب والسلاح ، واستعرض كذلك دور الوحوش التى كان من بينها دار فيها أربعة فيلة مزينة ، ودار أخرى بها مائة سبع ، وانتهى السفير إلى دار يقال لها دار الشجرة ، أعجبته أكثر من غيرها من المشاهدات . فكان فى هذه الدار شجرة من الفضة وزنها خمسمائة ألف درهم ، وهى تقوم وسط بركة مدورة صافية الماء ، وللشجرة ثمانية عشر غصناً ، لكل غصن أهداب كثيرة عليها الطيور والعصافير من كل نوع مذهبة ومفضضة وأكثر قضبان الشجرة فضة وبعضها ذهب ، وهى تتمايل فى أوقات لها ، وللشجرة ورق مختلف الألوان يتحرك كما تحرك الريح ورق الشجر ، وكل من هذه الطيور يصفر ويهدر . وعندما حان ميعاد المقابلة دخل السفير على الخليفة الذى كان جالساً على سرير فى « قصر التاج » ، لابساً الثياب المطرزة بالذهب وحوله عقود من الأحجار الكريمة . وبعد أن انتهت المقابلة خرج السفير إلى دار الضيافة بالقرب من القصر (١) .

أما الدولة البيزنطية فكانت تعهد إلى بعض موظفيها باصطحاب السفير لرؤية كنيسة أيا صوفيا ، وقناطر المياه والأديرة القائمة حول القسطنطينية ، والحفلات الرياضية التى كانت تقام فى الملعب (Hippodrome) (٢) . وكان مظهر السفراء المسلمين ينم على اعتداد بالنفس وحرص على عدم غض الطرف عن أى مظهر يحتمل أن يحط من قدرهم أو من شأن دولتهم . ففى سنة (٢٤٦ هـ / ٨٦٠ م) بعث الخليفة المتوكل سفيراً يدعى « نصر بن الأزهر » إلى القسطنطينية إجابة لطلب الإمبراطور « ميخائيل الثالث » للاتفاق على إجراء فداء بين الأسرى . وحين

---

(١) الخطيب البغدادى ، تاريخ بغداد ، ج ١ ، ص ١٠٠ — ١٠٥

(٢) انظر الملاحق ، ص ١٧٩

وصل السفير الإسلامى إلى البلاط البيزنطى كان متشحاً بالملابس السوداء ، وعلى رأسه القلنسوة ، اللباس الرسمى للعباسيين ، ومتمنطقاً سيفاً وخنجراً . فأبى القائم بأمور الإمبراطور (أو وزير الخارجية) ، وكان إذ ذاك بتروناس عم الإمبراطور ، أن يسمح للسفير بالدخول قاعة الاستقبال على هذه الهيئة ، وأبدى اعتراضه بصفة خاصة على الملابس السوداء وعلى السيف . على أن النخوة أو الحمية دبت فى نفس السفير الإسلامى وغضب وهم راجعاً . فاضطر رجال الدولة البيزنطية إلى ملاطفته حتى عاد إلى البلاط ودخل على الإمبراطور حيث قدم له الهدايا . ويروى لنا السفير ما حدث له وما رآه فى البلاط البيزنطى فى هذه الصورة الطريفة : « . . . وأبوا أن يدخلونى بسيفى وسوادى ، فقلت أنصرف ، فانصرفت ، فرددت من الطريق ومعى الهدايا نحواً من ألف نافجة مسك وثياب حرير وزعفران كثير وطرائف . . . . وحملت الهدايا التى معى فدخلت عليه (أى الإمبراطور) ، فإذا هو على سرير فوق سرير ، وإذا البطارقة حوله قيام ، فسلمت ثم جلست على طرف السرير الكبير وقد هيىء لى مجلس ، ووضعت الهدايا بين يديه[(١)] » .

وكان مع الإمبراطور ثلاثة مترجمين كانوا ينقلون حديث السفير ، الذى تجلت كياسته ومهارته حين حذر المترجمين من الإطناب فى نقل الكلام قائلا لهم : « لاتزيدوا على ما أقول شيئاً[(٢)] » . وعندما تمت المفاوضات واتفق الطرفان على قواعد تبادل الأسرى ، أقسم كل منهما على الوفاء بتعهداته . فأقسم بتروناس نيابة عن الأمبراطور ، وهنا تظهر لباقة السفير الإسلامى مرة أخرى حين التفت إلى الأمبراطور وقال : « أيها الملك قد حلف لى خالك ، فهذه اليمين لازمة لك ! » فأجاب الأمبراطور برأسه نعم . وعلق السفير على ذلك بقوله : « ولم أسمعه (أى

(١) الطبرى ، نفس المرجع ، ج ١١ ، ص ٦١

(٢) نفس المرجع ، ص ٦١

الامبراطور) يتكلم بكلمة منذ دخلت بلاد الروم إلى أن خرجت منها ، وإنما يقول الترجمان وهو يسمع ، فيقول برأسه نعم أو لا ، وليس يتكلم ، وخاله المدبر أمره[(١)] » .

السياسة الدينية

من الأمور التى اضطلعت بها بعض السفارات التى تبادلتها الدولتان الاسلامية والبيزنطية حمل السلطات الحاكمة فى الدولتين على إعادة النظر فى بعض قرارات تفرض على اتباع دين من الأديان من رعاياها اتخاذ سمة خاصة بهم . على أن هذه المعاملة الدينية التى لجأت إليها الدولتان أحياناً لم تقم على نوع من التعب الدينى بين المسلمين والمسيحيين ، وإنما استهدفت كل دولة من وراء هذه القوانين الدينية التى فرضتها خدمة مصالحها السياسية والحصول على امتيازات أدبية . فالمعروف أن أولى الأمر فى الدولة الاسلامية عاملوا رعاياهم من غير المسلمين على هدى تعاليم الدين الاسلامى السامية التى تنص على أن لا إكراه فى الدين . وتجلت روح التسامح الدينى فى الدولة الاسلامية فى المعاملة الحسنة التى تمتع بها المسيحيون بصفة خاصة ، وما وصل إليه كثير منهم من مراتب عالية فى الادارة الاسلامية .

كذلك عاملت الدولة البيزنطية المسلمين الذين وفدوا إليها معاملة ممتازة تكشف عما كانت تكنه للدولة الاسلامية وجالياتها من احترام وتقدير . وهذه السياسة فريدة فى تاريخ الدولة البيزنطية الدينى ، إذ عاملت الدولة البيزنطية من قبل رعاياها من أصحاب المذاهب الدينية المخالفة لمذهب الدولة الرسمى على أنهم « هراطقة » خارجون على قوانين الدولة ويستحقون أشد أنواع التنكيل والتعذيب .

غير أن هذه السياسة البيزنطية الدينية اتخذت لوناً آخر بظهور دولة الاسلام ،

---

(١) الطبرى ، نفس المرجع ، ج ١١ ، ص ٦١

ودخول كثير من المسيحيين فى التبعية لها . فاعتبرت الامبراطورية البيزنطية نفسها القوة المسيحية الكبرى التى وكل إليها رعاية المسيحيين فى بلاد المسلمين والدفاع عن مصالحهم . ويبدو أن أولئك الرعايا المسيحيين نسوا ما لاقوه من تعسف الدولة البيزنطية واضطهادها من جراء الخلاف المذهبى الذى ساد بينهم قبل ظهور الاسلام ، إذ اعتبر المسيحيون بطريق القسطنطينية الملاذ الذى يتوجهون إليه إذا ما مسهم ضر أو إجحاف . على أن الدولة الاسلامية لم تلجأ إلى العنف فى معاملتها المسيحيين إلا فى حالات خاصة نادرة تجلى فيها ميلهم إلى تأييد حركات الدولة البيزنطية الحربية فى أرض المسلمين . ويلاحظ أن عناصر مسيحية أجنبية عن رعايا الدولة الاسلامية المسيحيين هم الذين تسببوا فى كثير من الأحيان فيما نزل باخوانهم فى الدين من تدابير عقابية . ومهما يكن من أمر ذلك فان أشباه هذه القوانين كانت طارئة عارضة ، ولم يستمر العمل بها إلا فترة قصيرة . واستعراض بعض هذه الأمثلة النادرة من المعاملة يوضح الملاحظات السابقة ويبين مدى ما كانت تهدف إليه من النواحى السياسية البعيدة عن التعصب الدينى .

فكان المسيحيون طوال العصر الأموى موضع عطف الخلفاء ورعايتهم ، إذ تزوج معاوية من مسيحية على المذهب اليعقوبى ، تسمى ميسون ، وهى أم يزيد خليفة معاوية . وكان الأخطل شاعر البلاط يدخل على معاوية وينشده القصائد والصليب يتدلى من عنقه . وكان القديس حنا الدمشقى نديما ليزيد بن معاوية ، قبل أن ينصرف فى عهد الخليفة هشام (٧٢٤ — ٧٣٤ م) إلى حياة الزهد والتنسك . ويعطينا القديس حنا مثالا على أن الدولة الاسلامية فى النواحى الدينية رمت إلى مضايقة الدولة البيزنطية وتوسيع هوة الخلاف بين رعاياها . فعندما اشتدت السلطات البيزنطية فى القرن الثامن الميلادى فى معاملة أتباع الصور المقدسة والإيقونات نجد القديس حنا الدمشقى يعارض هذه السياسة البيزنطية . فكتب

فى ظل الخلافة الاسلامية ثلاث مقالات تعد من أروع ما كتب دفاعا عن الصور المقدسة وإجازة تقديسها ، حتى أن المجمع اللاإيقونى فى سنة ٧٥٤ م اتهم حنا بأنه يميل إلى الاسلام . ومما يدعم الحقيقة السالفة أن الدولة الاسلامية سمحت لحنا الدمشقى بالدفاع عن الايقونات فى فترة كانت هى نفسها تناهض حركة تقديس الايقونات فى كنائس رعاياها المسيحيين . ففى سنة ٧٢٣ م / ١٠٤ هـ ، أى قبل تطبيق الدولة البيزنطية لسياستها اللا إيقونية بثلاث سنوات ، أمر الخليفة يزيد ابن عبد الملك بتحطيم الصلبان فى كل مكان(١) ، ومحو الصور والتماثيل من الكنائس فى جميع بلاد الدولة الاسلامية . وبذلك لم تحجم الدولة الاسلامية عن تأييد أى حركة دينية فيها إزهاق للبيزنطيين ولو كانت مما لا تؤمن بها هى نفسها .

وفى عهد الخليفة الأموى عمر بن عبد العزيز صدر قرار يحتم على المسيحيين اتخاذ سمة خاصة بهم ، فيها شىء من الاذلال . فحظر عليهم لبس العمائم وطلب منهم أن يجزوا نواصيهم ، وأن يتخذوا ملابس خاصة تميزهم وأن يعقدوا الزنانير (أى الأحزمة الجلدية) على أوساطهم ، وألا يتخذوا السروج لدوابهم(٢) . ولا يعرف السبب الحقيقى الذى حمل هذا الخليفة التقى على اتخاذ مثل هذه التدابير ، ولكن من المحتمل أن عمر اضطر إلى ذلك العمل إزاء فشل المسلمين فى حصارهم المشهور للقسطنطينية (٨١٧/٨١٨ م) . فربما أبدى المسيحيون نوعا من الشماتة أو الابتهاج حملت السياسة الاسلامية على انتهاج هذه المعاملة ، ولكن مما يدل على أن هذه الاجراءات اتخذت لأسباب طارئة أنها لم تدم طويلا ، إذ أباح العمال المسلمون للمسيحيين فى الولايات الاسلامية العودة إلى حالتهم الأولى .

على أن هذه المعاملة العارضة لم تؤثر فى العلاقات العامة للدولتين ، إذ ليس أدل

---

(١) Byzantium, 316.

(٢) ابن الأثير ، نفس المرجع ، ج ٥ ، ص ٢٥ ، Hitti, op cit, 234.

على احترام كل من الدولتين لديانة الأخرى من العناية التى وجهتها كل دولة إلى ما لزميلتها من بيوت دينية بأراضيها . فسمحت الدولة البيزنطية بأقامة مسجد فى القسطنطينية يقيم فيه المسلمون شعائر دينهم . وترجع الأخبار الأولى لهذا المسجد أيام حصار القسطنطينية (٧١٧ ـ ٨١٨م) على عهد الإمبراطور ليو الإيسورى . فيحتمل أن الدولة البيزنطية أنشأت هذا المسجد فى الفترة المبكرة من علاقتها مع المسلمين ليؤدى فيه الأسرى وغيرهم من الشخصيات الإسلامية الكبرى شعائر دينهم . ذلك أن مسلمة بن عبد الملك اشترط على الإمبراطور إقامة دار خاصة بالقرب من البلاط ، ينزل بها كبار رجال الأسرى من المسلمين . والمعروف كذلك أن الدولة البيزنطية لم تكره الأسرى على تناول لحم الخنزير أو تجبرهم على أمر يخالف السنن الإسلامية(١) . على أن أهمية هذا المسجد واستخدام الدولة البيزنطية له فى خدمة أغراضها السياسية لم تظهر إلا زمن العباسيين والفاطميين .

ومما يجدر بالذكر فى هذا الصدد أن الخلفاء الأمويين استعانوا بالعمال البيزنطيين فى تشييد مساجدهم وتزيينها . فمن ذلك ما فعله الخليفة الأموى الوليد بن عبد الملك الذى طلب من الإمبراطور البيزنطى أن يرسل بعض الصناع لزخرفة جوامع دمشق والمدينة وبيت المقدس بالفسيفساء(٢) ، وأن الإمبراطور أجابه إلى طلبه . وهكذا كانت روائع الفن الإسلامى التى تجلت أول الأمر فى المساجد من وحى البيزنطيين أو جاءت متأثرة بالطراز البيزنطى الفنى ، وبالتالى تحمل هذه الظاهرة أبلغ المعانى على اتساع أفق المسلمين والبيزنطيين . فلم يتردد الأولون فى إكمال بيوت عبادتهم

---

(١) انظر ص ٩٥ من الكتاب

(٢) زكى محمد حسن ، فنون الإسلام ، ص ، ٦٤٣

الفسيفساء كلمة مشتقة من اللغة اليونانية ، ويقصد بها أنواع الزخارف التى تتكون من جمع أجزاء صغيرة متعددة الألوان من الزجاج أو الحجر وتثبيتها بعضها إلى جانب بعض فوق الجص أو الأسمنت .

بأيدى البيزنطيين كما أن الأخيرين كذلك لم يحجموا عن المساهمة فى إظهار عظمة بيوت الله لدى المسلمين .

ويعدنا العصر العباسى الأول بأوضح مثال على أن استخدام الدولة الإسلامية لسياستها الدينية إزاء المسيحيين من رعاياها هدف إلى النيل من الدولة البيزنطية . فى عهد الخليفة هارون الرشيد منحت الخلافة العباسية شرلمان إمبراطور الدولة الرومانية فى غرب أوربا[١] . مفاتيح بيت المقدس وحق رعاية شئون المسيحيين بالدولة الإسلامية . وتعزى هذه الصداقة بينهما إلى الأحوال السياسية التى سادت العالم حينذاك . فقد انقسم الميدان السياسى فى العصور الوسطى فى القرن التاسع الميلادى إلى معسكرين لكل منهما حلفاؤه وأشياعه : الخلافة العباسية فى الشرق تناهض البيزنطيين ، على حين وقفت الخلافة الأموية بالأندلس تعادى إمبراطورية شرلمان التى ظهرت فى غرب أوربا . وهكذا دفعت المصالح كل فريق من هذه القوى الكبرى إلى أن يتقرب إلى الفريق الذى يحقق مصالحه ويقلق راحة أعدائه . وكانت القسمة طبيعية أملتها الملابسات والأوضاع الزمنية ؛ فالخلافة العباسية ناهضت الأمويين فى الأندلس والدولة البيزنطية ، مما دفع الأخيرين إلى التآزر فيما يحقق رغباتهما ، ومن ناحية أخرى وقفت الخلافة الأموية بالأندلس بدورها عدواً مبيناً للخلافة العباسية وإمبراطورية شرلمان ، مما حمل الأخيرين على أن يعقدا بينهما أواصر الصداقة والتحالف . وفعلا تبادل الخليفة هارون الرشيد هو

(١) فى سنة ٨٠٠ م توج شرلمان أحد ملوك الدولة الكارولنجية بفرنسا إمبراطوراً على يد البابا فى روما . واعتبرت هذه الحادثة احياء للدولة الرومانية ، فى غرب أوربا ، وهى الإمبراطورية التى زالت زوالا ماديا من هناك سنة ٤٧٦ م . ولكن يلاحظ أن هذا الإحياء كان إسماً لا فعلا ، دفعت إليه ظروف خاصة ، أهمها اعتبار شرلمان أقوى شخصية فى أوربا من دون الإمبراطور البيزنطى كفيلة برعاية شئون غرب أوربا ، ومصالح البابوية كذلك خاصة انظر :

Barraclough, The Mediaeval Empire, 8,9.

والإمبراطور شرلمان ، فيما بين سنتى ٧٩٧ ، ٨٠٦ م ، السفراء والهدايا . فبعث الرشيد مع سفارته بعض المنسوجات والروائح العطرية ، وقيل ساعة مائية ، وأهم من ذلك إرسال مفاتيح كنيسة بيت المقدس إلى شرلمان(١) ، الذى أصبح راعى المسيحيين والحجاج الذين يفدون إلى فلسطين لأداء مناسك الحج .

وإذا كانت الدولة البيزنطية أجابت على هذا التحالف بتبادل السفارات مع الأمويين بالأندلس ، فإن هارون الرشيد استطاع باستغلال سياسته الدينية والتقرب من شرلمان أن ينال من سمعة الدولة البيزنطية فى وقت ضعف فيه نفوذها كذلك فى غرب أوربا . ذلك أن تتويج شرلمان إمبراطوراً سنة ٨٠٠ م وإحياءه الإمبراطورية الرومانية فى غرب أوربا جاء لطمة قاسية لسمعة الدولة البيزنطية التى اعتبر أباطرتها أنفسهم الممثلين الحقيقيين لتراث الدولة الرومانية الكبرى . ويعتبر هارون الرشيد كذلك أول خليفة عباسى أعاد استخدام الوسائل المجحفة بالمسيحيين . فى سنة ٨٠٧ م أمر هارون الرشيد بهدم كل الكنائس على الحدود الإسلامية البيزنطية ، وفرض على المسيحيين اتخاذ زى خاص بهم(٢) ، أشبه بما اتبع فى عهد عمر بن عبد العزيز . ولعل هذه السياسة ولا سيما هدم الكنائس على الحدود تعزى إلى اشتداد العداوة بين هارون الرشيد والإمبراطور البيزنطى نقفور الأول ، ورغبة الرشيد فى إكمال سياسته فى الحط من شأن الدولة البيزنطية .

على أن هذه السياسة لم تدم طويلاً إزاء المسيحيين ، واستعادت الدولة البيزنطية مكانتها باعتبارها حامية شئون المسيحيين فى الدولة الإسلامية ، ذلك أن إمبراطورية شرلمان اضطربت بعد وفاته واضمحلت سطوتها وتركت الجو خالياً للدولة البيزنطية مرة أخرى . وينهض دليلا على رعاية الدولة البيزنطية الدينية للمسيحيين وما كان

---

(١) جميل نخلة المدور ، حضارة السلام فى دار السلام ، ٢٢٩ — ٢٣١ ،
Hitti, op cit, 298.

(٢) الطبرى ، نفس المرجع ، ج ١٠ ، ص ١٠٠

لجاليتها كذلك من تقدير فى الدولة الإسلامية أنه أطلق على حى المسيحيين فى بغداد اسم « دار الروم » . على أن الاختلافات المذهبية بين المسيحيين من رعايا الدولة الإسلامية لعبت دورها أحياناً فى التقليل من هذا النفوذ البيزنطى . فاستأثر المسيحيون النساطرة بحق إقامة بطريقهم فى بغداد من دون اليعاقبة ، وجهدوا أن يحولوا بين اليعاقبة وبين اكتساب هذا الامتياز . فلجأوا إلى الدس لهذه الطائفة ، موهمين السلطات الإسلامية بأن اليعاقبة موالين للبيزنطيين ، ومن ثم لا ينبغى إقامتهم فى بغداد . وتجلت قدرة النساطرة على ذلك فى سنة ٩١٢ / ٩١٣ م حين نجح البطريق النسطورى فى منع الخليفة من السماح لبطريق اليعاقبة فى نقل مقره إلى بغداد ، متهماً اليعاقبة بالتشيع للبيزنطيين . فظل مقر البطريق اليعقوبى فى أنطاكية ، وإن لم يحل ذلك دون أن تتخذ هذه الطائفة ديراً خاصاً بها فى بغداد ومطرانية فى تكريت بالقرب منها (١) . ويدل على افتراء النساطرة فى حق إخوانهم من اليعاقبة أن بطريق أنطاكية لعب دوراً هاماً فى خدمة السياسة الإسلامية إزاء الدولة البيزنطية . فقد توج هذا البطريق فى عهد الخليفة المأمون الثائر البيزنطى «توماس» إمبراطوراً ليكسبه صفة شرعية فى ثورته ضد الإمبراطور ميخائيل الثانى (٢) .

وكانت سياسة الدولة البيزنطية الدينية إزاء المسلمين صدى لما أرادت تحقيقه من أهداف حربية أو سياسية . وتجلى ذلك إبان فترة توسعها الحربى فى القرن العاشر الميلادى . فانتهزت فرصة انتصاراتها على مناطق الحدود بينها وبين الدولة الإسلامية وعملت على تحويل المسلمين إلى المسيحية إمعاناً فى التأثير فى روحهم المعنوية . ففى سنة ٩٣٤ م / ٣٢٢ هـ عندما استولى الإمبراطور البيزنطى على ملطية ضرب خيمتين على إحداهما صليب وقال : من أراد النصرانية انحاز إلى خيمة الصليب

---

(١) Hitti, op cit, 355.

(٢) انظر ص ٨١ من الكتاب

ليرد عليه أهله وماله ، ومن أراد الإسلام انحاز إلى الخيمة الأخرى وله الأمان على نفسه . فانحاز أكثر المسلمين إلى الخيمة التى عليها الصليب طمعاً فى أهليهم وأموالهم. ومن ذلك أيضاً الكتب التى أرسلها الإمبراطور نقفور فوقاس إلى المسلمين بعد انتصاره فى إقليم الثغور ، وفيها وعيد وسخرية وتعيير . لكن هذه السياسة الدينية لم تنل من نفوس المسلمين الذين لم تضعف روحهم المعنوية رغم هزائمهم ، إذ تقبل المسلمون هذه الحالة بإيمان قوى وفسروا ما حل بهم بأنه دليل على صحة الدين وأنه جزاء لأهله الذين أهملوا أوامره[1] .

وبظهور الدولة الفاطمية أقلع البيزنطيون عن سياسة الحط من شأن المسلمين على مناطق الحدود ، واتخذت سياستهم الدينية مظهراً جديداً يدل دلالة واضحة على الأغراض الحقيقيـة الكامنة وراءها . فجعلت الدولة البيزنطية الدعاء فى جامع القسطنطينية للخليفة الفاطمى دون الخليفة العباسى الذى زالت هيبة سلطانه . فقد وفد على الخليفة العزيز سنة ٩٨٧ م / ٣٧٧ هـ رسل الإمبراطور البيزنطي يطلبون عقد هدنة . وأجاب العزيز طلبهم بعد أن اشترط عليهم عدة شروط قبلوها ، كان منها الدعاء للخليفة الفاطمى بجامع القسطنطينية فى خطبة الجمعة[2] . هكذا استغل البيزنطيون المسجد فى القسطنطينية لتنظيم علاقاتهم بالدولة الإسلامية ، يخطبون فيه للعباسيين تارة وللفاطميين تارة أخرى ، كما جعلوه فى أيديهم وسيلة يردون بها على سياسة المسلمين إزاء الكنائس التى فى بلادهم ، يهدمونه تارة ويعيدون بناءه تارة أخرى حسب ما تقتضيه الظروف . فمن ذلك أن الخليفة الفاطمى الحاكم بأمر الله هدم فى سنة ١٠٠٩ م عدداً من الكنائس المسيحية ومن بينها كنيسة القيامة ببيت المقدس وأكره المسيحيين على أن يلبسوا أردية سوداء ، وأن يعلقوا صلباناً عند ذهابهم إلى الحمامات . ورغما عن ذلك لم يستطع الحاكم التمادى فى هذه السياسة ،

---

(١) أنظر ملحق ٣
(٢) أبو المحاسن ، نفس المرجع ، ج ٤ ، ص ١٥١ ، ١٥٢

إذ خشى المسلمون أن يرد البيزنطيون على ذلك بتحطيم المساجد فى بلادهم . وفى الحقيقة هدم البيزنطيون مسجد القسطنطينية ، واكتفوا بذلك بعد أن كف الحاكم يده عن متابعة سياسته الدينية(١) .

وهكذا ظلت القسطنطينية توجه سياستها الدينية بما يكفل لها مكانة عالية عند المسيحيين من رعايا الدولة الاسلامية . كما ظلت تجذب أنظار أولئك المسيحيين إليها ، فوفد على بلاط القسطنطينية كثير من مسيحيي الدولة الاسلامية عندما واتتهم المناسبات . ففى سنة ١٠١٦ م ذهب بطريق الاسكندرية ثيوفيلوس إلى القسطنطينية وقضى هناك بضعة أسابيع مع الأمبراطور باسل الثانى ، وقام بدور الوساطة بينه وبين البطريق سرجيوس(٢) . كذلك سافر بطريق بيت المقدس بعد وفاة الخليفة الحاكم إلى القسطنطينية سنة ١٠٢٣ م مبعوثاً من قبل السلطات الاسلامية ليعلن للمسيحيين هناك إعادة بناء ما تهدم من كنائس الشام ، وأن المسيحيين يعيشون فى أمان في ظل الخلافة(٣) .

وبعد ذلك بقليل تجددت الاتصالات السياسية بين الفاطميين والبيزنطيين لإعادة بناء ما تهدم من البيوت الدينية من جراء سياسة الحاكم بأمر الله . فعندما تولى الخليفة الظاهر الفاطمى عقدت هدنة بينه وبين الإمبراطور قسطنطين الثامن سنة ١٠٢٧ م / ٤١٨ هـ ، نصت على إقامة الخطبة للخليفة الفاطمى فى مساجد الدولة البيزنطية وإعادة بناء جامع القسطنطينية مقابل إعادة تعمير كنيسة القيامة ببيت المقدس(٤) . وفى الأيام الأولى من خلافة المستنصر بالله الفاطمى تم الاتفاق مع الامبراطور ميخائيل الرابع سنة ١٠٣٦ م / ٤٢٨ هـ على أن يطلق البيزنطيون

---

(١) ابن القلانسى ، ذيل تاريخ دمشق ، ص ٦٧ ، ٦٨

(٢) Runciman, op cit, 292.

(٣) Vasiliev, Hist. de L'Empire Byzantin I, 412,413.

(٤) Runciman, Byzantine Protectorate in the Holy Land, 208.

سراح خمسة آلاف أسير لتعمير كنيسة القيامة(١) . على أن هذه الاتصالات الفاطمية البيزنطية بشأن تعمير بيوتهما الدينية لم يكن معناها إغفال الأسس السياسية المستترة خلفها ، إذ كشفت الدولة البيزنطية عن الأسس السياسية فى علاقاتها الدينية بالمسلمين مرة أخرى عندما غدا السلاجقة أصحاب النفوذ والسلطان فى أرض الخلافة العباسية . فقد أدى تدهور أحوال الخلافة الفاطمية وعلو نجم الخلافة العباسية بفضل السلاجقة إلى إغفال الدعاء باسم الخليفة الفاطمى فى مسجد القسطنطينية ، وذكر اسم الخليفة العباسى بدلا منه فى خطبة الجمعة(٢) .

ومهما يكن من أمر هذه السياسة الدينية التى استغلتها كل من الدولتين الإسلامية والبيزنطية لتحقيق بعض الأهداف والمصالح السياسية ، فإن الأمر الجدير بالملاحظة والاعجاب هو إبتعاد هذه السياسة عن روح التعصب المذهبي البحت ، ومحاولة أنصار كل ديانة القضاء على اتباع الديانة الأخرى . وهذا أمر فريد فى تاريخ العصور الوسطى عامة ، التى نعتها بعض المؤرخين بأنها عصور دين وعصور حرب . فتاريخ الدولتين الإسلامية والبيزنطية يبين أن العصور الوسطى الأولى عرفت أن حياة الإخاء بين بنى الإنسان ضرورة واجبة رغم اختلافهم فى المشارب والنزعات . وتتجلى هذه النظرة السامية فى رسالة بطريق القسطنطينية نيقولا ميستيكوس التى بعثها

---

(١) Runciman, op cit, 208

(٢) المقريزى ، المواعظ ، ج ١ ، ص ٣٣٦

يقول المقريزى أن الخليفة المستنصر أرسل فى شهر ربيع الأول سنة ٤٤٧هـ « أباعبدالله القضاعى برسالة إلى القسطنطينية . فوافى إليها رسول طغريل السلجوقى من العراق بكتابه يأمر متملك الروم بأن يمكن الرسول من الصلاة فى جامع القسطنطينية ، فأذن له فى ذلك ، فدخل إليه وصلى فيه صلاة الجمعة ، وخطب للخليفة القائم بأمر الله العباسى . فبعث القاضى القضاعى إلى المستنصر يخبره بذلك ، فأرسل إلى كنيسة قمامة ببيت المقدس وقبض على جميع ما فيها » .

حوالى منتصف القرن العاشر الميلادى إلى حاكم جزيرة كريت أثناء تبعيتها لسلطان المسلمين :

« إلى الأمجد الأشرف الأعز ، أمير جزيرة كريت ، إن أعظم قوتى العالم أجمع ، قوة العرب وقوة الروم تعلوان وتتألقان كالشمس والقمر فى السماء ، ولهذا وحده يجب أن نعيش إخوة ، على الرغم من اختلافنا فى الطبائع والعادات والدين [1] » .

(1) Vasiliev, op cit I, 405.

ملحق ١

مقتبسات من كتب الجغرافيين المسلمين

لتوضيح

اهتمام المسلمين بالطرق المؤدية إلى القسطنطينية ،

ومدى معرفتهم بأوصاف هذه المدينة

وأحوالها الاجتماعية

دوافع اهتمام المسلمين بمعرفة القسطنطينية والطرق إليها

« ويجب أن نذكر أسباب القسطنطينية ، لأن للمسلمين بها داراً يجتمعون فيها ويظهرون الإسلام بها ، وقد كثر الاختلاف والكذب فيها ، وأمر البلد ومساحة بنيانه ، فرأيت أن أصور ذلك للعيون ، وأوضحه للقلوب ، وأذكر الطرق إليها لحاجة المسلمين إلى ذلك ، وقصدهم في شراء الأسارى والرسالات والغزو والتجارات[1] » .

الطريق البحرى

« ذكر هارون بن يحيى أنه سبي وحمل إلى قسطنطينية على طريق البحر في المراكب من عسقلان ، فساروا ثلاثة أيام حتى بلغوا مدينة يقال لها أنطالية ، وهى مدينة على ساحل بحر الروم ، ثم حملوا منها على البريد مسيرة ثلاثة أيام في الجبال والأودية والمزارع حتى ينتهى بهم إلى مدينة يقال لها نقية ، وهى مدينة عظيمة ، بها ناس كثير ، حتى انتهوا بعد ثلاثة أيام إلى مدينة يقال لها سنقرة ، وهى مدينة صغيرة في صحراء ملساء . قال ثم خرجنا مشاة ، فمشينا في الصحراء وعننتنا ويسرتنا قرى للروم حتى انتهينا إلى البحر في مقدار يومين ، ثم ركبنا البحر فسرنا مقدار يوم حتى انتهينا إلى مدينة قسطنطينية[2] » .

الطريق البرى

درب السلامة والطريق إلى خليج القسطنطينية .

«من طرسوس إلى العلّيق إثنا عشر ميلا . ثم إلى الرهوة ثم إلى الجوزات إثنا

---

(١) المقدسى ، أحسن التقاسيم ، ص ١٤٧

(٢) ابن رسته ، الأعلاق النفسية ، ص ١١٩

عشر ميلا ، ثم إلى الجردقوب سبعة أميال ، ثم إلى البذَندُون سبعة أميال . . . ثم إلى معسكر الملك على حمة لؤلؤة والصفصاف عشرة أميال . . . ومن معسكر الملك إلى وادى الطرفاء اثنا عشر ميلا ، ثم إلى منى عشرون ميلا ، ثم إلى نهر هرقلة إثنا عشر ميلا ثم إلى مدينة اللبن . . . ثم إلى رأس الغابة . . . ثم إلى ربض قونية ثم إلى العلمين . . . ثم إلى عمورية(١) » .

وطريق آخر :

« من العلمين إلى قرى نصر الأفريطى ... ثم إلى رأس بحيرة الباسليون . . ثم إلى السند . . . ثم إلى حصن سنادة . . . ثم إلى معل . . . ثم إلى غابة عمورية . . ثم إلى حصن اليهود . . ثم إلى مرج ممر الملك بَدرَوْلية . . ثم إلى حصن غروبلى ثم إلى كنائس الملوك . . . ثم إلى الأكوار . . . ثم إلى اصطبل الملك . . . ثم إلى الغبراء . . ثم إلى الخليج . . . ونقية بإزاء الغبراء ، ومن نيقية يحمل البقل إلى قسطنطينية(٢) » .

---

(١) ابن خرداذبة ، المسالك ، ص ١٠٠ ، ١٠١

(٢) ابن خرداذبة ، نفس المرجع ، ص ١٠١ ، ١٠٢ ، كثير من المدن السالف ذكرها لا يمكن معرفة اسمائها فى العصر الحاضر ، وما آل إليه أمرها .

صــــفة قسطنطينية

« مدينة قسطنطينية ، وهى مدينة عظيمة ، إثنا عشر فرسخاً فى إثنى عشر فرسخاً ، وفرسخهم على ما ذكر لى ميل ونصف . ويحيط البحر مما يلى المشرق منها ، وغربيها صحراء يؤخذ منه إلى الرومية ، وعليها حصن . والباب الذى يؤخذ منه إلى الرومية من ذهب ، وإلى جانبه ناس من خدمه ، ويسمى باب الذهب[١] ، وعلى الباب تماثيل خمسة على مثال الفيلة ، وتمثال على صورة رجل قائم قد أخذ بزمام تلك الفيلة . ولها باب مما يلى الجزيرة يقال له باب بيغاس ، موضع يتنزه الملك إليه ، وهو باب من حديد[٢] :

« ولقسطنطينية قناة ماء يدخل إليها من بلد يقال له بُلْـغَر[٣] ، يجرى إليها هذا النهر من مسيرة عشرين يوما ، فينقسم إذا دخل المدينة ثلاثة أثلاث ، فثلث يذهب إلى دار الملك وثلث يذهب إلى حبوس المسلمين والثلث الثالث يذهب إلى حمامات البطارقة ، وسائر أهل المدينة فإنهم يشربون الماء الذى بين العذب والمالح[٤] .

« وما وجدناه (أيضاً) من صفة مدينة الرومية ثلاث نواح منها فى البحر المعظم مما يلى القبلة والمشرق والمغرب ، والناحية الرابعة مما يلى البرّ والجربيّة ، يعنى الشمال . وطولها من الباب الغربى إلى الشرق ثمانية وعشرون ميلا ، ولها حائطان من حجارة وبينهما فضاء ستون ذراعا . وعرض السور الخارج ثمان أذرع وسمكه اثنتان وأربعون ذراعا ، وفيما بين السورين نهر يسمى فسطيطالس . . . وفيما بين باب

(١) انظر الصور فى آخر الكتاب .
(٢) ابن رسته ، نفس المرجع ، ص ١١٩
(٣) بلغر ، هى بلاد البلغار انظر ص ١٣١
(٤) ابن رستة ، نفس المرجع ، ص ١٢٦

الذهب إلى باب الملك إثنا عشر ميلا ، وسوق ممتدة من الشرق إلى الغرب مثلثة الاسطوانات ... (وهناك) نقير من نحاس من المغرب إلى المشرق يجرى فيه لسان من البحر ، وتجرى السفن فى هذا النقير بحمولتها ، وتحته حوانيت التجار للشراء والبيع ، فتجىء السفن بما تحمله حتى تقف على حانوت الرجل الذى يبتاع منها . وفى المدينة كنائس ، فجميع ما فيها أربع وعشرون كنيسة ، وثلاثة وعشرون ألف دير عظيم ، وحول سورها ألف ومائتان وعشرون عموداً فيها الرهبان من كل جنس يسهرون الليل كله [١] . وفيها مجامع لمن يلتمس صنوف العلم والحكمة من الرجال مائة وعشرون مجمعاً [٢] » .

---

(١) لجأ بعض الرهبان فى الدولة البيزنطية إلى قضاء حياتهم فوق عمود من أعمدة المبانى الأثرية القديمة يتعبدون ولا يتصلون بالناس . وكان أولئك النساك غالباً فى رعاية الأباطرة وكبار رجال الدولة يمدونهم بما يسد رمقهم .

(٢) ابن رستة ، نفس المرجع ، ١٣٠ ، ١٣٢

وصف الملعب بالقسطنطينية

« بقرب الكنيسة فى وسط المدينة بلاط الملك وهو قصر ، وإلى جانبه موضع يقال له البذرون[(١)] ، وهو يشبه الميدان يجتمع إليه فيه البطارقة ، فيشرف عليهم الملك من قصره فى وسط المدينة ، وقد صور فى القصر أصنام مفرغة من صفر على مثال الخيل والناس والوحوش والسباع وغير ذلك . وعلى غربى الميدان مما يلى باب الذهب بابان ، يسوقون إلى هذين البابين ثمانية من الخيل ، وهناك عجلتان من ذهب يشدّ كلّ عجلة على أربعة من الخيل ، ويركب فوق العجلة رجلان قد ألبسا ثياب متوجة بالذهب ، ويتركها تجرى بما نيط إليها من العجل حتى تخرج من تلك الأبواب ، فتدور على تلك الأصنام ثلاث دورات ، فأيها سبق صاحبها ، ألقى إليه من دار الملك طوق من ذهب ورطل ذهب ، وكل من فى قسطنطينية يشهدون ذلك الميدان ويبصرون[(٢)] » .

---

(١) هذه الكلمة هى اليونانية Hippodrome ، أى الملعب .

يعتبر الملعب بهجة الشعب فى القسطنطينية ، وبدونه تصبح الحياة جافة لا غناء فيها . وفى الملعب كانت تقام مباريات فى سباق العربات . وكان اللاعبون ينقسمون إلى حزبين ، حزب اللون الأزرق وحزب اللون الأخضر ، وكثيراً ما وقفا قبل المباريات يتقاذفون أقذع ألوان السباب والنقائض . ولم يفكر الأباطرة فى وضع حد لهذه الحالة ، لأنهم اعتبروا ذلك صمام أمن تتسرب عنه ما تكبته النفس من عواطف شريرة . وفى الفترة التى تتخلل سباق العربات ، كانت تعرض ألعاب يقوم بها المهرجون والبهلوانات . فنهم من يمشى على الحبل ، ومنهم من يضع عموداً على جبهته ويتسلقه الأطفال . وكان هذا الملعب مورد رزق لعدد كبير من الناس ، كما كان يؤمه الكثير من علية القوم لمشاهدة الألعاب . فكبار رجال الدولة يحضرون فى ملابسهم الموشاه حيث يجلسون فى شرفة خاصة بهم ، أما مقاصير الإمبراطور والامبراطورة فكانت ملتصقة بالقصر ، منفصلة عن الملعب وتشرف عليه من أعلى . وعندما يدخل الامبراطور مقصورته ويرفع غطاء رأسه ويرسم علامة الصليب تبدأ الموسيقى تعزف وكذلك اللاعب .

(٢) ابن رسته ، نفس المرجع ، ص ١٢٠

خروج الملك إلى الكنيسة العظمى التى للعامة

« يأمر بأن يفرش له فى طريقه من باب القصر إلى الكنيسة التى للعامة فى وسط المدينة حصر ، ويطرح فوقها رياحين وخضرة وزين الحائط يمنة ويسرة من ممره بالديباج ، ثم يخرج بين يديه عشرة آلاف شيخ عليهم ديباج أحمر ... ثم يجيء خلفهم عشرة آلاف شاب عليهم ديباج أبيض ... ثم يجيء عشرة آلاف غلام عليهم ديباج أخضر ... ثم يجيء مائة بطريق من الكبار عليهم ثياب الديباج الملون ... ثم يجيء اثنا عشر بطريقاً من رؤساء البطارقة عليهم ثياب منسوجة بالذهب ... ثم يجيء مائة غلام عليهم ثياب مشهرة مرصعة باللؤلؤ يحملون تابوتاً من ذهب فيه كسوة الملك لصلاته ... ثم يجيء رجل شيخ وبيده طشت وإبريق من ذهب ... ثم يقبل الملك ... وخلفه الوزير ، وبيد الملك حق من ذهب فيه تراب ، وهو راجل ، كلما مشى خطوتين يقول الوزير بلسانهم من رمونت ... وتفسيره اذكروا الموت ، فإذا قال له ذلك وقف الملك وفتح الحق ونظر إلى التراب وقبله وبكى ، فيسير كذلك حتى ينتهى إلى باب الكنيسة فيقدم الرجل الطشت والابريق ، فيغسل الملك يده ويقول لوزيره إنى برىء من دماء الناس كلهم لأن الله لا يسألنى عن دمائهم وقد جعلتها فى رقبتك ، ويخلع ثيابه التى عليه على وزيره ويأخذ دواة «بلاطس» وهى دواة الرجل الذى تبرأ من دم المسيح (عم) ، ويجعلها فى رقبة الوزير ، ويقول له دِنْ بالحق كما دان بلاطس بالحق ، ويدور به على أسواق قسطنطينية فينادون به دِن بالحق كما قلدك الملك أمور الناس ...

وفى غربى الكنيسة على عشرة خطى عمود يكون طوله مقدار مائة زراع ... وعلى الباب الغربى من الكنيسة مجلس فيه أربعة وعشرون باباً صغاراً كل باب شبر فى شبر ، معمولة على ساعات الليل والنهار ، فكلما انقضت ساعة انفتحت منها باب من ذات نفسها ، وإذا انغلقت انغلقت من ذات نفسها[١] . »

---

(١) ابن رسته ، نفس المرجع ، ص ١٢٣ — ١٢٦

ملحق ٢

وصف الصوائف والشواتى

على

أرض البيزنطيين

مع

جدول لتوضيح هذه الإغارات وانتظامها

زمن الخليفة الرشيد

أوقات الإغارات الإسلامية

« ... ثم نتبع ذلك بوصف أحد أيام الغزوات ليكون علم ذلك محصلا محفوظاً فنقول ... مما يعرفه أهل الخبرة من الثغريين[١] أن تقع الغزاة التى تسمى الربيعية لعشرة تخلو من أيار[٢] ، بعد أن يكون الناس قد أربعوا دوابهم وحسنت أحوال حقولهم ، فيقيمون ثلاثين يوماً ، وهى بقية أيار وعشرة من حزيران[٣] ، فإنهم يجدون الكلأ فى بلد الروم ممكناً ، وكأن دوابهم ترتبع ربيعاً ثانياً ، ثم يقفلون فيقيمون إلى خمسة وعشرين يوماً ، وهى بقيـة حزيران وخمسة من تموز[٤] حتى يقوى ويسمن الظهر ويجتمع الناس لغزو الصائفة ، ثم يغزون لعشر تخلو من تموز فيقيمون إلى وقت قفولهم ستين يوماً . فأما الشواتى فإنى رأيتهم جميعاً يقولون إن كان لابد منها فليكن مما لايبعد فيه ولايوغل ، وليكن مسيرة عشرين ليلة بمقدار ما يحمل الرجل لفرسه ما يكفيه على ظهره ، وأن يكون ذلك فى آخر سباط[٥] فيقيم الغزاة إلى أيام تمضى من أذار[٦] ، فإنهم يجدون العدو فى ذلك الوقت أضعف ما يكون نفساً ودواب ، ويجدون مواشيهم كثيرة ثم يرجعون ويربعون دوابهم يتسابقون[٧] » .

---

(١) الثغريون هم سكان إقليم الثغور ، أى المناطق المواجهة لأرض العدو .
(٢) مايو .
(٣) يونيو .
(٤) يوليو .
(٥) فبراير .
(٦) مارس .
(٧) قدامه بن جعفر ، نبذه من كتاب الخراج ، ص ٢٥٩

نشاط المسلمين الحربى زمن هارون الرشيد

فى أرض الدولة البيزنطية

٧٨٦م / ١٧٠هـ غزا الصائفة فى هذه السنة سليمان بن عبد الله البكائى . وفيها عمرت طرسوس على يدى أبى سليم فرج الخادم التركى .

وفيها عزل الرشيد الثغور كلها عن الجزيرة وقنسرين ، وجعلها حيزاً واحداً وسميت بالعواصم .

٧٨٨م / ١٧٢هـ غزا الصائفة فيها أسحق بن سليمان بن على .

٧٩٠م / ١٧٤هـ غزا الصائفة عبد الملك بن صالح .

٧٩١م / ١٧٥هـ غزا الصائفة عبد الرحمن بن عبد الملك بن صالح ، فبلغ إقريطية . وأصابهم فى هذه الغزاة برد قطع أيديهم وأرجلهم .

٧٩٢م / ١٧٦هـ غزا الصائفة فيها عبد الرحمن بن عبد الملك ، وفتح حصناً .

٧٩٣م / ١٧٧هـ غزا الصائفة فيها عبد الرازق بن عبد الحميد التغلبى .

٧٩٤م / ١٧٨هـ فيها غزا الصائفة معاوية بن زفر بن عاصم ، وغزا الشاتية فيها سليمان بن راشد .

٧٩٦م / ١٨٠هـ غزا الصائفة فيها معاوية بن زفر بن عاصم .

٧٩٧م / ١٨١هـ غزا الرشيد أرض الروم وافتتح فيها عنوة حصن الصفصاف .

٧٩٨م / ١٨٢هـ غزا فيها الصائفة عبد الرحمن بن عبد الملك بن صالح ، فبلغ إفيسوس ، مدينة أصحاب الكهف .

٨٠٢م / ١٨٧هـ وفيها أغزى الرشيد ابنه القاسم الصائفة ، وولاه العواصم . ودخل القاسم بن الرشيد أرض الروم فى شعبان، يوليو، فأناخ على قُرَّة وحاصرها ، ووجه العباس بن جعفر بن محمد بن الأشعث ،

فأناخ على حصن سنان . فبعث إليه الروم ثلثمائة وعشرين رجلا من أسارى المسلمين على أن يرحل عنهم ، فأجابهم إلى ذلك ورحل عن قرة وحصن سنان .

وفى هذه السنة كذلك نقض الإمبراطور نقفور اتفاقية أيرين مع الرشيد . فخرج الخليفة لقتاله ، ويبدو أن هذه الغزوة كانت شاتية ، لأن نقفور انتهز فصل الشتاء وأقدم على تحدى الخلافة لصعوبة القيام بعمليات حربيـة جدية فى هـذا الفصل . على أن الرشيد لم يأبه بالبرودة وما تكلف من مشاق ونفذ خطته الحربية التى خرب فيهـا مدينة هرقلة .

٨٠٣م / ١٨٨هـ فيها غزا إبراهيم بن جبريل الصائفة ، ودخل أرض الروم من درب الصفصاف . وانهزم الروم وقتل منهم نحواً من أربعين ألفاً وسبعمائة ، وأخذ منهم أربعة آلاف دابة .

٨٠٤م / ١٨٩هـ فيها كان الفداء بين المسلمين والروم .

٨٠٦م / ١٩٠هـ فيها غزا الرشيد بنفسه الصائفة . واتخذ قلنسوة مكتوباً عليهـا « غاز حاج » وفيها فتح الرشيد هرقلة وبث السرايا بأرض الروم . وكان فتح الرشيد هرقلة فى شوال / أغسطس ، وخربهـا وسبى أهلها بعد أن حاصرها ثلاثين يوماً .

وفيها خرجت الروم إلى عين زربة وأسرت كثيراً منها . وفيهـا ولى الرشيد حُميد بن معيوف سواحل بحر الشام إلى مصر . فأغار حميد على قبرص وأعمل فيها الهدم والتحريق ، وسبى من أهلهـا ستة عشر ألفاً .

٨٠٧م / ١٩١هـ وفيها ولى الرشيد غزو الصائفة هرثمة بن أعين قبل أن يوليه على

خراسان ، وضم إليه ثلاثين ألفاً من جند خراسان ، وفيها توجه الرشيد إلى درب الحدث وعهد بالدفاع عنه إلى عبد الله بن مالك .

ثم أقام سعيد بن قتيبة بمرعش ، وبعث محمد بن زيد إلى طرسوس .

وقضى الرشيد ثلاثة أيام من شهر رمضان بدرب الحدث . على أن الروم أغاروا على مرعش وأصابوا كثيراً من المسلمين .

وفيها غزا يزيد بن مخلد الهبيرى أرض الروم فى عشرة آلاف ، فسدت عليه الروم المضيق وقتلوه ومن معه على بعد مرحلتين من طرسوس .

٨٠٨م / ١٩٢هـ فيها كان الفداء بين المسلمين والروم .

٨٠٩م / ١٩٣هـ فيها مات الرشيد .

ملحق ٣

مراسلات الإمبراطور نقفور فوقاس (٩٦٣ — ٩٦٩ م)

إلى

المسلمين بعد انتصاراته عليهم فى إقليم الثغور

ورد

المسلمين عليه بما يُسَفِّه آراءَه

«وردت من نقفور عظيم الروم على المسلمين قصيدة ساءتهم وشقت عليهم لما كان اللعين أجرى إليهم فيها من التثريب والتعيير وضروب الوعيد والتهديد ... وكانت (القصيدة) باسم الفضل الإمام المطيع لله أمير المؤمنين ... منها :

أما سمعت أذناك ما أنا صانع ... بلى فعداك العجز عن فعل حازم
ثغوركم لم يبق فيها لوهنكم ... وضعفكم إلا رسوم المعالم
فتحنا ثغور الأرمنية كلها ... بفتيان صدق كالليوث الضراغم
ونحن جلبنا الخيل تعلك لجمها ... ويلعب منها بعضها بالشكائم
إلى كل ثغر بالجزيرة آهل ... إلى جند قنسرينكم والعواصم
ومرعش أذللنا أعزة أهلها ... فصارت لنا من بين عبد وخادم
وملنا على طرسوس ميلة غاشم ... أذقناهم فيها بجز الحلاقم
واقريطش [1] مالت إليها مراكبي ... على ظهر بحر مزبد متلاطم
فحزناهم أسراً وسيقت نساؤهم ... ذوات الشعور المسبلات الفواحم
وأنطاك [2] لم تبعد على وإنني ... سألحقها يوماً بنزوة حازم
ومصر سأفتحها بسيفي عنوة ... وأحرز أموالا بها في غنائمي
وكافور أغزوه بما يستحقه ... بمشط ومقراض ومص المحاجم
ألا شمروا يا أهل بغداد ويلكم ... فملككم مستضعف غير دائم [3]

من قصيدة أجاب بها المسلمون على تهديد نقفور، تولى نظمها الشيخ الإمام القفال الشاشي :

---

(١) إقريطش هي جزيرة كريت .

(٢) يقصد أنطاكية .

(٣) لعل هذه القصيدة التي تنسب إلى نقفور تشير إلى أن ديوان الإنشاء بالدولة البيزنطية ضم أشخاصاً يجيدون العربية ونظم الشعر بها .

أتانى مقال لامرىء غير عالم ... بطرق مجارى القول عند التخاصم
تثبت هداك الله إن كنت طالباً ... لحق فليس الخبط فعل المقاسم
ولا تتكبر بالذى أنت لم تنل ... كلابس ثوب الزور وسط المقادم (١)
ترى نحن لم نوقع بكم وبلادكم ... وقائع يثنى ذكرها فى المواسم
أتذكر هذا أم فؤادك هائم ... فليس بناس كل ذا غير هائم
طردناكم قهراً إلى أرض رومكم ... فطرتم من السامات طرد النعائم
ولولا وصايا للنبى محمد ... بكم لم تنالوا تلك المجاثم
وقلتم ملكناكم بجور قضاتكم ... وبيعهم أحكامهم بالدراهم
وفى ذاك إقرار بصحة ديننا ... وأنا ظلمنا فابتلينا بظالم
وعددت بلداناً تريد افتتاحها ... وتلك أمان ساقها حلم حالم
لئن كان بعض العرب طارت قلوبهم ... أو ارتد منهم حشوة كالبهائم
لقد أسلمت بالشرق هند وسندها ... وصين وأتراك الرجال الأعاجم
ونرجو بفضل الله فتحاً عاجلاً ... ننال بقسطنطين ذات المحارم
هناك ترى نقفور والله قادر ... ينادي عليه قائماً فى المقاسم
فيضحك منا سن جذلان باسم ... ويقرع منه سن خزيان نادم
وإن تسلموا فالسلم فيه سلامة ... وأهنأ عيش للفتى عيش سالم (٢)

(١) يقصد بذلك أن معظم الفتوحات التى يتشدق بها نقفور لم تحدث فى عهده .
(٢) تاج الدين السبكى ، طبقات الشافعية الكبرى ، ج ٢ ، ص ١٧٩ — ١٨٤

ملحق ٤

سفارة الخليفة الواثق بالله العباسي

إلى مدينة إفيسوس بآسيا الصغرى

لمشاهدة

الكهوف المحفوظ فيها جثث الشبان

السبعة الذين استشهدوا أيام

الامبراطور دقلديانوس

(أهل الكهف)

أهل الكهف والرقيم

« وعمل ترقيسيس[١] ، وفيه من الحصون أفسيس ... وهى مدينة أصحاب الكهف ... وقد قرىء فى مسجدهم كتاب بالعربية بدخول مسلمة بلاد الروم ... وكان الواثق بالله وجه محمد بن موسى المنجم إلى بلاد الروم لينظر إلى أصحاب الرقيم ، وكتب إلى عظيم الروم بتوجيه من يوقفه عليهم . فحدثنى محمد بن موسى أن عظيم الروم وجه معه من صار به إلى قرّة ، ثم صار أربع مراحل ، وإذا جُبيل ، قطر أسفله أقل من ألف ذراع ، وله سرب من وجه الأرض ينفذ إلى الموضع الذى فيه أصحاب الرقيم . قال ، فبدأنا بصعود الجبل إلى ذروته ، فإذا بئر محفورة لها سعة تبينا الماء فى قعرها ، ثم نزلنا إلى باب السرب ، فمشينا فيه مقدار ثلثمائة خطوة فصرنا إلى الموضع الذى أشرفنا عليه ، فإذا رواق فى الجبل على أساطين منقورة ، وفيه عدة أبيات ، منها بيت مرتفع العتبة مقدار قامة ، عليه باب حجر منقور فيه الموتى ، ورجل موكل بحفظهم ... ، وإذا هو يحيد عن أن نراهم أو نفتشهم ، وزعم أنه لا يأمن أن يصيب من التمس ذلك آفة ، يريد التمويه ليدوم كسبه بهم . فقلت له دعنى أنظر إليهم وأنت برىء ، فصعدت بشمعة غليظة مع غلامى ، فنظرت إليهم فى مسوح تتفرك فى اليد ، وإذا أجسادهم مطلية بالصبر والمرّ والكافور ليحفظها ، وإذا جلودهم لاصقة بعظامهم ، غير أنى أمررت يدى على صدر أحدهم فوجدت خشونة شعره وقوة نباته[٢] » .

---

(١) هو إقليم من أقاليم آسيا الصغرى الإدارية ، فى الجنوب الغربى منها (انظر الخرائط) وأفسيس هى إفيسوس .

(٢) ابن خرداذبة ، المسالك ، ١٠٦ ، ١٠٧ .

ملحق ٥

مقتبسات
توضح حياة الأسرى المسلمين

فى
أراضى الدولة البيزنطية

معسكرات الاعتقال ونظم الحياة بها

« اعلم أن مسلمة بن عبد الملك لما غزا بلد الروم ودخل هذا المصر شرط على كلب الروم بناء دار بإزاء قصره فى الميدان ينزلها الوجوه والأشراف إذا أسروا ليكونوا تحت كنفه وتعاهده . فأجابه إلى ذلك ، وبنى دار البلاط ، والبلاط خلف الميدان ، يصنع به الديباج الملكى . ولا يسكن دار البلاط إلا وجيه فى إجراء وتعاهد وتنزه .

وسائر الأسارى من عامة المسلمين يستعبدون ، ويستعملون فى الصنائع . فالحازم الذى إذا سئل عن صنعته لم يقر بها ؛ وربما اتجر الأسارى بينهم وانتفعوا . ولا يكرهون أحداً على أكل لحم الخنزير ، ولا يثقبون أنفاً ولا يشقون لساناً . ومن دار الكلب إلى دار البلاط حبل ممدود ، فيه صورة فرس من نحاس ؛ ولهم أوقات يجتمعون فيها للعب ، واسم الملك وينطوا واسم الوزير براسيانا . فإذا أرادوا أن يتفاءلوا فى لعبهم صاروا حزبين ، وأرسلوا الخيل حول الدكة ، فإن سبقت خيل حزب الكلب قالوا ستكون الغلبة للروم ، فصاحوا وينطوا وينطوا . وإن غلبت خيل حزب الوزير قالوا ستكون الغلبة للمسلمين ، فصاحوا براسيانا ، وذهبوا إلى المسلمين ، فيخلعون عليهم ويصلونهم لكون الغلبة لهم[1] » .

---

(١) المقدسى ، نفس المرجع ، ص ١٤٧ ، ١٤٨

الترفيه عن الأسرى فى عيد الميلاد

« وفى يوم الميلاد يؤمر . . فيؤتى بأسارى المسلمين فاقعدوا على تلك الموائد (فى القصر) وحمل إليه (إلى الملك) عند قعوده فى الصدر موائد من ذهب ... فتوضع بين يديه ولا يؤكل عليها ، وإنما تترك ما دام الملك على مائدته ، فإذا قام رفعت ، ثم يؤتى بالمسلمين وعلى تلك الموائد من الحار والبارد أمر عظيم ، ثم ينادى منادى الملك فيقول : وحياة رأس الملك ما فى هذه الأطعمة شىء من لحم الخنزير ، وينقل إليهم تلك الأطعمة فى صحاف الذهب والفضة . . والقوم كلهم جلوس على الموائد ويدخل عليه عشرون رجلا بأيديهم الحلباقات والحلباق الصنج يضربون فيها ماداموا يأكلون ، ويطعمون على هذه الصفة اثنى عشر يوماً ، فإذا كان آخر هذه الأيام يعطى كل أسير من المسلمين دينارين وثلاثة دراهم . . ثم يقوم الملك ويخرج من باب البيدرون[١] » .

حضور الأسرى حفل تقليد الملك مهام دولته لوزيره فى[٢] الكنيسة

« ثم يأمر الملك بإدخال أسارى المسلمين الكنيسة ، فينظرون إلى تلك الزينة والملك فيصيحون أطال الله بقاء الملك سنين كثيرة « ثلاث مرات » ثم يؤمر فيخلع عليهم[٣] » .

---

(١) ابن رسته ، نفس المرجع ، ص ١٢٢ ، ١٢٣

(٢) انظر ملحق ١ ، خروج الملك إلى الكنيسة التى للعامة .

(٣) ابن رسته ، نفس المرجع ، ص ١٢٥

ربما رمت الدولة البيزنطية من وراء مشاهدة الأسرى هذا الاحتفال إظهار ميل الإمبراطور إلى العدل وبث روح الطمأنينة فى نفوسهم .

انتظار الأسرى تقرير مصيرهم

« ومما يلي باب الذهب من المدينة قبة قنطرة معقودة فى وسط سوق المدينة فيها صنمان واحد يشير كأنه يقول بيده هاته ، والآخر يشير بيده كأنه يقول اصبر ساعة ، وهما طلسمان ، فيؤتى بالأسارى فيوقفون بين هذين الصنمين ينتظر بهم الفرج ، ويذهب رسول الملك ذلك ، فإن رجع الرسول وهم وقوف ذهب بهم إلى الحبس ، وإن وافاهم الرسول وقد جوز بهم الصنمين قتلوا ولم يبق منهم على أحد(١) » .

صورة من تبادل الأسرى (الفداء)

« وكفرسلام من قرى قيسارية(٢) . . . ولهذه القصبة رباطات على البحر ، يقع بها النفير ، وتقلع إليها شلنديات الروم وشوانيهم(٣) ، ومعهم أسارى المسلمين للبيع كل ثلاثة بمائة دينار . وفى كل رباط قوم يعرفون لسانهم ويذهبون إليهم فى الرسالات ، ويحمل إليهم أصناف الأطعمة . وقد ضُجّ بالنفير لما ترايت مراكبهم ، فإن كان ليل أوقدت منارة ذلك الرباط(٤) ، وإن كان نهار دخنوا . ومن كل رباط إلى القصبة عدة منابر شاهقة ، قد رتب فيها أقوام ، فتوقد المنارة التى للرباط ثم التى تليها ثم الأخرى ، فلا يكون ساعة إلا وقد أنفر بالقصبة ، وضرب الطبل على المنارة ، ويؤدى إلى ذلك الرباط ، وخرج الناس بالسلاح والقوة واجتمع أحداث الرساتيق . ثم يكون الفداء فرجل يشترى رجلا ، وآخر يطرح درهما أو خاتماً حتى يُشترى مامعهم(٥) » .

---

(١) ابن رسته ، نفس المرجع ، ص ٢٢٦

(٢) قيسارية مدينة بفلطسين .

(٣) الشلنديات والشوانى نوع من السفن الحربية .

(٤) الرباط مكان به حاميات دائمة .

(٥) المقدسى ، نفس المرجع ، ص ١٧٧

ملحق ٦

جدول بأسماء الأباطرة البيزنطيين

في

القرن السابق لظهور الإسلام

و

جدول بأسماء الأباطرة البيزنطيين

والخلفاء المسلمين إلى ظهور السلاجقة

والنورمان

الأباطرة البيزنطيون فى القرن السابق لظهور الإسلام

الإمبراطور	السنة	أهم الأحداث
جستين الأول	٥١٨ — ٥٢٧ م	قتل مسيحى نجران سنة ٥٢٣ م ؛ وطرد أبرهه ذانواس اليهودى من اليمن سنة ٥٢٥ م .
جستنيان العظيم	٥٢٧ — ٥٦٥ م	تولى كسرى أنوشروان عرش فارس سنة ٥٣١ م
جستين الثانى	٥٦٥ — ٥٧٨ م	مولد الرسول الكريم سنة ٥٧١ م
طبريوس الثانى	٥٧٨ — ٥٨٢ م	وفاة كسرى أنوشروان سنة ٥٧٩ م
موريس	٥٨٢ — ٦٠٢ م	
فوقاس	٦٠٢ — ٦١٠ م	بدأت المؤامرات ضد فوقاس سنة ٦٠٥ م ، وغزا الفرس الإمبراطورية البيزنطية سنة ٦٠٧ م
هرقل	٦١٠ م	دخول هرقل العاصمة البيزنطية وخلع فوقاس سنة ٦١٠ م .

الأباطرة البيزنطيون والخلفاء المسلمون

سنة تولى الحكم	الامبراطور	الخليفة	سنة تولى الحكم	أهم الأحداث
٦١٠ م	هرقل			وقعت غزوة مؤته سنة ٦٢٩ م / ٨ هـ
				قاد النبى حملة تبوك سنة ٦٣٠ م / ٩ هـ
		أبو بكر	٦٣٢ م ١١ هـ	سقوط بصرى بالشام ٦٣٤ م / ١٣ هـ
		عمر بن الخطاب	٦٣٤ م ١٣ هـ	انتصار المسلمين فى معركة اليرموك سنة ٦٣٦ م / ١٥ هـ
				غزو عمرو بن العاص مصر ٦٣٩م/١٨هـ
٦٤١ م	قنسطانز الثانى			
		عثمان بن عفان	٦٤٤ م ٢٣ هـ	فشل مانويل فى استعادة مصر سنة ٦٤٥ م / ٢٥ هـ
				معركة ذات الصوارى وانتصار المسلمين فيها سنة ٦٥٥ م / ٣٤ هـ
		على بن أبى طالب	٦٥٦ م ٣٥ هـ	
		معاوية	٦٦١ م ٤١ هـ	قيام الدولة الأموية
٦٦٨ م	قنسطنطين الرابع			
				حصار القسطنطينية المعروف بحرب السنوات السبع سنة ٦٧٤ — ٦٨٠ م / ٤٥ — ٦٠ هـ

سنة تولى الحكم	الامبراطور	الخليفة	سنة تولى الحكم	أهم الأحداث
		يزيد الأول	٦٨٠ م ٦٠ هـ	
		معاوية الثانى	٦٨٣ م ٦٤ هـ	
		مروان	٦٨٣ م ٦٤ هـ	
٦٨٥ م	جستنيان الثانى	عبد الملك	٦٨٥ م ٦٥ هـ	الاتفاق على نقل الجراجمة إلى داخل الأراضى البيزنطية
٦٩٥ م	ليونتيوس			
٦٩٨ م	طبريوس الثالث			
٧٠٥ م	جستنيان الثانى يستأنف حكمه	الوليد	٧٠٥ م ٨٦ هـ	
٧١١ م	فيليبكس			
٧١٣ م	انستاسى الثانى			
٧١٥ م	توداسيوس الثالث	سليمان	٧١٥ م ٩٦ هـ	حصار المسلمين القسطنطينية سنة ٧١٧ م / ٩٨ هـ
٧١٧ م	ليو الثالث	عمر بن عبد العزيز	٧١٧ م ٩٩ هـ	قيام الأسرة الإيسورية فى الدولة البيزنطية . رفع الحصار عن القسطنطينية سنة ٧١٨ م / ٩٩ هـ

سنة تولى الحكم	الامبراطور	الخليفة	سنة تولى الحكم	أهم الأحداث
		يزيد الثانى	٧٢٠م ١٠١ه	
		هشام	٧٢٤م ١٠٥ه	أصدر ليو فى سنة ٧٢٦ م مرسومه الشهير ضد الإيقونات .
٧٤٠	قنسطنطين الخامس			
		الوليد الثانى	٧٤٣م ١٢٥ه	
		يزيد الثالث	٧٤٤م ١٢٦ه	
		ابراهيم	٧٤٤م ١٢٦ه	
		مروان الثانى	٧٤٤م ١٢٧ه	
				سقوط الدولة الأموية وقيام الدولة العباسية سنة ٧٥٠ م / ١٣٢ ه
		السفاح	٧٥٠م ١٣٢ه	
		المنصور	٧٥٤م ١٣٦ه	
٧٧٥م	ليو الرابع	المهدى	٧٧٥م ١٥٨ه	

أهم الأحداث	سنة تولى الحكم	الخليفة	الامبراطور	سنة تولى الحكم
			قنسطنطين السادس	٧٨٠م
	٧٨٥م ١٦٩هـ	الهادى		
حكمت أيرين وصية على ابنها من ٧٨٠ — ٧٩٠ م ، ومن ٧٩٢ — ٧٩٧ م	٧٨٦م ١٧٠هـ	الرشيد		
انفردت أيرين بالحكم، واشتدت إغارات الرشيد على أرض الدولة البيزنطية .			الامبراطورة أيرين	٧٩٧م
			نقفور الأول	٨٠٢م
	٨٠٩م ١٩٣هـ	الأمين		
			ميخائيل الأول	٨١١م
	٨١٣م ١٩٨هـ	المأمون	ليو الخامس	٨١٣م
قيام الأسرة العمورية فى الدولة البيزنطية. مساعدة المأمون للثائر توماس الصقلي ضد الامبراطور ميخائيل الثانى . هزيمة توماس سنة ٨٢٣ م . رحيل الأندلسيين المسلمين من الاسكندرية واحتلالهم كريت سنة ٨٢٧ م / ٢١٢ هـ .			ميخائيل الثانى	٨٢٠م

سنة تولى الحكم	الامبراطور	الخليفة	سنة تولى الحكم	أهم الأحداث
٨٢٩م	ثيوفيل			هزم بابك الخرمى ، الذى أعلن العصيان على الخلافة الاسلامية سنة ٨١٦ م ، جيشاً بعثه إليه المأمون سنة ٨٢٩ م / ٢١٤ هـ .
		المعتصم	٨٣٣م ٢١٨هـ	بدأ المعتصم انتصاراته على الخرمية ٨٣٣ م / ٢١٨ هـ
				تخريب زبطرة سنة ٨٣٧ م / ٢٢٢ هـ
				القضاء على الخرمية سنة ٨٣٧ م
				تخريب عمورية ٨٣٨ م / ٢٢٣ هـ
٨٤٢م	ميخائيل الثالث	الواثق	٨٤٢م ٢٢٧هـ	
		المتوكل	٨٤٧م ٢٣٢هـ	أغار الأسطول البيزنطى على دمياط سنة ٨٥٣م / ٢٤٨ هـ
		المنتصر	٨٦١م ٢٤٧هـ	
		المستعين	٨٦٢م ٢٤٨هـ	
		المعتز	٨٦٦م ٢٥١هـ	
٨٦٧م	باسل الأول			قيام الأسرة المقدونية فى الدولة البيزنطية
				قيام الدولة الطولونية فى مصر ٨٦٨ م / ٢٥٤ هـ

سنة تولى الحكم	الامبراطور	الخليفة	سنة تولى الحكم	أهم الأحداث
		المهتدى	٨٦٩م ٢٥٥هـ	
		المعتمد	٨٧٠م ٢٥٦هـ	وقوع عبد الله بن كاوس والى الثغور الشامية أسيراً فى قبضة البيزنطيين ٨٧٧م / ٢٦٤هـ
٨٨٦م	ليو الرابع			
		المعتضد	٨٩٢م ٢٧٩هـ	
		المكتفى	٩٠٢م ٢٨٩هـ	
		المقتدر	٩٠٨م ٢٩٥هـ	
٩١٢م	اسكندر			
٩١٣م	قنسطنطين السابع			
٩١٩م	رومانوس الأول			
		القاهر	٩٣٢م ٣٢٠هـ	
		الراضى	٩٣٤م ٣٢٢هـ	

سنة تولى الحكم	الامبراطور	الخليفة	سنة تولى الحكم	أهم الأحداث
				قيام الدولة الأخشيدية ٩٣٥م / ٣٢٣هـ
		المتقى	٩٤٠م ٣٢٩هـ	
٩٤٤م	قسطنطين السابع يحكم بمفرده	المستكفى	٩٤٤م ٣٣٣هـ	سيف الدولة الحمدانى بحلب ٩٤٤م
		المطيع	٩٤٦م ٣٣٤هـ	
٩٥٩م	رومانوس الثانى			
				استيلاء نقفور فوقاس على كريت ٩٦١م / ٣٥٠هـ
٩٦٣م	نقفور فوقاس			
٩٦٩م	حنا تزمسكيس			فتح الفاطميون مصر سنة ٩٦٩م / ٣٥٨هـ
				انتقال المعز الفاطمى إلى القاهرة سنة ٩٧٣م / ٣٦٢هـ
		الطائع	٩٧٤م ٣٦٣هـ	حملة تزمسكيس المشهورة على إقليم الثغور، واقترابه من بيت المقدس سنة ٩٧٥م
				تولى العزيز الفاطمى الخلافة بالقاهرة ٩٧٥م / ٣٦٥هـ

سنة تولى الحكم	الامبراطور	الخليفة	سنة تولى الحكم	أهم الأحداث
٩٧٦م	باسل الثانى			
		القادر	٩٩١م ٣٨١هـ	
				تولى الحاكم الفاطمى الخلافة بالقاهرة ٩٩٦م/٣٨٦ هـ .
				حضور باسل الثانى إلى الشام سنة ٩٩٩ م/٣٩٠ هـ بسبب امتداد عمليات الفاطميين الحربية إلى أنطاكية .
				تولى الخليفة الظاهر الفاطمى الخلافة بالقاهرة ١٠٢٠ م/٤١١ هـ .
١٠٢٥	قنسطنطين الثامن			
١٠٢٨	رومانوس الثالث			
		القائم	١٠٣١م ٤٢٢هـ	
١٠٣٤	ميخائيل الرابع			
				تولى المستنصر الفاطمى الخلافة بالقاهرة ١٠٣٥م/٤٢٧ هـ .
١٠٤١	ميخائيل الخامس			
١٠٤٢	قنسطنطين التاسع			
١٠٥٥	تيودورا			

سنة تولى الحكم	الامبراطور	الخليفة	سنة تولى الحكم	أهم الأحداث
١٠٥٦	ميخائيل السادس			أقيمت الخطبة للخليفة العباسى بدلا من الخليفة الفاطمى فى مسجد القسطنطينية ١٠٥٦ م/٤٤٧ هـ .
١٠٥٧	اسحق الأول			
١٠٥٩	قنسطنطين العاشر			قيام أسرة دوقاس فى الامبراطوريه البيزنطية .
١٠٦٧	ميخائيل السابع			
١٠٦٨	رومانوس الرابع			استيلاء السلاجقة على حلب ١٠٧٠م ، وسقوط بارى فى أيدى النورمان، موقعة منزكرت وأسر الامبراطورية رومانوس ١٠٧١ م
١٠٧١	ميخائيل السابع (مرة أخرى)			
		المقتدى	١٠٧٥ ٤٦٧هـ	

المراجع

ابن الأثــــير :

الـكامل فى التاريخ (بولاق)

الإصطخرى :

مسالك الممالك (ليدن ١٩٢٧)

ابن أبى أصيبعة :

عيون الأنباء فى طبقات الأطباء ج ١ (١٧٨٢ م)

البلاذرى :

فتوح البلدان (القاهرة — ١٩٠٠ م)

دى بور : De Boer

تاريخ الفلسفة فى الإسلام (ترجمة محمد عبد الهـادى أبو ريده — ١٩٣٨ م)

جميل نخلة المدور :

حضارة الإسلام فى دار السلام (١٩٣٢ م)

حسن ابراهيم حسن :

تاريخ الإسلام السياسى (١٩٤٨ م)

حسين مؤنس :

الشرق الإسلامى فى العصر الحديث (١٩٣٨)

أشير على القارىء بضرورة العناية بمقدمة هذا الـكتاب ، فهى من الطراز الأول لـكل من يريد دراسة الشرق الإسلامى فى أى عصر من عصوره .

ابن حوقل :

كتاب المسالك (ليدن ١٨٣٢ م)

ابن خرداذبه :

كتاب المسالك والممالك (ليدن ١٨٨٩)

الخطيب البغدادى :

تاريخ بغداد (القاهرة — ١٩٣١ م)

ابن خلدون :

مقدمة ابن خلدون (مصر)

ابن رسته :

كتاب الأعلاق النفسية (ليدن ١٨٩١)

زكى محمد حسن :

فنون الإسلام (١٩٤٨)

الرحالة المسلمون فى العصور الوسطى

أبو زيد :

سلسلة التواريخ (Ed .M. Reinaud — باريس ١٨١١)

السبكى :

طبقات الشافعية (القاهرة)

سيده إسماعيل كاشف :

مصر فى فجر الإسلام (١٩٤٧)

السيوطى :

حسن المحاضرة فى أخبار مصر والقاهرة (القاهرة)

الطبرى :

تاريخ الأمم والملوك (القاهرة — ١٣٢٦ هـ)

ابن عبد الحكم :

فتوح مصر (ليدن ١٩٢٠)

عبد الرحمن بدوى :

التراث اليونانى فى الحضارة الإسلامية (١٩٤٠)

فِشَر :

تاريخ أوربا فى العصور الوسطى (القسم الأول — ترجمة الدكتور محمد مصطفى زيادة والسيد الباز العرينى)

ابن الفقيه :

كتاب المسالك (ليدن ١٨٨٥)

قدامه بن جعفر :

نبذه من كتاب الخراج وصنعة الكتابة (ليدن)

ابن القلانسى :

ذيل تاريخ دمشق (بيروت ١٩٠٨)

القلقشندى :

صبح الأعشى فى صناعة الإنشا (القاهرة)

الكندى :

كتاب الولاه والقضاة (Ed . Rhavon Gaest)

متز : آدم Adam Metz

الحضارة الإسلامية فى القرن الرابع الهجرى (ترجمة أبو ريدة — ١٩٤١ م)

محمد حسونة :

الجغرافيا التاريخية الإسلامية (١٩٥٠)

المسعودى :

مروج الذهب ومعادن الجوهر (القاهرة) أربع أجزاء .
التنبيه والاشراف (مصر ١٩٣٨)

المقدسى :

أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم (ليدن)

المقريزى :

المواعظ والاعتبار فى ذكر الخطط والآثار (بولاق)

ابن هشام :

سيرة رسول الله (القاهرة)
كتاب التيجان فى ملوك حمير (حيدر أباد)

ابن النديم :

كتاب الفهرست (القاهرة)

نلدكه : Noeldeke

أمراء غسان (ترجمة بندلى جوزى ، وقسطنطين زريق — بيروت ١٩٣٣)

ياقوت :

معجم البلدان (القاهرة ١٩٠٧ م)

يحيى بن سعيد الأنطاكى :

صلة كتاب أوتيخا (الجزء ١٨ من مجموعة Patrologia Orientalis)

Ameer Ali, Sayed,

A short History of the Saracens (London 1899)

Anderson, J. G. C.

The Road-System of Eastern Asia Minor (Journal of Hellenic studies, XVII—1897).

Arculf,

The pilgrimage of Arculf in the Holly Land (Trans. by Macpherson—London 1889)

Arnold, T. W.

The Preaching of Islam (London 1935)

Barraclough, G.

The Mediaeval Empire, Idea and Reality. (The Historical Association—General Series : G 17)

Baynes, N. H.

The Byzantine Empire (London 1925)

ترجم هذا الكتاب إلى العربية الدكتور حسين مؤنس ومحمود زايد :

ويعتبر نقل هذا الكتاب إلى العربية من أجل الخدمات لتوسيع المكتبة العربية فى مادة التاريخ البيزنطى . وأشير على القارىء بالرجوع إلى هذه الترجمة فيما يرغب الاستزادة منه من نواحى المعلومات البيزنطية ، والمترجم هنا أدى خدمة أخرى ، حيث أضاف ملاحق عبارة عن ترجمة لفصول أخرى من أهم الكتب التى تنير الطريق للقارىء .

Byzantium (Ed. Baynes and Moss-Oxford 1948).

Beazley, C. R.

The Dawn of Modern Geography (London 1897).

Bell, H. I.

The Aphrodito Papyri (Greek Papyri in The British Museum,IV.)

Bernard the wise,

The Itinerary of Bernard the wise (Trans. by H. Bernard, London 1893)

Bréhier , L. ,

Vie et Mort de Byzance (Paris 1949)

Brooks, E. W,

The relation between the Empire and Egypt (Byzantinische Zeitschrift XXII.)

Bury, J. B.,

A History of the later Roman Empire (London 1889).

History of the Eastern Empire (London 1912).

The Mutasim's March Through Cappadocia, (Journal of Hellenic Studies XXIX).

Butler, A.

The Arab Conquest of Egypt (Oxford 1902)

Charlesworth, M. P.

Trade Routes and Commerce of the Roman Empire (Cambridge 1926).

Cedrenus, G.,

Annales (Per I Oporinum et Episcopios Fratres Basileae—1566)

Cosmas,

The Christian Topography or Cosmas (Trans. by J. W. Mc. Crindle London, 1897).

Ferrand, G.,

Relation De Voyage et Textes Geographiques Arabes, (Paris1914)

Fisher, H. L.

A History of Europe (London 1935)

ترجم الدكتور زيادة القسم الخاص بالعصور الوسطى من هذا الكتاب . وهـذه الترجمة من الدرجة الأولى إن لم تكن نموذجاً عالياً يجب أن يحتذيه كل راغب فى خدمة المكتبة العربية وتيسير المعلومات لقرائها. فهذه الترجمة تمكن القارىء من الوقوف على مظاهر الحياة فى العصور الوسطى الأوربية بصورة لا يستطيع أن يضطلع بها غير الدكتور زيادة فى هذه الترجمة .

Galante, A.

Les Juifs de Constantinople sous Byzance (Istanboul 1940)

Ganshof, F. L.,

Notes sur Les Ports de Provence (Revue Historique Paris, 1938 — 183).

Gay, J.,

Note sur L'hellenisme sicilien (Byzantion I, 1924).

De Goeje, M.

Memoie sur la conquêt de la Syrie (Leide 1900).

Hadi Hassan,

A History of Parsian Navigation.

Hell, J.

Die Kultur der Araber (Liepzig 1919).

Heyd, W.

Histiore du commerce du Levant au Moyen-ages (Leipzig1885)

Hirth, F.

The mystery Fu-lin (Journal of the American Oriental Society, 33,)

Hitti, P. K.

History of the Arabs (London 1949).

ترجم هذا الكتاب إلى العربية الأستاذ محمد مبروك نافع . وبذل المترجم جهداً مشكوراً في التعليق على هذا الكتاب .

De Lacy O'leary.

How Greek Science Passed to the Arabs (London)

Lammens., H.

Etude sur Le Rigne du Calife Omaiyade Mo'awia Ier, (Beyr-outh, 1906).

Laurent., J.

L'Armenie Entre Byzance et L'Islam (Paris 1919).

Lopez.,

Mohamed and Charlemagne (Speculum) XVIII, 1934.

Mann., J.

The Responsa of the Babylonian Geonim (Jewish Quarterly Review-new series IX.)

Maspero., J.

Organisation Militaire de L'Egypte Byzantine (Paris 1912).

Mommsen., T.

The Provinces of Roman Empire (London 1886).

Muir, Sir William,

The Caliphate, its Rise, Decline and Fall (1942).

Nabia Abbott,.

The Kurrah Papyri.

Nassiri Khusrau.,

Sefer Nameh (Trad. Par Carles Schefer- Paris, 1881).

De Perçeval., A. G.

Essai Sur L'Histoire Des Arabes (Paris, 1848).

Pirenne., H.

Mahomet et Charlemagne (Paris, 1973).

Procopius,

History of wars (Trans. by H. B. Dewing.).

Runciman., S.

Byzantine Civilisation (London 1933)

The Emperor Romanus Lecapenus (1929) .

The Byzantine Protectorate in the Holy Land in The Eleventh Century (Byzantion XVI.) .

The Widow Danelis (Reprint From Etudes dédieés à la Memoire d'Andre Andereádis) (Athens 1940) .

Starr., C. G.

The Roman Imperial Navy (New-York. 1941) .

Le Strange., G.

Palestine under the Moslems (1890) .

The Lands of The Eastern Caliphate (Cambridge 1930) .

Theophanes,

Cronographia (Parisiis) .

Vasiliev.,

Histoire de L'Empire Byzantin.

Byzance et Les Arabés (Bruxelles 1935) .

(١) ترجم هذا الكتاب إلى العربية الدكتور محمد عبد الهادى شعيرة .

الفهرس

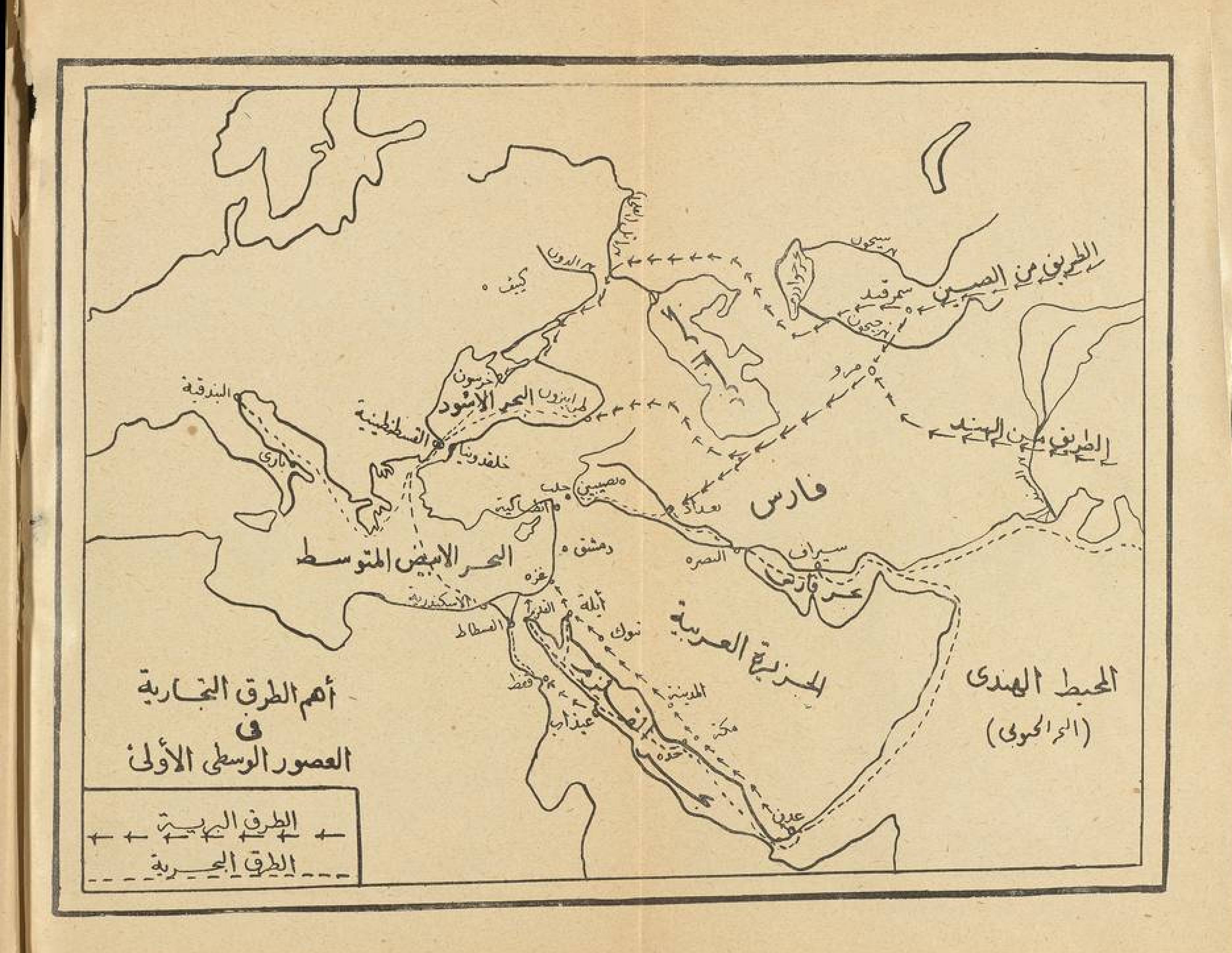
الفصل الرابع

الفصل الخامس

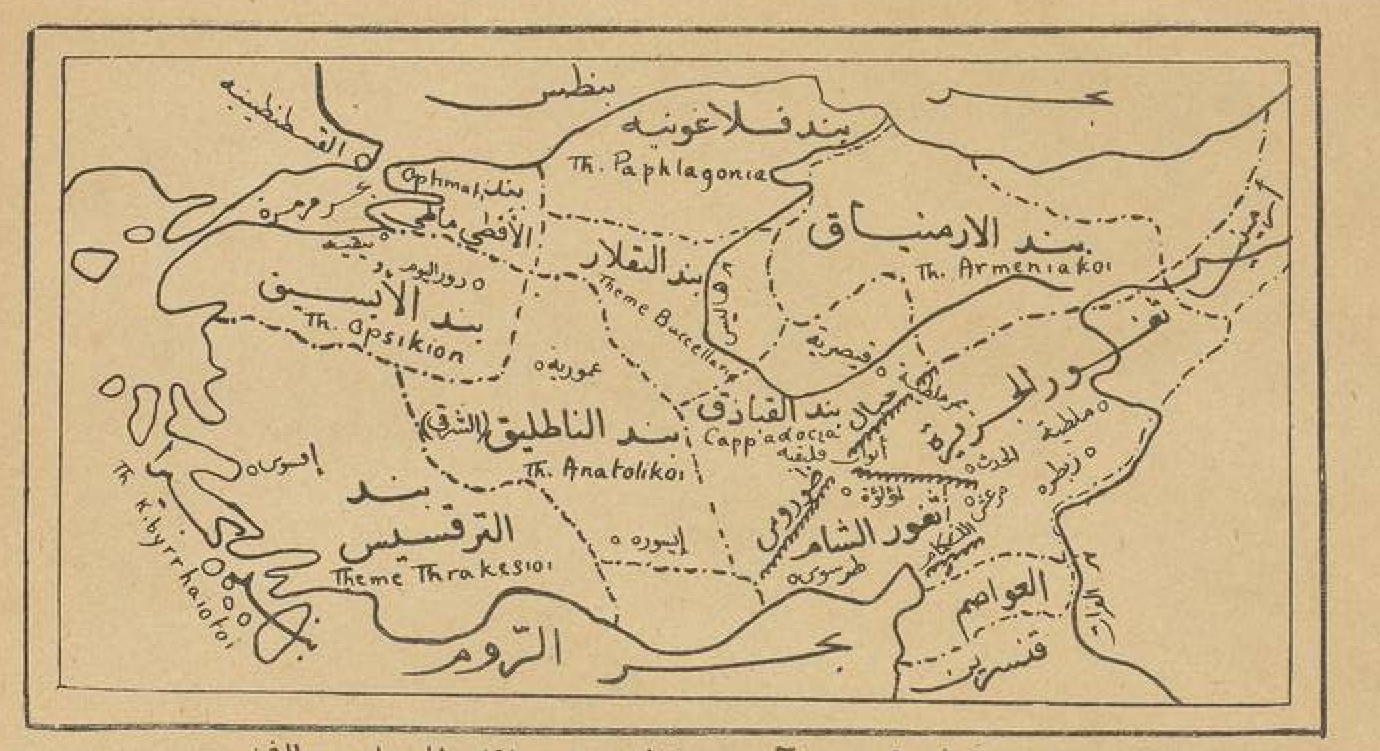
[تم طبع كتاب «الامبراطورية البيزنطية والدولة الإسلامية»
فى مطبعة لجنة البيان العربى بالقاهرة فى يوم السبت ١٩ من ربيع
الثانى سنة ١٣٧٠ هـ (الموافق يوم السبت ٢٧ من يناير سنة ١٩٥١م)
والحمد لله أولا وآخراً]

سيد محفوظ

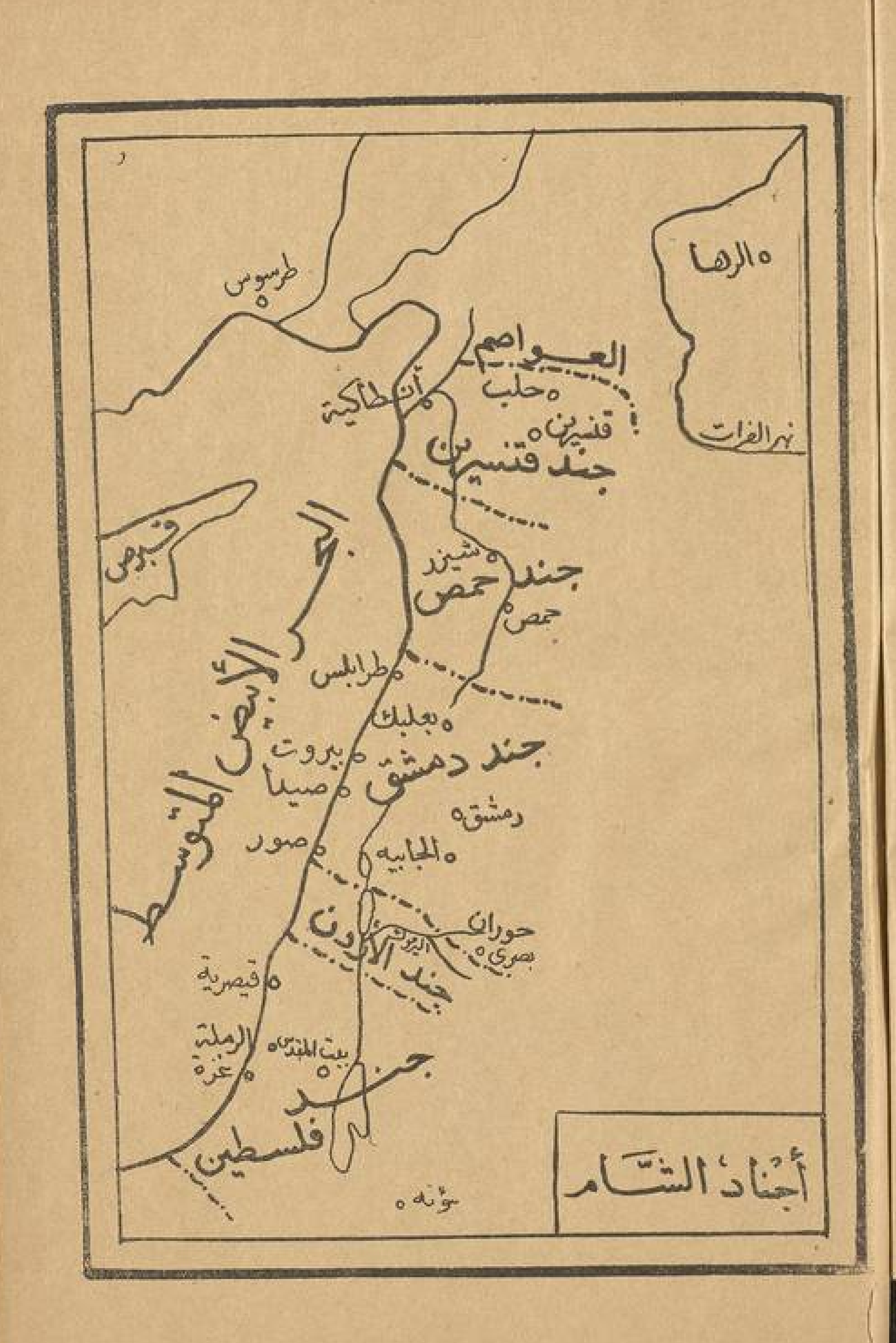
المدير الفنى للمطبعة



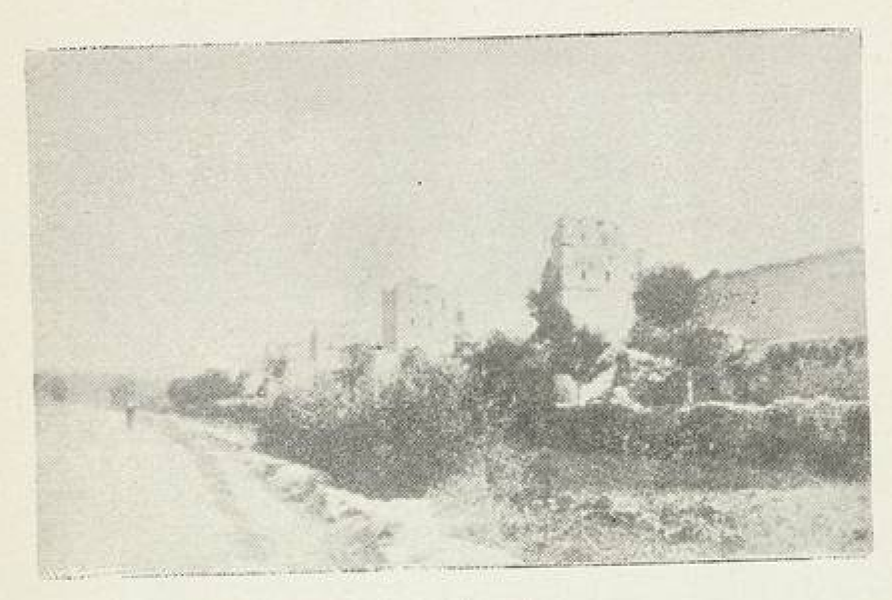
أهم الطرق التجارية
في
العصور الوسطى الأولى
الطرق البرية
الطرق البحرية
البحر الأبيض المتوسط
البحر الأسود
فارس
الجزيرة العربية
المحيط الهندى
الطريق من الصين
الطريق من الهند
سمرقند
سيحون
جيحون
مرو
الدون
كيف
خرسون
طرابزون
القسطنطينية
خلقدونيا
البندقية
بارى
نصيبين
حلب
انطاكية
دمشق
غزه
الاسكندرية
الفسطاط
قفط
عيذاب
أيلة
القلزم
تبوك
المدينة
مكة
جدة
عدن
بغداد
البصره
سيراف
بحر فارس



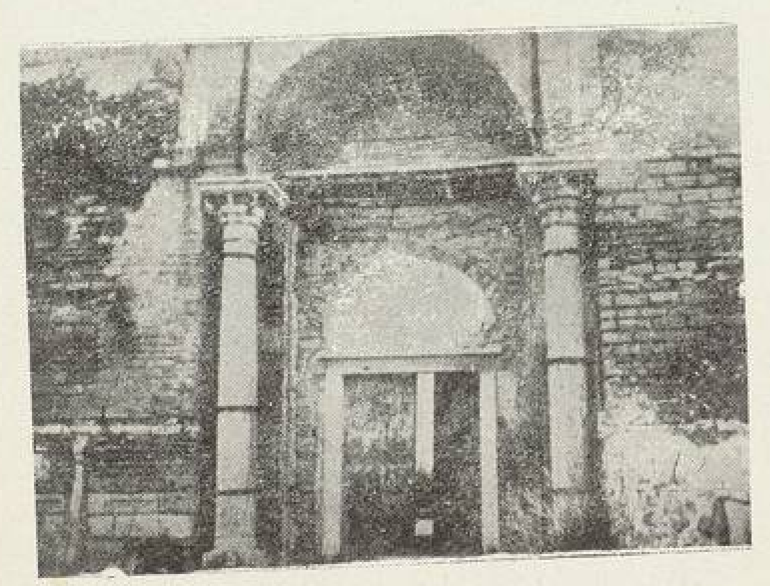
خريطة توضح بنود آسيا الصغرى واقليم العواصم والثغور



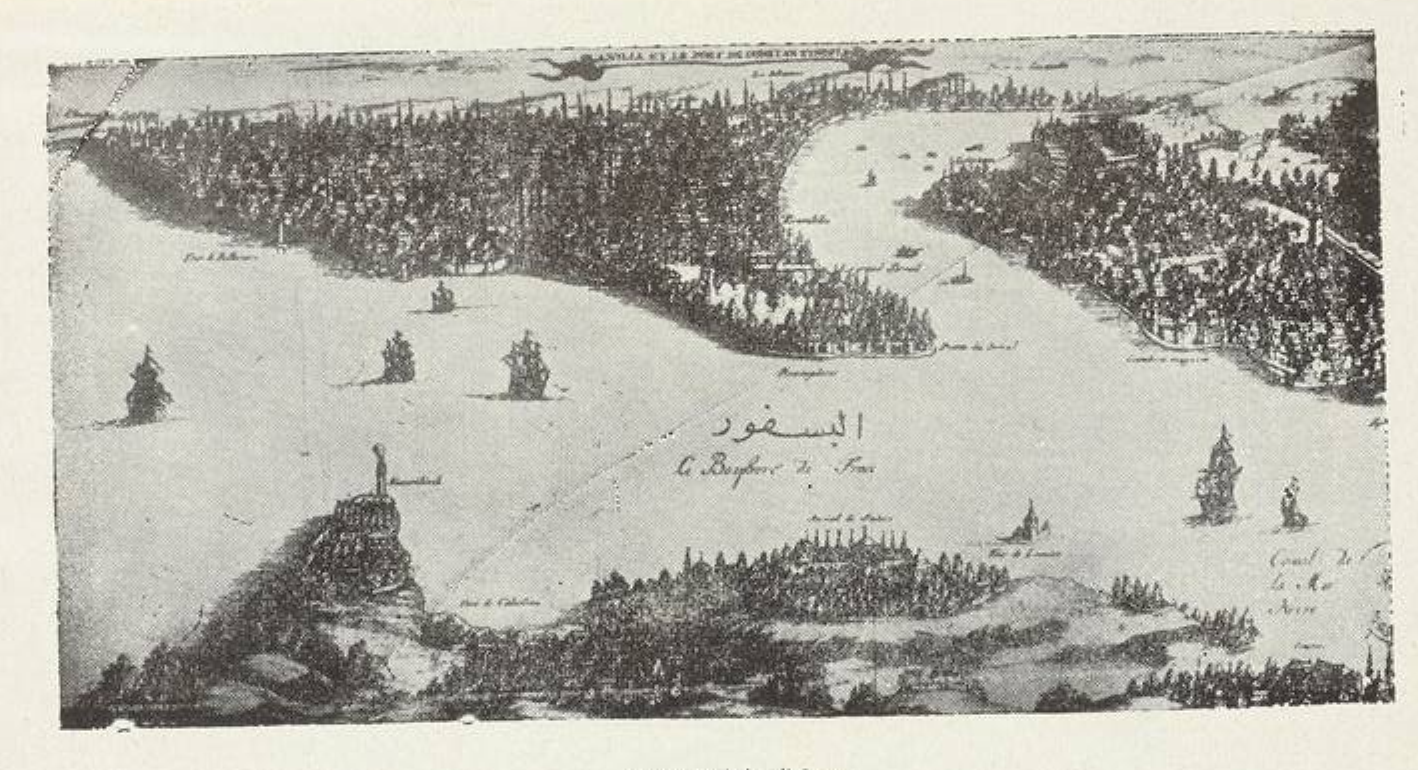
الرها
طرسوس
العواصم
حلب
أنطاكية
قنسرين
جند قنسرين
نهر الفرات
قبرص
البحر الأبيض المتوسط
شيزر
جند حمص
حمص
طرابلس
بعلبك
بيروت
صيدا
جند دمشق
دمشق
صور
الجابيه
حوران
بصرى
جند الأردن
قيصرية
الرملة
غزة
بيت المقدس
جند فلسطين
مؤته
أجناد الشام



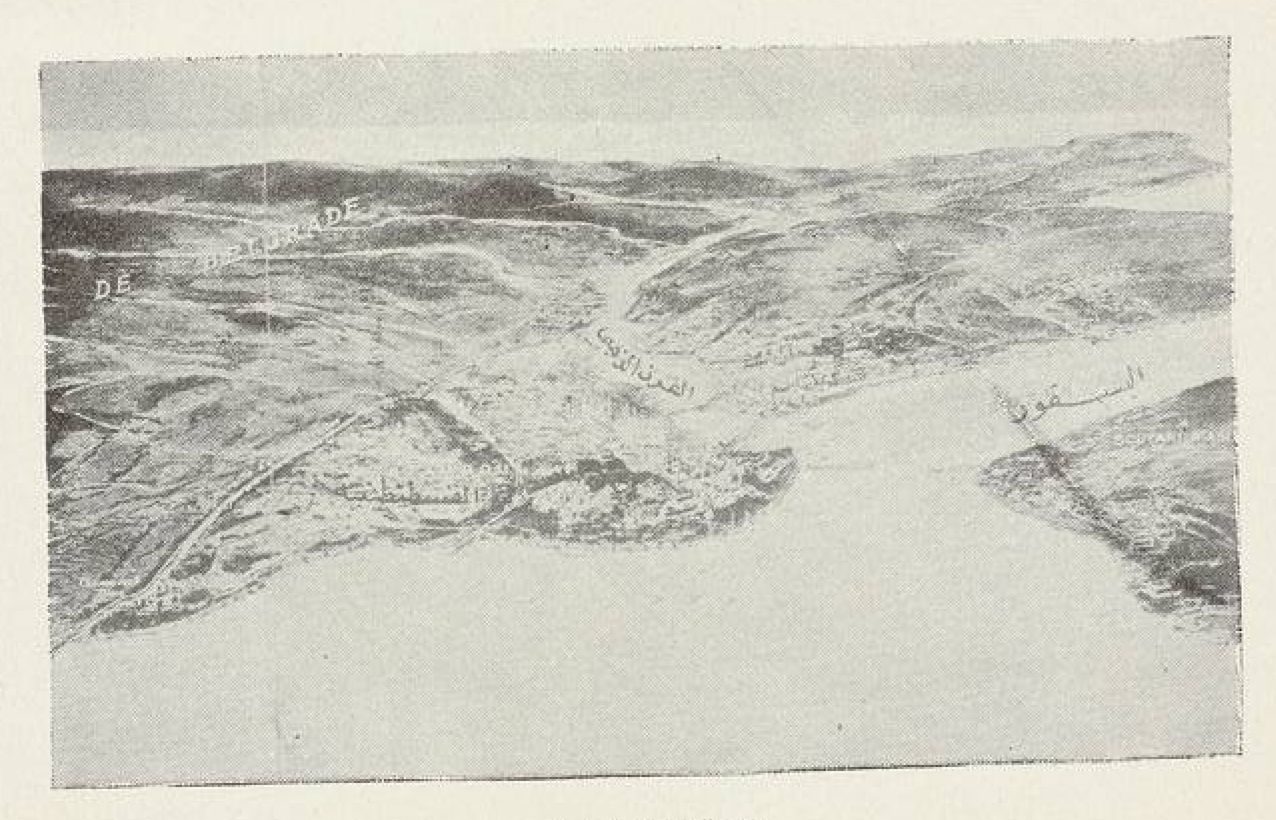
جانب من أسوار القسطنطينية



باب الذهب (أحد أبواب مدينة القسطنطينية)



مدينة القسطنطينية والميناء



إقلم القسطنطينة والميناء

Roughly co-inciding with a period of weakness in both Macedonian and Fatimite power, we have the rise of the Seljuqs in the Islamic world and the Northmen in the Byzantine, which led to a turning-point in history, that is, the Crusades, whereby Byzantium and Islam ceased to stand alone as the great powers in the mediaeval world.

With the revival. of Western Europe, Byzantium, in particular, loses her pre-eminence as a world power. It is for these reasons that I have considered this a suitable point at which to conclude my political survey.

The last two chapters are meant to show that, in spite of antagon--isms, Byzantium and Islam were conscious of the necessity for some sort of *modus vivendi* and for commercial and cultural exchanges. The last chapter, in particuiar, illustrates these points and emphasises the frequency of the interchange of visits as between the Byzantines and Muslims and the keen interest of the latter in the study of the governe-ment and administration of Byzantium. At the end of the chapter I have tried to show the sharp contrast between pronouncements in the religi-ous field by both sides, issued for political purposes and the wide measure of tolerance that, in practice, was allowed. Of this, perhaps, the foundation of the «Ansari Mosque» at Constantinople may be taken as a conclusive example.

EXPLANATORY NOTE

BYZANTIUM AND ISLAM

The object of this essay is to give a general picture of the relations between Islam and Byzantium in the early Middle Ages. In my treatment of the subject I have tried to show how Byzantine policy in the East made possible the rise of Islam, and how Islam gave the Near East a predominant status in world affairs of that age.

In the first chapter I have shown the extent of Byzantine interest in southern and northen Arabia, and how her policy, commercial and political, prepared the way for the growth of the Islamic faith in those regions. The second chapter, consequently, traces the various currents of policy in the Byzantine world. Thus the Persian Wars, the schisms between the Monophysites and Melkites, may be linked as factors favouring Islamic conquest of Syria and Egypt. This phase was followed by a struggle between the Muslims and the Byzantines for the supremacy of the Eastern Mediterranean, which was then the focus of the known world. A crucial point in this struggle was the failure of the Umayyad forces to capture Constantinople.

Thereupon the war took on another aspect, characterised by a series of desultory raids for plunder or revenge. Hence, the third chapter deals with the struggle for balance of power between Byzantium and Islam, and I have tried to show how success or failure in such raids was governed by internal conditions in Byzantine and Islamic territories respectively.

My political survey ends with a sketch of the relations between the Macedonian dynasty and the Islamic States of the Near East, among which latter the Fatimite power was pre-eminent.

BYZANTIUM AND ISLAM

by

Dr. Ibrahim A. El-Adawi

B. A. Hon. (Cairo)

Ph. D. (Liverpool)

Lecturer in Mediaeval History

Fouad Ist University

El-Bayan El-Arabi Press

BYZANTIUM AND ISLAM

by

Dr. Ibrahim A. El-Adawi

B. A. Hon. (Cairo)

Ph. D. (Liverpool)

Lecturer in Mediaeval History

Fouad 1st University

El - Bayan El - Arabi Press

